نماذج من « د . هـ . لورنس »

العذراء والغجرى

ترجمة : زغلول فهمى

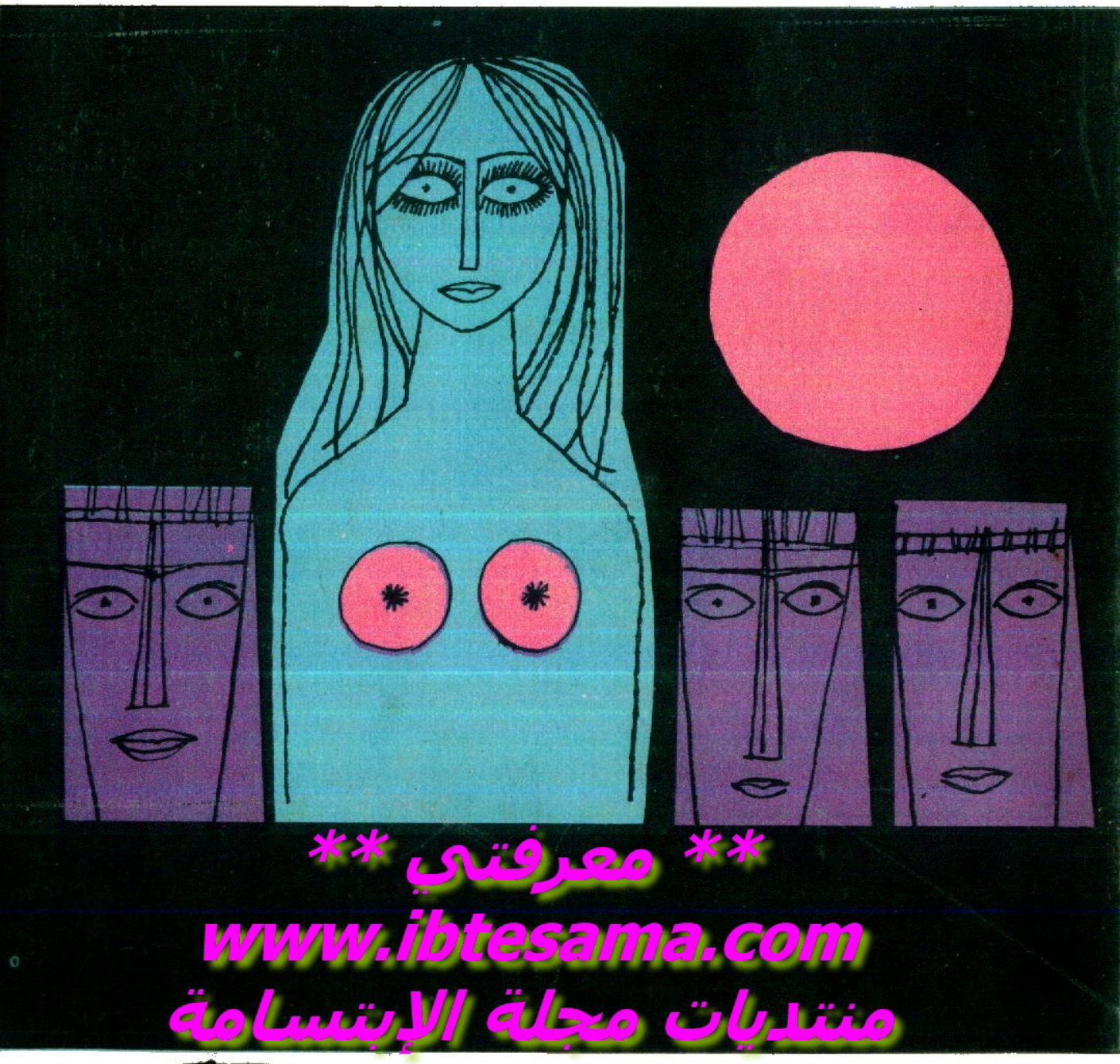

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

دار المعارف بمصر

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

العَذراء والغجَرى

المرأة التى جمحت

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

العذراء والغجرى

المرأة التى جمحت

تأليف

د. هـ. لورانس

ترجمة

زغلول فهمى

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقديم

د. هـ. لورانس

ولد لورانس سنة ١٨٨٥ لأبٍ من عمال المناجم، وأمٍّ من سيدات الطبقة المتوسطة الصغيرة بقرية مجاورة لمدينة نوتنجهام. وكان أبوه شرسًا قاسى الطباع، يُدمن الشراب كثير الشجار متذمّراً من أهله ومن الحياة، فى حين كانت أمُّه على النقيض من ذلك تمامًا. فقد أتاحتْ لها أسرتُها المتوسطة نصيبًا من التعليم وغرستْ فى نفسها الخُلُقَ الكريم والمبادئَ السامية. كما كانت إلى جانب ذلك طموحًا تُريد أن ترقى بزوجها وبأسرتها إلى الحياة الميسورة المحترمة. ولكن جميعَ محاولاتها لإصلاح الأب باءت بالفشل الذريع فبقى على حاله لم يتغير. وآبت هى باليأس من إصلاحه بعد أن رُزِقَتْ منه بثلاثة أطفال فعاش كل منهما فى غربة عن الآخر.

وأخيراً جاء لورانس إلى الوجود وشَبَّ فى هذا الجو الشاذّ وشَهِدَ ما بين أمه وأبيه من صراع دائم فى كل شىء فلم يكن أمامه إلا أن يَخُصَّ أمَّه بكل حبه. تلك الأم التى ضحَّتْ بسعادتها من أجل المحافظة على كيان الأسرة. ووجدت الأم فى حب لورانس عزاءً عن حب أبيه، فتجرَّدَتْ له، وَفنِيَتْ فيه، وعلَّمتَه من فنون الحَدْب ألوانًا.

ثم ذهب لورانس إلى المدرسة فى نوتنجهام ليتلقى تعليمه حيث حقق نجاحاً باهراً . فدخل مدرسة نوتنجهام العالية ثم الجامعة ولكنه تخرّج فى الجامعة مريضاً من كثرة مابذل من جَهْد فى التحصيل ، كما خرّب الالتهابُ الرئوى صحته . ثم اشتغل معلماً فى مدرسة إلزامية ببلدة كرويدون .

وفى سنة ١٩٠٩ أى عندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره نشر أشعاراً باسمه فى « المجلة الإنجليزية » . وفى سنة ١٩١٠ توفيت أمه ، وكانت هذه « كارثة كبرى » فقد كان لورانس شديد التعلق بها ، حتى إنه فكر فى الانتحار ولكنه عدل عن ذلك . وفى سنة ١٩١١ نشر أول قصة له وهى « الطاووس الأبيض » ، ثم قصة « الأبناء والعشاق » سنة ١٩١٢ . وفى نفس هذه السنة تعرّف على سيدة ألمانية تدعى « فون ريختوفن » واتخذها زوجاً له ، وقد تعرّض فى ذلك أيضاً لزوابع نفسية عنيفة فقد كانت هذه السيدة مرتبطة برباط الزواج فتحرّرتْ منه لتقترن بلورانس . ثم نَشِبَتْ الحربُ العالمية الأولى وتركت فى روحه جراحاً لم يبرأ منها قط . كان لورانس غير لائق للخدمة العسكرية فلم يُجنَّد فى الحرب ، فظل فى إنجلترا شقياً بنظرة الناس إليه لزواجه من امرأة ألمانية ، وشقياً بانهيار تلك الحضارة العظيمة التى عاشت ألفى عام ثم تحوّلتْ فى النهاية إلى حضارة بنادق ، حضارة موت وتخريب ، فقد كان يقول : « إن أوربا تنتحر بلا ريب » ، كما كان يقول : « إن الأحياء منا يطلبون

الموت، وخليقٌ بالأحياء أن يطلبوا الحياة ». ومن هنا كان سخطُه على المدنية وإيثاره النظرةَ الساذجة . ولذلك راح يبحث عن الأحياء الذين يطلبون الحياة ، بين الهمج والهنود الحمر والإسكيمو .

فما إن وضعتْ الحربُ العالميةُ أوزارَها ، حتى بادر إلى الخروج من إنجلترا سنة ١٩١٩ وظل فى منفاه المختار حتى مات سنة ١٩٣٠ . رحل إلى إيطاليا ولكنه وجد أنها جزء من أوربا حيث هَرِمَ الناسُ ولم تتبقَّ منهم إلا تشنُّجات الموت الأخيرة . فنزح عن أوربا كلها وقصد إلى بلاد الهمج ليبحث عن حضارات الفطرة حيث الأحياء يطلبون الحياة. قصد إلى أستراليا ليدرس (البوشمان) ويرى بنفسه مدى سعادتهم بين أحضان الطبيعة . ثم نزح إلى أمريكا ليدرُسَ الهنود الحُمْر وعاش فى المكسيك زمنًا حيث كتب قصة « الثعبان المجنّح » . ثم عاد لورانس إلى أوربا المتحضرة عودة اليائس بعد أن فُجِعَ فى أوهامه، إذ أنه كان يتصور وجودَ حضارات عديدة بين الهمج فلم يجدْ شيئًا من ذلك بل رأى أن أوربا على شيخوختها أشدُّ قوةً وفتوةً من أهل الفطرة ، وأن حضارتها أكثر تماسكًا وأغنى بالمعانى من حضارات الفطرة التى زالت فعلاً منذ آلاف السنين . وهكذا عاد لورانس إلى أوربا ليبكى حِطامَ العالم أجمع .

كان لورانس يقول إن أسفاره هذه إنما كان الدافعُ لها البحثَ عن الحقيقة ، ولكن الواقع أنها كانت نوعاً من الهرب من نفسه ، فقد كان

يبحث عن توازنه العقلى والنفسى . أخذ يبحث عن مجتمعات طوباوية (مثالية) لاوجود لها إلا فى خياله . وقد احتدمت فى نفسه صراعاتٌ عنيفة مُدمرة، فكان حلُّه لها على طريقة أى رجل ضعيف الإرادة ، ضعيف التفكير ، وذلك بالفرار من النفس ومن مشكلات الحياة الإنسانية... وهو حلٌّ لاجدوى منه إلا لفترة وجيزة ، ثم لا يلبث أن يعود إليه بعد ذلك اختلالهُ النفسىّ . إن مشكلات الحياة الإنسانية مشكلاتٌ واقعية ومادية لا يُجدى فيها الهرب من الواقع ولا يُزيلُها سوى تغيير المادة .

إن أدب لورانس كله لاينجاوز أن يكون ترجمة كاملة لحياته النفسية والعاطفية ، ولاشك أنه فى مُقدِّمة الأدباء المنتجين الذين ملأوا الدنيا بفنِّهم . ولكنه عُرف عنه منذ بدء حياته الأدبية أنه كاتبٌ منحلٌّ لا يُصور سوى الإحساسات الجنسية حتى صودرت بعض كتبه لاعتبارها أدبًا مكشوفًا مثل « قوس قزح » و « عشيق ليدى تشاترلى» ؛ ولكن الناس فى فهم لورانس لم يحكموا إلا بظواهر الأمور . فقد سجَّل لورانس فُتوحات جديدة فى تحليل العلاقة بين الرجل والمرأة ووضع أسسًا جديدة للفلسفة الفردية والاجتماعية مستمدَّة من اختباره الجنسى واختبار جيله فى آن واحد . وكان مركب أوديب هو الذى جعل لورانس يتخصَّص فى تحليل الحياة الجنسية حتى وضع لها فلسفة مشهورة . فقد كان لورانس صريعَ هذه العقدة التى شلّت قواه وسامته العذاب الأليم .

وقد كشف فرويد عن هذه العقدة وهى جزء لا يتجزأ من نظريته فى نمو الحياة الجنسية داخل اللاوعى . ولا مناصَ من فهم ذلك ، لفهم أدبه ، فكل ما كتب لورانس ترجمةٌ دقيقةٌ أمينةٌ لنموه النفسى أو على الأصح لشلله النفسى . إنه تحليلٌ لكل ماقاساه من صراعات باطنية بين الرغبات والمحرمات .

وقارئ لورانس يعلم أن أمه هى التى حطَّمتْ حياته كل هذا التحطيم . إذ أنها لما يئستْ من إصلاح أبيه وجدت فيه عزاءً عن شقائها وحرمانها فأقبلت عليه وانقطعت له وعاشت من أجله واختصَّتْه بحبها ووهبته كل ما تجمَّع لها من عواطفَ إيجابية . فكان حبُّها له جنونًا واضحًا لا هو بالأمومة المألوفة ولا هو بالجنس الصريح ، ولكنه مركَّبٌ قويّ من هذين معًا . كانت جائعة إلى الحب الذى لم تجده فى زوجها فاندفعت إلى حب ابنها الذى كان أشبه بالتعبُّد المدمِّر . وما كان يمكن أن يكون قوة لزوجها أصبح لولدها سُمًّا يتلفه إتلافاً . وبذلك حطَّمتْ حياته من حيث لا تدرى ، فقد فشل فى أول تجربة له فى الحب ودوَّن ذلك فى قصته المشهورة : « الأبناء والعشاق » .

لذلك كان لورانس يؤمن بأن رسالته فى الحياة هى أن يصف الحب للناس وأن يُعلِّمهم إياه . ولا شك أنه نجح فى ذلك نجاحًا عظيمًا فهو أول من فضّ مغاليق الجنس من الفنانين وتركه عاريًا أمام الناس .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

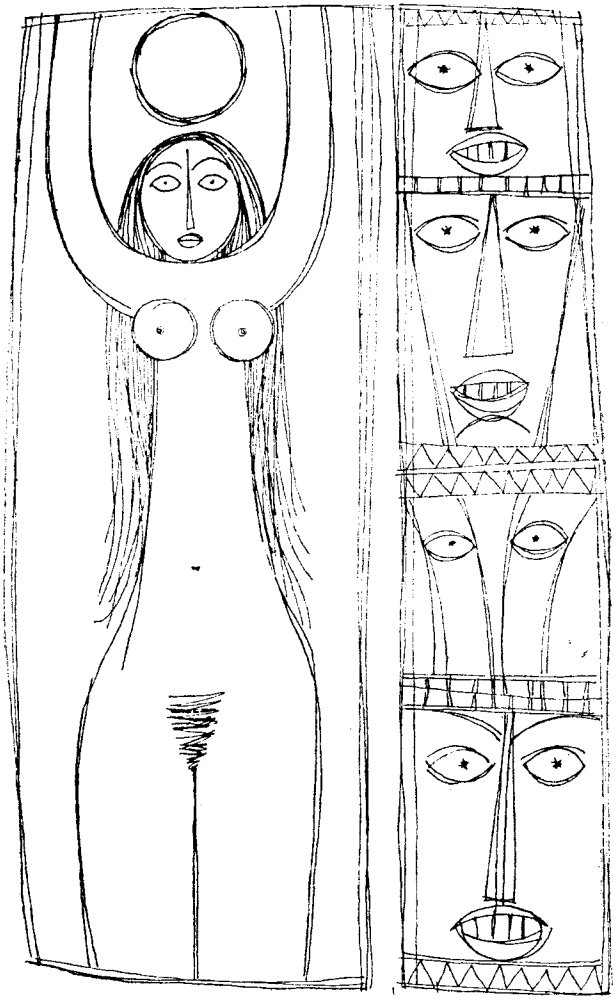

العَـذراء والغجَرى

١

عندما هربتْ زوجةُ القس مع شاب مفلس لم تقف الفضيحة عند حد . وكانت ابنتاها الصغيرتان لا تتجاوز سنُّهما السابعة والتاسعة على التوالى . وكان القس زوجًا مثاليًّا بحق . فقد وَخطَ الشيبُ شعرَه حقًّا ، ولكن شاربه ما زال أسودَ اللون ، ووجهه وسيمَ الملامح وقلبه ما زال يملؤه جوًى خفىّ نحو زوجته الحسناء الجامحة .

لماذا ولّتْ ؟ ولماذا جمحت فى نوبة من النفور العنيف كأنما أُصيبت بمسّ من الجنون ؟

لم يُحرْ أحدٌ جوابًا . ولكن الأتقياء وحدهم زعموا أنها امرأةٌ ساقطة ، فى حين آثر بعضُ النساء الصالحات أن يلزمن الصمت . فقد كُنّ على علم بالحقيقة .

ولكن الفتاتين الصغيرتين لم تعرفا شيئًا قط . بل استقرّ رأيُهما لإحساسهما بالمهانة — على أن أمهما إنما أقدمتْ على ذلك لأنها رأت أنهما لا تستحقان الاهتمام .

وحملت تلك الريح الشريرة التى لا تجلب خيراً لأحد ، أسرة الأبرشية على جناحها . ويالهول المفاجأة ! إذ بهذا القس الذى برز إلى حد ما فى كتابة المقالات والمساهمة فى موضوعات الجدل ، والذى أثارت

قصَّته عطفَ هواة الكتب ممن يجهلون الحياة ، إذا به يتقاضى معاشه من أبرشية (پاپلويك) وهى إحدى أبرشيات الشمال . حيث خفَّفَ الله من قوة ريح الكوارث فحطَّتْ رحالَها .

وكانت تلك الأبرشية الجديدة عبارة عن منزل من الحجر قبيح المنظر يقع عند مدخل القرية بالقرب من نهر پاپل . وهناك فيما وراء تقاطع الطريق بالنهر قامتْ محالجُ القطن الحجرية الكبيرة القديمة التى كانت فيما مضى تُدار بالماء . ثم ينحرف الطريق إلى أعلى التل حيث ينتهى إلى شوارع القرية الحجرية المكشوفة .

وقد طرأ تغيُّرٌ حاسم على أسرة الأبرشية عند انتقالها إلى هناك . فقد اصطحب القس الذى صار عندئذ راعى الكنيسة — أمه العجوز وشقيقته وأخًا له من المدينة . وعندئذ لشد ما اختلف الوسطُ الذى تعيش فيه الفتاتان عما كان عليه فى منزلهما القديم .

وكان راعى الكنيسة وقتذاك فى السابعة والأربعين من عمره . ولقد بدا عليه الحزنُ العميق بعد فرار زوجته ، ولكنه حزنٌ لا يتسم بكثير من الوقار . وقد حالتْ النساء المُشفقاتُ عليه بينه وبين الانتحار . ولكن شعره كاد يستحيل إلى البياض وقد بدا حزينًا زائغَ البصر . وما كان عليك إلا أن تنظر إليه لتعرف مدى وقع الحادث الرهيب عليه ومدى الظلم الذى لحقَ به .

ومع ذلك فثمة رنةٌ كاذبةٌ كانت تكشف عن ذاتها فى زاوية ما

من زوايا نفسه ، حتى إن بعض النساء اللائى عطَفْن عليه من أعماقهن وهو قس أحسَسْنَ نحوه بنوع من الكراهية الخفية وهو راع للكنيسة . فإنه كان يُوحى على الرغم من كل شيء ، بإحساس ذاتى خفىٍّ بعَدْله وتقواه .

وتقبَّلت الفتاتان بالطبع حكم العائلة على طريقة الأطفال الغامضة ، فصارت الجدّة التى جاوزت السبعين من عمرها وحلَّ الضعفُ ببصرها ، الشخصية الأولى فى الدار . أما شؤون المنزل فكانت تتولاها العمة سيسى ، تلك المرأة التقية التى شحُبَ لونُها وتجاوزت الأربعين من عمرها ، ولم تفتأ تنْخر فى نفسها دودةٌ داخلية . وأما العم « فرد » وهو رجلٌ أشهبُ الوجه فى الأربعين من عمره فكان يعيش فى دناءة لنفسه فحسب . كما كان يذهب إلى المدينة كل يوم . وبالطبع كانت شخصية راعى الكنيسة تلى شخصية الجدة من حيث مكانتها فى الدار .

وكانت الجدة تُدعى باسم « الأم » وهى امرأة تتَّسم بالمهارة والغلظة الجسمانية . وقد دَرَجتْ طيلة حياتها على أن يكون لها ماتريد متوسِّلة إلى ذلك بمداجاة نواحى الضعف فى الرجال . وما لبثتْ أن عَرَفت طريقها . فقد كان القسُّ لايزال « يحب » زوجته الخاطئة ولن يبرح « يحبها » حتى الموت . ولذا وجب الصمت ! فقد كانت مشاعر القس مقدسة ، وكانت تلك الفتاة الطاهرة التى تزوجها وعبدها تحتلُّ من قلبه مكاناً قُدسيًّا .

وفى نفس الوقت كانت تهيم فى عالم الشرور امرأة أخرى سيئة السمعة خانت راعى الكنيسة وهجرت طفلتيه الصغيرتين . وكانت عندئذ ترزح تحت نير شاب حقير لن يلبث بلا ريب أن يجلب لها المذلة التى تستحقها . ليكن هذا مفهوماً فى وضوح ولنلزم الصمت بعد ذلك ! فقد كانت عروسُه الصغيرة زهرة الثلج البيضاء النقية لاتزال نضرةً متفتحة تحتل من قلبه مكاناً مُطهَّراً مرموقاً . تلك الزهرة البيضاء لم تذبُل بعد . أما المخلوقة الأخرى التى هربت مع ذلك الشاب الحقير فلا شأن له بها .

وصارت « الأم » — التى كانت تعيش فى منزلها الصغير أرملةً متضائلة الشخصية قليلة الأهمية إلى حد ما — صارت تحتل الآن المكانة الأولى فى الأبرشية حيث رسَّختْ من جديد جُثْمانَها الهَرِم ولن تنزل أبداً عن ذلك العرش . كانت بدهائها تتنهَّد احتراماً لما يكنه القس من إخلاص لزهرة الثلج البيضاء النقية ، وهى تتظاهر فى الوقت نفسه بالاستنكار . وكانت فى احترامٍ أريب لحب ابنها العظيم تتحاشى أن تنطق بكلمة واحدة تهجو بها تلك الحَسَكَة التى تترعرع فى دنيا الشرور ، والتى كان يُطلَق عليها ذات يوم اسم « مسز آرثر سايول » . والآن حمداً لله أن تلك المرأة بعد زواجها الثانى لم تعُدْ تدعى « مسز آرثر سايول » وبذلك أصبحت لاتحمل اسم القس امرأةٌ مّا . كانت زهرةُ الثلج البيضاء النقية نضرةً متفتحةً على الدوام دون أن تحمل اسماً . بل إن الأسرة

نفسها لم تكن تذكرها إلا باسم « المرأة التى تُدعى سنثيا » .

كان كل ذلك بمنزلة الماء لطاحونة «الأم» ، فقد كان يُؤمِّنها ضد زواج آرثر مرة أخرى . لقد وضعت يدها على أضعف نقطة فيه وهى حبه الخفى لذاته . فقد تزوج زهرة الثلج البيضاء التى لاتعرف الذبول . فما أسعد هذا الرجل! وقد أسيء إليه . فما أشقاه! لقد تألَّم . آه ! أى قلب محب! فقد غفر لها ! نعم فإن زهرة الثلج البيضاء قد غُفر لها . بل لقد خصَّها بشيء فى وصيته عندما يكون ذلك الوغد — ولكن صَه ! فلنُحجم حتى عن التفكير عن قرب فيما يمسّ « المرأة التى تُدعى سنثيا » تلك الحسَكة الرهيبة التى تعيش فى العالم الخارجى الفاسد ! ولنَدعْ هذه النُّوَّارة البيضاء تزدهر فوق رُبى الماضى بعيداً عن المنال . أما الحاضر فأمره يختلف .

ونشأت الطفلتان فى ذلك الجو الذى يسوده الكتمان والتقديس الماكر للذات . فقد كانتا أيضًا تريان زهرة الثلج فوق رُبى لا سبيل إلى الوصول إليها . كما كانتا تدركان أنها متوَّجةٌ فى روعة منفردة تسمو على حياتهما حيث لاسبيل إلى المساس بها .

وفى الوقت نفسه كانت تنبعث من العالم القذر أحيانًا ريحٌ عفنة شريرة محملة بالأثرة والشهوة المنحطَّة ، ريح « المرأة التى تُدعى سنثيا » تلك الحسَكة الرهيبة وذلك عند ماتنجح تلك المرأة فعلاً من وقت لآخر فى إبلاغ

الفتاتين رسالةً صغيرةً . وعندئذ كانت « الأم » ذات الشعر الفضى يرتجّ كيانُها بالكراهية . فلو أن تلك « المرأة التى تُدعى سنثيا » عادت إلى زوجها لتلاشت « الأم » من الوجود، فكانت تنبعث منها نحو الفتاتين نفثةٌ خفيةٌ من الكراهية، فهما طفلتا حسكة الشهوة العفنة المدعوَّة سنثيا التى لشدّما كانت تحتقر « الأم » فى رثاء وعطف .

وقد اختلطتْ فى ذهن الفتاتين بكل هذا ذكرى واضحة للغاية عن منزلهما الحقيقى ، وأبرشية الجنوب ، وأمهما سنثيا التى كانت على سحر جمالها ، لا يمكن الاعتمادُ عليها كثيراً . فقد كانت فى ذلك المنزل مصدرَ وهج عظيم ومبعثَ فيض من الحياة وكأنها شمسٌ خطرة سريعة لا تفتأ تُشرق وتغيب . ولم تبرح الفتاتان تربطان بين وجودها فى المنزل وبين التألّق الذى لايخلو من الخطر ، كما تربطان بينها وبين سحر الجمال الذى تشوبه الأثَرةُ المخيفة .

أما الآن فقد تلاشى ذلك السحر ، وتجمّدتْ على قبرها كإكليل الخزف نُوارة الثلج البيضاء ، كما اختفى خطر القلق وعدم الاستقرار ، وكذلك تلك الأثرة بما فيها من خطورة غريبة أشبه بالسباع والنمور . وساد الآن الاستقرار التام حيث يمكن أن يهلك الإنسان وهو آمن مطمئن .

ولكنهما كانتا تشبّان عن الطوق . وكلما ازداد نموهما تجسّمَ ارتباكُهما واشتدّتْ حيرتُهما . وكانت « الأم » كلما طعنتْ فى السن عشىَ بصرُها حتى لزمَ أن يقودَها أحدٌ فى أرجاء المنزل .

كانت نؤُومَ الضُّحى لا تستيقظ من نومها إلا قرابة الظهر . ولكنها سواءٌ عَشِيَ بصرُها أو لزِمَتْ الفراش فقد ظلت سيدة المنزل .

وفضلاً عن ذلك فإنها لم تكن تلزم الفراش بل كانت تتبوأ عرشَها كلما وُجِدَ الرِّجالُ فى المنزل . فلم يسمح لها دهاؤها بالاستسلام للتراخى وخاصةً لوجود من ينافسها .

وكانت إيڤيت صُغرى الفتاتين هى أقوى منافساتها . فقد ورِثتْ عن « المرأة التى تُدعى سنثيا » شيئًا من بهجتها الغامضة غير المبالية . ولكنها كانت أسلس قياداً . فربما أمسكت الجدة بزمامها فى الوقت المناسب . ربما !

وهام القسُّ حبًّا بإيڤيت ودلَّلها بشغف واله وكأنه يقول لنفسه : « ألستُ رجلاً رقيق القلب متسامحًا ؟ ! » كان يروقه أن يكون ذلك رأيَه فى نفسه . وقد وقفت « الأم » على أدَقّ نواحى الضعف فيه ، عرفتها فاستغلتها بتحويلها إلى أوسمةٍ له ولشخصيته . كان يبغى أن تكون له فى نظره شخصيةٌ فاتنة كما تبغى النساء اقتناء الثياب الجميلة . وكانت « الأمُّ » فى مكر ودهاء تُزين له عيوبه وتجمل مثالبه . فقد أرشدَتْها أمومتُها إلى نواحى الضعف فى نفسه فأخفتها له بالأوسمة والنياشين فى حين أن « المرأة التى تُدعى سنثيا ! . . . . . .

ولكن فلنُحجمْ عن ذكرها فى هذا الصدد . فإن القس فى نظرها كاد أن يكون شخصاً أحدبَ الظهر أبلهَ معتوهًا .

والغريب أن الجدة كانت بينها وبين نفسها تُبغض لوسيل كبرى الفتاتين أكثر من بُغضها إيڤيت المدللة . فقد كانت لوسيل بقلقها وسرعة انفعالها تُحسّ بوقوعها تحت سيطرة الجدة أكثر من إيڤيت شقيقتها المدلّلة الغامضة .

وكانت العمة سيسى من الناحية الأخرى تمقُتُ إيڤيت . بل تمقُتُ حتى مجرد اسمها . فقد ضحّتْ العمة سيسى بحياتها من أجل « الأم » وكانت تُدركُ ذلك كما كانت « الأم » تعلم أنها تُدرك ذلك . ولكن تلك التضحية أصبحت تقليداً على مرّ السنين . وأقرّ الجميع ومن بينهم « سيسى » نفسُها ذلك التقليد الذى يقوم على التضحية . وطالما صلّت العمة « سيسى » من أجل ذلك مما يدلُّ أيضًا على أنها كانت تراودها مشاعرها الخاصة فى زاوية ما من زوايا نفسها . ويَحْيى عليها ! لقد افتقدت نفسها وفقدت حياتها وجنسها . وكانت عندئذ تزحف نحو الخمسين . فتندلعُ فى نفسها أحياناً ألسنةٌ خضراء غريبة من سعير الغضب وعندئذٍ تخرج عن وعيها .

ولكن الجدة كانت تسيطر عليها تمامًا ولم يكن للعمة سيسى من هدف فى الحياة سوى رعاية « الأم » .

وكانت العمة سيسى تندلع فيها أحيانًا لهُبٌ خضراء من الكراهية الجهنّمية نحو الشباب جميعًا . فتأخذ المسكينة فى الصلاة محاولةً أن تستغفر السماء . ولكن هَيْهاتَ أن تغفر هى لما حِيقَ بها فكان وقودُ

النار أحياناً ينبثق متدفقاً فى عروقها .

لم تكن « الأم » كما تبدو روحاً دافئة كريمة . كلا ، لم تكن كذلك . بل هكذا كانت تبدو فحسب فى مكرودهاء . وأخذت تلك الحقيقة تتكشّف رويداً للفتاتين . فقد ضمت تلك العجوز تحت قلنسوتها الرقيقة التى تقادَم عليها العهدُ وتحت شعرها الفضى وثوبها الحريرى الأسود الذى يغطى جسدها القصير اللحيم البارز إلى الأمام ، كانت تضمُّ قلباً ماكراً ، ولا تفتأ تنشُدُ فَرض سلطانها الأنثوىّ . ومن خلال ضعف الرجال الراكدين الآسنين الذين توَلّتْ تربيتهم كانت تحتفظ بسطوتها على كرّ السنين من السبعين إلى الثمانين ومن الثمانين إلى التسعين وهى فى دَوْر حضانتها الجديدة .

فقد كان فى الأسرة تقليدٌ كامل « للولاء » : ولاء كل فرد للآخر وخاصة « للأم » . فلاشك أن الأم كانت محور الأسرة . ولم تكن الأسرة إلا امتداداً لذاتها . فكان من الطبيعى أن تفرض عليها سلطانها . أما أبناؤها وبناتها فكانوا لضعفهم وانحلالهم يدينون لها طبعاً بالولاء ، فماذا ينتظرهم خارج نطاق الأسرة سوى الخطر والمهانة والعار ؟ ألم يمرّ القس بتلك التجربة فى زواجه ؟ ولذلك وجب الحذر ! الحَذَرُ والولاءُ فى مواجهة العالم ! فليكن « فى داخل نطاق الأسرة » ما شئتم من كراهية وحزازات . أما فى مواجهة العالم الخارجى فلا بد أن يكون هناك سورٌ عنيد من التآلف والانسجام .

٢

ولكن الفتاتين لم تشعرا بعبء اليد الهَرِمة العجفاء التى أناخت بها جدَّتُهما على حياتهما إلا بعد عودتهما نهائيًّا من المدرسة . فعندئذ كانت لوسيل تناهز الحادية والعشرين من عمرها . أما إيڤيت فقد أتمَّتْ التاسعة عشرة . وقد تلقتا تعليمهما فى مدرسة مشهورة للفتيات ثم قضتا السنة النهائية من دراستهما فى لوزان . وكانتا لا تخرجان عن المألوف فى شىء فهما شابتان طويلتان نَضْر وجهاهما فى حساسية وقَصُر شعرُهما واتسمتْ طباعُهما بخشونة الشباب وعدم المبالاة .

قالت إيڤيت أثناء وقوفهما على ظهر قارب المانش لتراقبا صخور دوفر الرمادية وهى تدنو منهما :

— إن ما يبعث على السأم الشديد فى پاپلويك ، هو خُلُوُّها من الرجال ! لم لا يصادِق أبى بعض الرجال المرحين ؟ أما العم « فرد » فإنه لا يُطاق !

وقالت لوسيل فى مزيد من الفلسفة :

— لا يمكنك مطلقاً أن تتنبَّئى بما سيطرأ على القرية من أحداث .

فقالت إيڤيت :

— أنت تعلمين جيداً ماذا ينتظرنا . جوقات الترتيل فى أيام

الآحاد التى أبغضُ منها الجوقات المختلطة . فأصوات الفتيان « جميلة » فى غيبة النساء . وكذلك مدرسة الأحد وجمعية الصداقة للفتيات وحفلات السمر وكل من يسأل عن صحة الجدة من العجائز العزيزات ؟ أما الشباب المهذب فقلَّما تجدينه .

فقالت لوسيل :

— لست أدرى ! فهناك أسرة فريملى . وأنت تعلمين أن « جرى سومركوتس » يهيمُ بك حبًّا .

فصاحت إيڤيت رافعةً أنفها الحسّاس إلى أعلى :

— « ولكنى أمقت الذين يلاحقوننى ! فهم يبعثون فى نفسى الملل . فلشدَّ ما يُثقلون علىّ » .

— إذا كنت لا تطيقين أن تكونى معبودة إذن فماذا تبغين ؟ فحبّذا لو كان الإنسان معبوداً . أنت تعلمين أنك لن تقترنى بأحد منهم . فلِمَ لا تسمحين لهم بملاحقتك ماداموا يجدون فى ذلك ما يُرفه عنهم .

فصاحت إيڤيت قائلةً :

— « ولكنى أريد أن أتزوج .

— « حسنًا . عليك إذن أن تسمحى لهم بملاحقتك إلى أن تجدى بينهم من يمكنك الزواج به .

— لا ينبغى مطلقًا أن أتزوج بهذه الطريقة — فإنى لا أنفرُ من

شيء قدر نفوري ممن يلاحقونني . فلشدّ ما يبعثون في نفسي الملل ؟ كما أنهم يُشعرونني بقسوتي .

ـ « وهذا هو إحساسي عندما يُلحّون عليّ . ولكنهم عن بُعد يبدون لي ظُرفاء إلى حد ما .

ـ أريد أن أقع في حب عنيف .

ـ هذا محتمل جداً ! . . ولكنني لا أرغب في ذلك ! فإن نفسي تأباه ! وربما راودك ذلك الشعور إن تحقق لك فعلاً ما تريدين . علينا أولا أن نستقرّ قليلاً قبل أن نبحث عما نريد .

فصاحت إيڤيت رافعة أنفها الغضّ الحساس :

ـ ولكن ألا تكرهين العودة إلى پاپلويك ؟

« كلا ، ليس هذا شعوري تماماً فإني أعتقد أننا سنشعر بالملل إلى حد ما . ولكني أتمنى لو اشترى أبي سيارة ، حتى لا نضطر إلى إخراج دراجتينا القديمتين . ألا تحبين أن تذهبي إلى تانزي مور ؟

ـ ما أجمل هذا ! مع أنه لشدّ ما يُرهقني أن أدفع دراجتي القديمة إلى أعالي تلك التلال .

كانت السفينة تقترب من الصخور الرمادية وقد أصاف الجو ، ولكنه مع ذلك كان يوماً غائماً . فارتدتْ كلتا الفتاتين سُترَتها ورفعتْ ياقتها الفرائية وجذبتْ قبعتها الصغيرة الأنيقة حتى غطّتْ أذنيها . ولشد ما اتسمتْ الفتاتان بالطابَع الإنجليزي لطول قامتيهما النحيلتين ونضارة وجهيهما الساذجين اللذين يُوحيان رغم ذلك بثقة بالنفس تجاوزتْ

الحدود فى عُنجُهية تميزتْ بها طالباتُ المدارس — ولشد ما بدا عليهما التحرُّر مع أنهما كانتا فى الواقع ترسُفان فى الأغلال وقد تعقدتْ نفسيتُهما أشد التعقيد ، ولشد ما بدا عليهما الإقدام والخروج عن التقاليد فى حين أنهما كانتا فى الحقيقة تُحافظان عليها إلى حد كبير يحدوهما انطواء شديد وكأنما احتبست كلتاهما طى نفسها . لقد بدتا أشبه بقاربين طويلين قويين جريئين انطلقا لتوهما من المرفأ ليجوبا بحار الحياة الشاسعة فى حين أنهما كانتا فى الواقع حياتين صغيرتين مسكينتين تسيران على غير هدى وهما تنتقلان من مرسًى إلى آخر .

ولشدَّ ما خاب رجاؤهما عند دخولهما الأبرشية . فقد بدت قبيحةً يكاد يميل لونُها إلى القتامة ، وقد شاع فيها ذلك الجو الرطب الذى تتميز به وسائل الراحة البالية عند الطبقة المتوسطة ، تلك الوسائل التى لم تُعدْ توفر الراحة بل صارت قذرةً خانقة . فبدا لهما ذلك المنزل الحجرىُّ الصلب مفتقراً إلى النظافة دون أن تعرفا لذلك سببًا . وبدا الأثاثُ العتيق البالى قذراً على صورة ما . لم يكن هناك شىء جديد حتى الطعام الذى يُقدم فى الوجبات كان يتسمُ بطابع كئيب بَشع من القذارة التى لشَد ما ينفُرُ منها الشباب العائدون من الخارج . وكان الطعام يتألف من الشواء البقرى والكرنب ولحم الضأن البارد والبطاطس « البيوريه » الممهوكة والمخلَّلات الحامضة والحلوى الرديئة .

كما كانت الجدَّة التى « تهوى القليل من لحم الخنزير » تُعَدُّ لها ألوانٌ خاصة من الطعام : كالحساء الدسم والخبز المجفف وقطعة

صغيرة من الحلوى لذيذة الطعم . أما العمة سيسى ذات الوجه الشاحب فإنها كانت لا تأكل شيئًا قط . بل تجلس إلى المائدة وتتناول بطاطسة واحدة مقشورة مسلوقة لاغير ، ثم تضعها أمامها على صَحْفتها . وأما اللحم فكانت لاتأكله ألبتة . ثم تواصل جلْستَها فى كآبة أثناء تناول الطعام فى حين تلتهم الجدة نصيبها وتغطيه بسيل من لُعابها — وعندما لايسقط شىءٌ على بطنها المنتفخ يكون ذلك من حُسن حظها . ولم يكن الطعام شهيًّا فى حد ذاته . وكيف يمكن أن يكون كذلك والعمة سيسى نفسُها تكره الطعام وتكره تناوله . ولا يمكنها مطلقاً أن تحتفظ بخادم لمدة ثلاثة شهور ؟ وكانت الفتاتان تأكلان فى نفور . ولكن لوسيل كانت تتحمل ذلك فى شجاعة . أما إيفيت فكان أنفُها الرقيق يُنبئُ بنفورها . ولم يكن يُلقى النكات بعدما يمسح بفوطته شاربه الرمادى الطويل سوى راعى الكنيسة وقد ألمَّ برأسه المشيب . كان هو أيضًا يزداد ثُقلاً وجموداً فقد كان يقضى سحابة يومه جالسًا فى مكتبه ولا يُمارس الرياضة أبداً . ولكنه كان لا يفتأ يُلقى النكات السريعة الساخرة وهو قابعٌ هناك فى كنف « الأم » .

وكان الريف بتلاله الوعرة ووديانه العميقة الضيقة ينبضُ بقوة غلاّبة نابعة من ذاته رغم كآبته . وعلى مسافة عشرين ميلاً كانت تقوم تلك الحركة الصناعية السوداء فى الشمال . أما قرية پاپلويك فكانت منعزلةً إلى حد ما بل تكاد تكون تائهة ، ولشد ما قست فيها الحياة !

فكان كل ما فيها حجريًّا صلبًا على صورة تكاد تكون شاعرية ، ولكنها قاسية عنيفة فى نفس الوقت .

وحدث كل شىء وفقًا لما كانت تتوقعه الفتاتان : فقد عادتا إلى جوقة الترتيل . وقدّمتا يد المساعدة إلى دائرة الأبرشية . ولكن إيڤيت أضربتْ تمامًا عن الانضمام إلى مدرسة الأحد أو رابطة الأمل أو جمعيات الصداقة للفتيات — وفى الواقع فإنها أضربتْ عن الاشتراك فى جميع الأعمال التى تتولّى شؤونها عوانسُ عنيدات وكهولٌ أغبياء متعنتون كما تجنّبتْ واجبات الكنيسة ما أمكنها ذلك . وكانت تهرب من الأبرشية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . حيث تجد فى أسرة فريملى الكبيرة المرحة غير المنظّمة التى تقيم فى المنزل الريفى سنداً قويًّا لها . ولم تفتأ إيڤيت تقبلُ فى الحال كل دعوة توجه إليها لتناول وجبة فى خارج الدار أو حتى لتناول الشاى فى منزل أحد العمال إذا ما دَعتْها إحدى النساء . بل إنها فى الواقع كانت تجد فى ذلك بعضَ الإثارة . فكانت تهوى التحدُّثَ إلى العمال الذين غالبًا ما كانوا يمتازون برءوس قوية جميلة للغاية . ولكنهم بالطبع كانوا يعيشون فى عالم آخر .

وهكذا مرّت الشهور . وكان « جرى سومر كوتس » لا يزال يلاحقها . كما كان هناك غيره أيضًا من أبناء المزارعين وأصحاب المصانع الصغيرة . وفى الواقع فإن إيڤيت كان ينبغى أن تقضى وقتًا ممتعًا فإنها لم تفتأ تدعى إلى حفلات الرقص ويجيئها الأصدقاء بسياراتهم

فترافقهم إلى المدينة لحضور الحفل الراقص المُقام فى الفندق الرئيسى فى المساء أو فى قصر الرقص الجديد الفخم المعروف باسم « بالى » .

ومع ذلك فقد كانت تبدو دائمًا وكأنها منوَّمةٌ تنويمًا مغناطيسيًّا . فلم تشعر قط بالحرية لتكتمل لها بهجتُها . بل ثمة ضيقٌ لا يُطاق كان يعتمل فى أعماق نفسها ولا يفتأ يتفاقم لاعتقادها أنه « لا ينبغى » لها أن تشعرَ به ولإحساسها نحوه بالكراهية . ولم تعرف قط مصدرَ ذلك الضيق .

أما فى المنزل فكانت فى الحقيقة سريعةَ الانفعال شديدةَ الوقاحة مع العمة سيسى . وفى الواقع فإن مِزاحَ إيڤيت العنيف أصبح مضرب الأمثال فى الأسرة .

أما لوسيل التى كانت دائمًا أكثر ميلاً إلى الناحية العملية فقد حَصَلَتْ فى المدينة على وظيفة سكرتيرة خاصة لرجل كان فى حاجة إلى من يتكلم الفرنسية بطلاقة ويعرف الاختزال . وكانت تروح وتغدو كل يوم بنفس القطار الذى يستقله العم « فرد » . ولكنها لم ترافقه قط فى السفر ، فقد كانت لوسيل تركب دراجتها إلى المحطة سواء أكان الجوُّ صحواً أو مطيراً فى حين يقطع هو المسافة مشيًا على الأقدام .

وقررت الفتاتان أنهما تنشُدان الحياة الاجتماعية التى تتسم بالمرح الحقيقى . ولشدّما أحسّتا بالاستياء لأن الأبرشية كانت لاتصلح مطلقًا لاستقبال أصدقائهما . فكان الطابق السفلىّ لايحوى سوى أربع غرف :

المطبخ حيث تعيش الخادمان الساخطتان وغرفة الطعام المُعتّمة ومكتبة القس وغرفة الجلوس الفسيحة « البسيطة » الكئيبة . وكانت فى غرفة الطعام مِدْفأةٌ بالغاز . ولم تكن هناك نار حامية قوية على الدوام إلا فى غرفة الجلوس . وذلك بالطبع لأنها مملكةُ الجدة .

وكانت الأسرة تجتمع فى تلك الغرفة حيث كان العم « فرد » وراعى الكنيسة يُلاعبان الجدَّة دائمًا فى المساء بعد العشاء بفوازير الألفاظ المتقاطعة .

— والآن يا أماه هل أنت مستعدَّةٌ للعب ؟ « ن » ثم فراغ وفراغ وفراغ وفراغ ثم « و » : موظف سيامى .

— ماذا ؟ ماذا ؟ « م » فراغ وفراغ وفراغ وفراغ ثم « و » ؟ فقد كانت الجدَّة تشكو وَقْراً بأذنيها .

— لا ياأماه . ليست « م » ! إنما « ن » ثم فراغ وفراغ وفراغ وفراغ ثم « و » : موظف سيامى .

— « ن » وفراغ وفراغ وفراغ ثم « و » موظف صينى .

— سيامى .

— ماذا ؟

— سيامى ! سيام !

فقالت السيدة العجوز بصوت عميق عاقدةً يديها على بطنها المستدير:

— موظف سيامى ؟ والآن . ماذا يمكن أن يكون ذلك ؟

وراح ولداها يقترحان الحلول فتُعلق عليها قائلةً « آه ! آه ؟ » وكان القسُّ يمتاز بمهارته المدهشة فى حَلّ فوازير الألفاظ المتقاطعة . أما « فرد » فكان يحفظ بعض المفردات الفنية .

فقالت العجوز عندما حار الجميعُ فى الحلّ — « لاشك أنه يتعذر حلُّها » .

وفى أثناء ذلك كانت لوسيل جالسةً فى إحدى زوايا الغرفة وقد وضعت يديها على أذنيها متظاهرةً بالقراءة، فى حين راحت إيفيت بانفعالية تعمل فى رسومها أو تُهمهم بألحان مدوية مثيرة لإدخال عنصر جديد فى موسيقى الأسرة، وفى حين أن العمة سيسى لم تفتأ تتناول قطعًا من الشوكولاته دون أن يتوقّف فكّاها عن الحركة . وكانت تعيش فعلاً على الشوكولاته . جلست على مسافة بعيدة منهم وهى تضع فى فمها قطعة أخرى ثم تتصفح من جديد مجلة الأبرشية . ثم رفعت رأسها فرأت أنه قد حان الوقت لإحضار الدواء للجدة .

وعندما ذهبت ، فتحت إيفيت النافذة فى ضيق وسخط . فإن جوّ الغرفة كان لا يتجدّد مطلقًا حتى يُخيل لها أنها تفوح برائحة الجدة . وكانت الجدة بسَمْعها الثقيل تسمع كل شىء كبنات عِرْس عندما لا يُراد لها أن تسمع .

قالت :

— هل فتحت النافذة ياإيڤيت ؟ لعلك تذكرين أن فى الغرفة من هم أسنُّ منك » .

— إن الجوّ خانق ! لايُحتمل ! ولا عجبَ إن كنا جميعًا لانفتأ نُصاب بنزلات البرد .

فارتجفت العجوز قليلاً ثم قالت :

— إنى واثقة أن الغرفة فسيحة للغاية . كما أن ناراً حامية تشتعل فى المدفأة . وثمة تيار واحد من الهواء كفيل بأن يُودى بنا جميعًا .

فزأرت إيڤيت قائلة :

— ليس هناك تيارٌ على الإطلاق بل نسمةٌ من الهواء الطلق .

فارتجفت العجوز مرة أخرى قائلةً :

— حقًّا !

واتجه القسُّ فى هدوء إلى النافذة حيث أوصدها دون أن ينظر فى أثناء ذلك إلى ابنته . فقد كان يكره أن يُعارضها . ولكنها يجب أن تعرف ما يضُرُّ وما ينفع !

وتستمر فوازير الألفاظ المتقاطعة التى هى من خَلْق الشيطان نفسه إلى أن تتناول الجدّة دواءها ويحينَ موعدُ نومها . وعندئذ تتمُّ مراسيمُ الفراق ! فيقف الجميع وتتقدّم الفتاتان إلى العجوز العمياء لتقبلهما ثم يمدُّ القس إليها ذراعه ومن خلفهما تسير العمة سيسى ممسكةً بشمعة فى يدها .

ولكن الساعة قد بلغت التاسعة وكان يجب أن تأوى الجدة إلى فراشها قبل ذلك . فإنها تتقدم حقيقةً فى العمر . ولكنها عندما ترقد فى فراشها لاتستطيع النوم حتى تأتى العمة سيسى .

قالت الجدة :

ـ أتعلمين أننى لم أنمْ وحدى قط ؟ فلم تمرّ ليلةٌ واحدة دون أن تَضُمَّنى ذراعُ « الأب » لمدة أربع وخمسين سنة . وعندما وافاه الأجل حاولتُ أن أنام وحدى . ولكننى أؤكد لك أن قلبى كاد يثبُ من بين ضلوعى ورقدتُ فى فراشى تنتابنى نوبةٌ من الخفقان . لَكِ أن تعتقدى ما شئت . ولكنها كانت تجربةً رهيبةً بعد حياة زوجية مثالية استمرَّتْ أربعًا وخمسين سنة ! كان بودى أن أصلى لأموت قبله . ولكن « الأب » لا . لا أعتقد أنه كان يمكنه أن يتحمَّل الصدمة .

وهكذا فإن العمة سيسى كانت تنام مع الجدة . ولكنها كانت تكره ذلك . وتقول إنها لاتستطيع النوم مطلقًا . ولم تفتأ تزداد شحوبًا على شحوب ويزداد الطعام فى المنزل سوءاً على سوء . كان لابد أن تُجرى جراحةٌ للعمة سيسى .

ولكن الأم كانت تنهض من نومها كعادتها حوالى الظهيرة وترأس المائدة عند تناول الغداء وهى فى مُتَّكَئِها وقد برز بطنها إلى الأمام وتدلّى وجهها فى هدوء أسفل جدار هامتها المرتفع وهو يهتز مائلاً إلى الحمرة يحيط به جلالٌ رهيب . وقد شخصتْ عيناها الزرقاوان دون أن تُبصرا

شيئًا . أما شعرها الأبيض فكان يقلُّ تدريجيًّا وكان فى مجموعه شائنًا إلى حد ما . ولكن القس كان يُلقى بنكاته فى مرح على مسامعها وهى تتظاهر بالاستنكار . ولكنها لشدّ ما كانت راضية وهى جالسةٌ فى انبعاجها الهَرِم تُطلق الريحَ من مَعدتها عقب الوجبات وتضغط بيدها على صدرها وهى تتجشّأ فى رضًا بدنى مبتذل .

ولشدّما كان يُقلقُ الفتاتين عندما تدعوان أصدقاءهما من الشباب إلى المنزل وجودُ الجدة دائمًا كوثن رهيب من اللحم الهَرِم مستأثرةً بانتباه الجميع . ولم يكن بالمنزل سوى غرفة واحدة يجلس فيها الجميع . كما تجلس فيها العجوز التى تحرسُها العمة سيسى فى يقظة وحدّة . ولذا وجب أولاً أن يُقدّم كلُّ زائر إلى الجدة ؛ وكانت على استعداد لملاطفتهم فقد كانت تميل إلى الصحبة . وكان لابد أن تعرف كل زائر ومسقط رأسه وظروف حياته جميعًا . وعندئذ — وقد صارت على علم بكل شىء — يمكنها أن تتولى الحديث وتُوجه دَفّته .

ولم يكن ثمة مايمكن أن يُثير سُخْطَ الفتاتين أكثر من ذلك . فكان الأصدقاء يتعجبون قائلين : « أليست مسز سايول العجوز مثارَ العجب ؟! فلشدّما تُبدى اهتمامًا بالحياة وهى تناهز التسعين من عمرها » .

فنقول إيفيت :

— لا شك أنها تهتمُّ بشئون الناس إذا كانت هذه هى الحياة .

ثم لا يلبث أن يراودها على الفور شعورٌ بالذنب . فإنه لمما يدعو

إلى العجب قبل كل شيء أن يحظى المرء بصفاء الذهن على هذه الصورة وهو يناهز التسعين من العمر ! كما أن الجدّة لم تُلحق الأذى « فعلاً » بأحد قط . بل الأحرى أنها كانت لا تفتأ تعترض الطريق . وربما كان من القسوة إلى حد ما أن نُحسّ بالكراهية نحو الناس لشيخوختهم واعتراضهم الطريق .

وما لبثتْ إيثيت أن شعرت بالندم فرقّتْ لها . وأشرقت الجدّةُ بذكريات الصبا في تلك البلدة الصغيرة في بكنجهام شير ، فراحت تثرثر وتثرثر ولشدّ ما كانت أنيسةً مسامرة . كما كانت تُثير العجب إلى حد ما .

وفي المساء انضمّتْ إليهم لوتي وإيلا وبوب فريملي مع ليووذريل .

وما إن سُمح لهم بالدخول حتى تتابعوا إلى غرفة الجلوس حيث كانت الجدّة تجلس بالقرب من النار وقد ارتدت قبعتها البيضاء .

ـ أقدم لك ياجدّتي مستر وذريل !

ـ مستر ماذا قلت ؟ يجب أن تعذُرني يابني فإن سمعي ثقيلٌ إلى حد ما !

ومدّت الجدّةُ يدها للشاب المُحرَج وحملقت فيه صامتةً دون أن تراه . وسألته قائلة :

ـ إنك لست من أبناء دائرة أبرشيّتنا ؟

فصاح قائلاً :

— وينجتون !

وقالت إيلا فى صوت خفيض :

— نريد أن نقوم غداً بنزهة إلى بونسول هدّ فى سيارة ليو ، يمكننا أن نندسّ فيها جميعاً .

فسألت الجدة :

— هل قلت بونسول هدّ ؟

— نعم !

وساد الصمت .

— أقلت انكم ذاهبون فى سيارة ؟

— نعم ! فى سيارة مستر وذريل .

— أرجو أن يكون سائقاً ماهراً . فما أخطرَ هذا الطريق !

— إنه ماهر للغاية .

— ألا يُحسنُ القيادة ؟

— بلى ! فما أبرعَ قيادته !

— إن كنتم ذاهبين إلى « بونسول هدّ » فأعتقد أننى يجب أن أحملكم رسالةً إلى الليدى لوث .

وكانت الجدة لاتفتأ تُقحم اسم تلك السيدة التعسة كلما وُجدتْ فى مجمع من الناس .

فصاحت إيفيت قائلةً :

ـ كلا . فلن نسلُكَ هذا الطريق .

فقالت الجدة :

ـ أى طريق ؟ لابد لكم من أن تذهبوا عن طريق هينور .

فجلست الجماعة كلها كالبطّ المحشو على حد تعبير بوب وهم يتململون فى مقاعدهم .

ودخلت العمة سيسى ـ ثم جاءت الخادم بالشاى حاملةً تلك الكعكة الأزلية المشتراة من السوق . ثم جىء بصحفة مُلئتْ بالكعك الصغير الطازَج الذى أرسلت العمة سيسى فى طلبه فعلاً من الخبّاز .

ـ الشاى ياأماه !

فأمسكت العجوز بمسندى مُتّكَئَها . ونهض الجميع وقوفًا فى حين خاضَتْ هى طريقها فى بُطء عَبْر الغرفة معتمدةً على ذراع العمة سيسى حتى بلغت مكانها من المائدة .

وعادت لوسيل من عملها فى المدينة أثناء تناول الشاى وقد نال منها الإعياء . فظهرتْ علاماتٌ سوداء أسفل عينيها . وما إن رأت كل ذلك الجمع حتى أطلقت صيحة فرح .

وما كادت الضَّجّةُ تهدأ ويعود الحرجُ سيرَته الأولى حتى قالت الجدة :

ـ إنك لم تذكرى لى قط يالوسيل اسم المستر وذريل . أليس كذلك ؟

فقالت لوسيل :

ـ لا أذكر .

ـ لا يمكن أن تكونى قد ذكرته لى ، فالاسم غريبٌ على سمعى .

وتناولت إيڤيت فى ذهول كعكةً أخرى من الصَّحْفة التى كادت عندئذ أن تفرغ . وأحست العمة سيسى بالغضب الأخضر ينصهر فى قلبها فقد كانت تصرُّفات إيڤيت الغامضة التى لاتعبأ بمشاعر الآخرين تكاد تدفعها إلى الجنون . فالتقَطتْ صحفتها التى لا تحوى سوى قطعة واحدة كانت قد أخذتها لنفسها وقالت فى أدب لافح لاذع وهى تقدمها إلى إيڤيت :

ـ ألا تأخذين قطعتى ؟

فقالت إيڤيت مفزوعة وهى فى غموضها المُحنَق :

ـ شكراً !

ثم تناولت تلك القطعة أيضًا متظاهرةً بعدم الاكتراث وأردفتْ تقول وكأنها قد عاودت التفكير فى الأمر :

ـ إن كنت لا ترغبين فيها حقًّا .

عندئذ اجتمعت لها فى صحفتها كعكتان . فابيضَّ وجه لوسيل حتى صارتْ كالشبح وهى منحنيةٌ فوق قدح الشاى . وجلست العمة سيسى وقد ارتسمَ على وجهها تعبيرٌ أخضر للاستسلام السامّ . ولشدما كان الحرجُ أليمًا .

ولكن الجدة التى تبوأتْ عرشها بجثمانها الضخم دون أن تعى شيئًا مما يدور حولها ، قالت فى وسط ذلك الإعصار .

— إن كنت ذاهبةً غداً بالسيارة يا لوسيل إلى « بونسول هدّ » فأرجو أن تحملى منى رسالةً إلى الليدى لوث .

فقالت لوسيل وهى ترمُقُ العجوز العمياء بنظرة غريبة عبْرَ المائدة ، وكانت الليدى لوث تمثل عند الأسرة رأس الملك شارل وكانت الجدة لا تفتأ تقدمها لتثير بها اهتمام الزائرين .

— حسنًا !

— فلشدّما كانت رقيقةً فى الأسبوع الماضى ، حين أرسلت إلىّ مع سائقها كتابًا لفوازير الألفاظ المتقاطعة .

فصاحت إيفيت قائلةً :

— ولكنك عندئذ أسْديتِ لها الشكر .

— أحبُّ أن أبعثَ إليها برسالة .

فصاحت لوسيل قائلةً :

— يمكننا إرسالُها بالبريد .

— كلا . بل أريدك أن تحمليها إليها . فعندما زارتنى الليدى لوث فى المرة الأخيرة . . . .

وكان الشباب يجلسون كحَشْدٍ من الأسماك الصغيرة التى تفتح أفواهها الخرساء وتغلقها فوق سطح الماء ، على حين واصلت الجدة حديثها عن

الليدى لوث . وكانت العمة سيسى كما لاحظت الفتاتان لا تزال عاجزةً عن الكلام بل تكاد تكون غائبةً عن الوعى وقد استبدّتْ بها نوبةٌ من الغضب الشديد بسبب الكعكة ، وربما كانت المسكينة مشغولةً بالصلاة.

ونزلتْ رحمةُ السماء عندما رحلَ الأصدقاء . ولكن الفتاتين كانتا عندئذ زائغتى البصر . وفجأةً تمثلت لعينى إيڤيت — وهى تنظر حولها — قوةُ العَزْم الصلبة التى لا تكل عن فرض السيطرة ممثلةً فى جدتها العجوز التى تتظاهر بالأمومة . فقد كانت تجلس جامدةً فى مقعدها وقد برز جثمانُها إلى الخلف دون أن يبدو عليها انفعالٌ ما . وقد ترقّطَ إلى حد ما وجهُها الهَرِم المهتزّ المائل إلى الحُمرة وهو فى شبه غيبوبة ولكنه صارمٌ قاس . كان أشبه بقناع يُخفى وراءه شيئًا صلبًا لا يلين . إنه ذلك الجمود الثابت لسطوتها البغيضة . ولكنها لن تلبث أن تفتح فاها الهَرِم لتقف على كل صغيرة وكبيرة عن ليو وذريل . بيد أنها كانت وقتذاك مستغرقةً فى سُبات هَرَمها وشيخوختها . ولكن فمَها لن يلبث أن يفتح ، ولن يلبث ذهنها أن يخفق مستيقظًا ثم تأخذ فى التحرى عن كل صغيرة وكبيرة ، بما لديها من نَهَم فى الحياة لا يعرف الشبَع ، فى حياة غيرها من الناس . كانت أشبه بذلك الضُّفدع الهَرِم الذى راقبته إيڤيت وهى مأخوذة ، وقد ربَضَ على حافة خلية النحل أمام مدخلها الصغير الذى كان يخرج منه النحل ، ولم يفتأ يلتهمُ كل نحلة تخرج منه مندفعةً فى لهواء بنهشة شيطانية خاطفة كالبرق من فكّيه الممدودين ثم يبتلعها ،

إحداها تلو الأخرى، حتى بدا وكأنه فى مقدوره أن يأتى على الخلية بأسرها ويستوعبها فى جوفه المغضَّن الهَرِم البارز المنتفخ . لقد ظل ذلك الضِّفدع أجيالاً يلتهم النحل كل ربيع ساعة اندفاعه فى الهواء سنة بعد سنة .

ولكن البستانى الذى نادته إيثيت تملَّكه الغضبُ الشديد فقتل الضِّفدَع بحجر . ثم قال وهو يهوى به عليه :

— قد تصلُح لالتهام القواقع . ولكنك لن تُفرِغ خلية النحل فى أحشائك .

٣

كان اليومُ التالى كئيبًا ملبَّداً بالغيوم ، ولشدّما ساءت الطرق ، فقد ظل المطر ينهمر مدة أسابيع ، ومع ذلك قامت الصغيرتان برحلتهما ، دون أن تحملا رسالة الجدة . فقد انسلَّتا إلى الخارج أثناء قيامها عقب الغداء برحلتها البطيئة إلى الطابق العلوى . فإنهما ما كانتا لتذهبا إلى بيت الليدى لوث مهما كان الثمن . فقد صارت أرملة ذلك الطبيب الحاصل على وسام النبالة شيئًا بغيضًا فى حياتهما رغم أنها مخلوقٌ غيرُ مؤذ بالفعل .

جلس فى السيارة ستة من المتمردين الصغار ، ولشدّما شمخوا بأنوفهم فى اعتداد بالذات ، والسيارة تخوض بهم الأوحال فى حفيف ، ومع ذلك كانت تبدو عليهم أيضًا سيماء الضيق . فلم يكن فى حياتهم ، قبل كل شىء ، ما يتمرَّدون عليه فى الحقيقة . إذ أتيحتْ لهم الحرية التامة فى تحركاتهم . وسمح لهم آباؤهم بأن يفعلوا تقريبًا كما يشاءون . فلم يكن فى الواقع قيدٌ يرادُ تحطيمُه أو قضيبُ سجن يُطلَب قطعُه ، أو مزلاجٌ يُبغَى كسرُه ، بل كانت مفاتيح حياتهم فى أيديهم تتدلَّى ساكنةً بلا حراك .

فإن تحطيمَ قُضبان السجن كان فى نظرهم أيسر بكثير من فتح أبواب الحياة التى لم تُستكشف بعد . هذا

هو ما يتبينه الجيل الصغير فى شىء من الأسى . حقاً كانت هناك تلك الجدة . ولكنك لا تستطيع فعلاً أن تقول لهذه الجدة العجوز المسكينة : « فلترقدى أيتها العجوز وتموتى! » . قد تكون مصدراً للإزعاج . ولكنها فى الحقيقة لم تأت شراً قط . فلا يحق لهم أن يبغضوها .

وهكذا انطلق الشباب فى رحلتهم محاولين أن يكونوا فى أسعد حالاتهم النفسية . حقاً كان فى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا . ولذلك لم يكن هناك بالطبع ما يفعلونه سوى أن يجلسوا فى السيارة ويتناولوا غيرهم بكثير من النقد ويستعرضوا شهامةً غزلية سخيفة تبعث على الملل إلى حدما . حقاً ليت هناك فقط بعض « الأوامر المشددة » التى يمكن عصيانها أو التمرد عليها ! ولكن لا شىء ، فيما عدا رفض الفتاتين حمل الرسالة إلى الليدى لوث . وسوف يوافق القس على ذلك لأنه كان لا يشجع أيضاً « رأس الملك شارل » .

وفى أثناء سيرهم خلال القرى القاتمة الحزينة ، راحوا ينشدون فقرات متقطعة إلى حد ما من أحدث الأغانى التى قصد بها أن تكون مضحكة . وكانت الغزلان فى المرعى تجرى فى جماعات على مقربة من الطريق ، جماعات من الظباء من مختلف الأنواع تجمعت هادئةً فى ظلام المساء ، تحت أشجار البلوط ، قريباً من الطريق ، وكأنها تنشد صحبة البشر بما فيها من إثارة .

وأصرّتْ إيڤيت على الوقوف والنزول من السيارة للتحدث إليها . وخاضت الفتيات بأحذيتهن الروسية خلال الحشائش المبتلّة فى حين راحت الغزلان تراقبهن بعيون واسعة غير مذعورة . وركض الأيّل بعيداً فى هدوء رافعاً رأسه إلى الخلف بسبب ثقل قرنيه . أما أنثاه فقد رفعت أذنيها الكبيرتين ولم تنهضْ من مكانها تحت الشجرة ومن حولها صغارها التى لم تكبر بعد حتى كادت الفتيات أن يلمسْنَها . ثم سارتْ الأم بعيداً فى خفة رافعةً ذيلها عن إليتيها المرقّطتين ، وراحت صغارُها تركض خلفها فى خفة وهدوء .

فصاحت إيڤيت قائلةً :

ــ أليست هذه الغزلان غايةً فى الرقة والرشاقة ؟ ! وإنك لتعجبين كيف يمكنها أن ترقد فى راحة تامة على هذا العشب المبلّل الشنيع .

فقالت لوسيل :

ــ أعتقد أنها لا بد أن ترقُدَ بعض الوقت . كما أن العشب تحت الشجرة جافٌّ إلى حد ما .

ثم نظرت إلى حيث رقدت الغزلان فرأت العشب مدعوساً .

وذهبت إيڤيت إلى هناك حيث مدّتْ يدها لتختبر مَلْمَس العشب ثم قالت فى شك :

ــ نعم ! أعتقد أنه دافئٌ إلى حد ما .

وتجمّعتْ الغزلان مرة أخرى على مسافة بضع ياردات حيث وقفت بلا

حراك فى ظلام المساء . وفيما وراء النهر المندفع — يعلوه ذلك الجسر المسوَّر — ظهر عن بُعد أسفل منحدرات الحشائش والأشجار ، بيت الدوقية حيث كان يتصاعد الدخان الأزرق من مدخنة أو اثنتين . ومن خلفه ظهرت غاباتٌ تميلُ إلى اللون القرمزى .

ووقفت الفتيات يُراقبن المنظر فى صمت ، وقد رفعت كل منهن بإحدى يديها ياقة سترتها الفرائية حتى أذنيها فى حين تدلت اليدُ الأخرى من طرف ذراع طويلة . وكانت أحذيتهن الروسية الواسعة تحميهن من العشب المبلَّل . وعلى مسافة بعيدة ظهر البيتُ الكبير بشكله المربع ولونه الرمادى المائل إلى الصفرة . كما انتشرت الظباء على مقربة منهن فى جماعات صغيرة تحت الأشجار العارية . ولشدّ ما بدا كل شىء هادئاً طبيعياً حزيناً .

وقالت إيلاّ :

— إنى لأعجبُ أين يقيم الدوق الآن .

فقالت لوسيل :

— ليس هنا . أعتقد أنه فى الخارج حيث الشمس المشرقة .

ودوَّى من الطريق صوتُ نفير السيارة ثم سُمع صوتُ ليو وهو يقول :

— هيا بنا أيها الأصدقاء ! يحسُنُ بنا أن نتحرك إن كنا نريد الوصول إلى « الهيد » ثم إلى « آمبرديل » لتناول الشاى .

فتزاحموا مرة أخرى فى داخل السيارة بأقدامهم المقرورة ، وانطلقت بهم عابرةً المرعى ومارةً فى طريقها ببرج الكنيسة الصامت . ثم خرجت

من البوابات الكبيرة وعبرت الجسر مخترقة قرية وود لنكن الحجرية الرطبة الواسعة التى يشقها النهر . ثم سارت السيارة مدة طويلة فى أوحال الوادى ورطوبته وظلامه تعلوها فى معظم الأحيان صخورٌ خالصة . ويحف بها من أحد الجانبين صَخَبُ الماء وضجيجُه ومن الجانب الآخر صخورٌ وعرة أو أشجارٌ قاتمة .

وظلوا على تلك الحال يسيرون فى ظلام الأشجار التى تتدلّى أغصانها من فوقهم إلى أن بدأوا يرقَون التلّ وعندئذ زاد ليو من سرعة السيارة التى جاهدت لتصعد فى بطء خلال الأوحال الرمادية المائلة إلى البياض حتى اخترقت قرية « بول هيل » الواقعة على المنحدر حول الصليب القديم بدرجاته التى تقوم عند مفترق الطرق ، ثم مرت السيارة فى طريقها بالأكواخ التى تفوح منها تلك الرائحة الخلاّبة لكعك الشاى الساخن ثم تجاوزتها وهى تصعد تحت الأشجار التى تتساقط منها قطراتُ الماء مارةً بالمنحدرات الوعْرة حيث تنمو نباتات الديشار ، وهى لا تفتأ تواصل طريقها إلى أعلى التل حتى قلّ عمقُ الأرض وانتهت الأشجار وأصبحت المنحدرات على جانبى الطريق عاريةً إلا من العشب القاتم والأسوار الحجرية المنخفضة ثم أشرفوا على « الهيد » .

وساد الصمت بعض الوقت . وقد امتدّ العشب على جانبى الطريق ثم ظهر سور حجرى منخفض ، ومن بعده ذلك المنحنى المرتفع الذى يؤدى إلى قمة التل تحفُّ به الجدران الحجرية الجافة الخفيضة . ومن فوقهم امتدّت السماء الملبَّدةُ بالغيوم .

وانطلقت السيارة تسير فوق القمم العارية تحت السماء الرمادية الواطئة .

وصاح ليو قائلاً :

— هل نمكثُ هنا لحظةً ؟

فصاحت الفتيات :

— نعم ! بالطبع !

وتسللوا إلى خارج السيارة مرة أخرى ليلقوا نظرة على المكان الذى كانوا يعرفونه جيداً . ومع ذلك فكلما جاء زائر إلى « الهيد » خرج من سيارته ليُلقى عليه نظرة .

وكانت التلال أشبه بمفاصل الأصابع وفيما بينها وهاد ضيقة وعرة مظلمة . وثمة قطارٌ يتصاعد منه البخار فى الأعماق كان يتجه فى بطء نحو الشمال حيث بدا كشىء صغير فى العالم السفلى . وكانت ضوضاؤه يتردَّد صداها مرتفعاً إلى أعلى على صورة غريبة . ثم بلغ سمعَهم ذلك الصوت الكئيب المألوف لأعمال النسف فى أحد المحاجر .

وسُرعان ما تحرك ليو الذى كان لا يعرف الاستقرار .

قال :

— هل نرحل ؟ فى آمبرديل أتريدون أن تتناولوا الشاى أم فى مكان آخر قريب ؟

فأجمعوا على تناوله فى مشرب « الماركيز جرانثام » فى آمبرديل .

— حسناً . وبأى طريق نعود ؟ عن طريق كودنور عَبْر

كروسهيل أم عن طريق آشبورن ؟

فواجهوا المشكلة المعهودة . ثم قرروا نهائيًّا أن يسلكوا طريق كودنور . وانطلقت السيارة فى شهامة وشجاعة .

وكانوا عندئذ فوق قمة العالم على ظهر قبضة اليد . وكانت الأرض عند هذا الارتفاع عاريةً أيضًا كظهر اليد تحت قُبَّة السماء وقد امتدّتْ من حولهم خضرةٌ قاتمة كئيبة . وخلا المكان إلا من شبكة من الجدران الحجرية القديمة التى كانت تقسم الحقول على حين تقطعها هنا وهناك أطلال مناجم الرصاص ومصانعه القديمة . وثمة مزرعةٌ حجرية تكاد تكون عارية كانت تقف منتصبةً فيها ستُّ شجرات يابسة حادّة . وظهرت عن بُعد قريةٌ صغيرةٌ أشبه برقعة من الحجر الرمادى القاتم . وفى بعض الحقول كانت الأغنام الرمادية القاتمة تقتات فى صمت وكآبة . ولكن المكان ساده الصمت والسكون فلم يُسمع به صوتٌ أو تبدو فيه حركة . كان ذلك هو سقف إنجلترا وكان حجريًّا عاريًا ككل سقف ومن ورائه فى أسفل بَدَتْ مقاطعاتُ إنجلترا .

وخاطبتْ إيفيت نفسَها قائلةً : « وأشهد المقاطعات الملوّنة » . ولكنها لم تكن هنا ملونةً على أية حال . وظهر فجأة أمامهم سربٌ من الغربان لم يدروا من أين جاء . وكانت من قبل تسير فى أحد الحقول العارية المسمَّدة لتلتقط طعامها . وواصلت السيارة طريقها المرتفع بين العشب والجدران الحجرية . وقد خيَّم الصمتُ على الشباب وهم يتطلَّعون إلى شبكة الأسوار

الحجرية البعيدة تحت السماء باحثين عن المنحنيات الهابطة فى الطريق التى تُشير إلى وهاد خفية منخفضة .

وكانت تتقدّمهم عربةٌ خفيفة يقودها رجلٌ واحد وبجانبه تمشى فى مشقة امرأةٌ نَصَف ، قويةُ البنية ، تحمل صُرّةً على ظهرها . وقد لَحِق بها الرجل الذى يقود العربة حتى صار يُحاذيها .

وكان الطريق ضيقًا . فضغط ليو على النفير بشدة . فتلفّتَ سائقُ العربة حوله ، ولكن المرأة ظلت تمشى إلى الأمام فى سُرعة وثبات دون أن تُدير رأسها .

ووثب قلبُ إيفيت فى صدرها . فقد كان سائق العربة غجريًّا من ذلك الصنف الأسود الذى يمتاز بوسامته ومرونة جسده . ظل جالسًا على عربته وهو لا يفتأ يستدير إلى الخلف مُحملقًا فى رُكّاب السيارة من تحت حافة قبعته . وقد استرختْ جِلستُه وقُحتْ نظرتُه لما فيها من عدم اكتراث . كان له شاربٌ أسود رفيع أسفل أنفه الدقيق المستقيم ، وقد عُقِد حول عنقه منديلٌ حريرىٌ كبير اختلط فيه اللونان الأحمر والأصفر ، ثم خاطب المرأة بكلمة فأطرقت لحظةً كاملة لتستدير وتنظر إلى رُكّاب السيارة التى كانت عندئذٍ قد دَنَتْ منهما تمامًا . وعاد ليو فضغط على النفير بطريقة آمرة . فاستدارت المرأة التى عُقِد حول رأسها منديلٌ اختلط فيه اللونان الأبيض والرمادى ، استدارت فى حِدّة لتمشى فى محاذاة العربة التى استقرّ قائدُها أيضًا فى مقعده وقد رفع العِنان وهزّ كتفيه

الخفيفتين المسترخيتين ولكنه مع ذلك لم ينتحِ جانبًا .

وأطلق ليو من النفير صوتًا صارخًا وهو يضغط على الفرملة ليُهدئ من سرعة السيارة بالقرب من ظهر العربة . فاستدار الغجرى على الصوت وهو يضحك بوجهه الأسمر من تحت قبعته الخضراء القاتمة وفاه بشيء لم يسمعه أحد كاشفًا عن أسنانه البيضاء أسفل خط شاربه الأسود ثم أتى حركةً بيده السمراء المسترخية .

فصرخ ليو قائلاً :

— أفسحا لنا الطريق إذن !

وردّ عليه الرجل بأن جذب عِنان حصانه برقّة حتى أوقفه بانحراف إلى جانب الطريق . وكان الحصان قويًّا أسمر اللون . أما العربة فكانت متينةً أنيقةَ المظهر مطليّةً باللون الأخضر الداكن . ولم يجدْ ليو بُدًّا — وقد تملّكه الغضب — من أن يضغط على الفرملة ويوقف السيارة أيضًا .

وقال الغجرى الذى يقود العربة وهو يضحك بوجهه كله فيما عدا عينيه السوداوين اليقظتين اللتين أخذتا تنتقلان من وجه إلى آخر ثم تلكّأتْ نظرتُهما عند وجه إيثيت الغضّ الرقيق :

— « ألا تريد الآنسات الجميلات أن يسمعن الطالع ؟

وما إن التقتْ عينا إيثيت بعينيه السوداوين وَهْلةً قصيرة وهما تتفرّسان هنا وهناك بنظرة سَوِيّة وَقحة غير عابئة بالناس من أمثال بوب وليو حتى اشتعلتْ النارُ فى صدرها . ثم حدّثت نفسها قائلةً :

— إنه أقوى منى ، فهو لا يعبأ بشىء !

فهتفت لوسيل فى الحال قائلةً :

— نعم . دعونا نسمع الطالع ؟

فقالت الفتيات فى صوت واحد :

— نعم !

فصاح ليو قائلاً :

— وماذا عن الوقت ؟

فصاحت لوسيل قائلةً :

— لا تعبأ بالزمن الهَرِم ! فهناك دائمًا من يملك ناصيتَه .

فقال ليو فى بطولة مخاطبًا الجماعة :

— حسنًا . إن كنتم لا تبالون بموعد عودتنا فأنا أيضًا لا أبالى !

كان الرجل الغجرى يجلس مسترخيًا على حافة عربته وهو يراقب الوجوه . عندئذ وثب فى هدوء من فوق ذراع العربة وقد تصلَّبَتْ ركبتاه قليلاً . كان من الواضح أنه تجاوز الثلاثين من عمره بقليل ، كما كان وسيمًا أنيقًا على طريقته الخاصة . فقد كان يرتدى سُتْرةَ صيد ذات صفَّين من الأزرار تصل إلى عَجُزه فقط وقد صنعت من الصوف الخشن ذى اللونين الأخضر القاتم والأسود ، وسراويل سوداء ضيقة إلى حد ما ، وحذاء أسود ، وقلنسوة خضراءقاتمة ، وقد أحاط بعنقه ذلك المنديل الكبير ذو اللونين الأصفر والأحمر . كان أنيقَ المظهر على صورة غريبة كما

كان ملبسُه فى طرازه الغجرى باهظَ النفقات . كما كان وسيماً يضغط على ذقنه إلى الداخل فى غرور الغجر القديم . أخذ يقود حصانه الأسمر القوى بعيداً عن الطريق استعداداً للتقهقر بعربته . وكان واضحاً عندئذ أنه لم يعُدْ يَهابُ هؤلاء الغرباء .

ولأول مرة رأت الفتيات مخبأ عميقاً فى جانب الطريق به عربتان من عربات القوافل يتصاعد منهما الدخان . فهبطت إيڤيت من السيارة بسرعة . وفوجئ الجميع بمحجر مهجور حُفِرَ داخلَ منحدر فى جانب الطريق . وفى ذلك العرين الذى ظهر فجأة ، وكان أشبهَ بالكهف ، وقفت ثلاث عربات مُعطَّلة بسبب الشتاء . كما قام فى داخل المحجر عند نهايته مأوًى من فروع الشجر كان يُستخدم كحظيرة للحصان . ومن فوق تلك العربات كان الصخر الرمادى الخام يرتفع عالياً ثم ينحرف متجهاً نحو الطريق . أما الأرض فقد تكدّسَتْ عليها شظايا الأحجار التى نَبتتْ بينها الحشائش . كان مُخيَّماً شتوياً مريحاً خفياً .

وقد دخلت المرأة النَّصَف التى تحمل الصُرّة إحدى العربات وتركتْ بابَها مفتوحاً فظهر فيه طفلان يختلسان النظر إلى الخارج وقد بدا للعيان رأساهما الأسودان . وأطلق الرجل الغجرىّ صيحةَ نداء قصيرة وهو ينسحب بعربته إلى داخل المحجر ، فجاء رجل فى منتصف العمر ليساعده على فصل الحصان عن العربة .

كما صعد الغجرى نفسُه الدرج ليدخُلَ أحدثَ العربات وكان بابُها

موصداً . وقد أوثق فى أسفلها كلبٌ أبيض اللون مرقّط فى لون الكستبد لم يفتأ يندفع إلى الأمام . وما إن اقترب منه ليو وبوب حتى زمجر فى صوت خفيض .

وفى نفس اللحظة هبطَتْ الدرج امرأةٌ غجرية سمراء الوجه عُصِبَ رأسُها بمنديل أو وشاح قرمزى وتدلّى من أذنيها قُرطٌ ذهبىٌ كبير وهى تهزُّ إزارها الأخضر المهدّب الفضفاض . كان وجهُها وسيماً بطابَعه الأسمر الطويل الجرىء ولكنه ذئبىٌ إلى حد ما . فبدت كإحدى نساء الغجر الإسبانيات الجريئات وهى تخطُر فى مِشْيتِها . قالت وهى تتفرّس فى الفتيات بعينيها الجريئتين الضاريتين :

ــ أُسعِدْتم صباحاً سيداتى وسادتى .

كانت تتكلم بلكنة أجنبية معينة .

فقالت الفتيات :

ــ أُسعِدتِ مساءً !

ــ أىَّ حسناء صغيرة تحب أن تسمع الطالع ، فلتُمدّ لى يدها .

كانت امرأةً طويلةَ القامة يشرئبُّ عنقها إلى الأمام بطريقة مفزعة كالنذير . راحت تنقُلُ عينيها بنشاط جَمّ من وجه إلى آخر بحثاً عما تنشُد فى غير شفقة أو عطف . وفى تلك الأثناء ظهر عند قمة درج العربة ذلك الرجل الذى كان من الواضح أنه زوجُها وهو يدخن غليونه حاملاً بين ذراعيه طفلاً صغيراً أسودَ الشعر . وقف معتمداً ساقيه المرنتين

وهو ينظر عَرَضًا إلى جماعة الشباب وكأنه على مسافة بعيدة منها ، وقد ارتفعت أهدابه السوداء الطويلة عن عينيه الممتلئتين المغترّتين الوقحتين السوداوين . وكان يتدفق من نظرته على صورة غريبة شيءٌ ما أحسَّتْ به إيڤيت . أحسَّتْ به فى ركبتيها . ولكنها تشاغلت عنه بالكلب الأبيض المرقَّط بالحُمرة .

وسألت لوتى فريملى قائلة عند ما ازورّ إلى الخلف — على مَضَض إلى حد ما — هؤلاء الستة من الشباب المسيحيين ذوى الوجوه النضرة بعيداً عن المرأة الوثنية الطريدة :

— كم تريدين أن ندفع لك لو قرأت الطالع لنا جميعًا ؟

فقالت المرأة بذكاء :

— جميعُكم ؟ سيداتى وسادتى جميعُكم ؟

فصاح ليو قائلاً :

— أنا لا أريد أن تقرئى لى الطالع ! هيا ابدئى !

فقال بوب :

— ولا أنا أيضًا . الفتيات الأربع فقط .

فقالت المرأة الغجرية وهى تتفرّس فيهن بذكاء بعد ما ألقت نظرةً على الشبان :

— سيداتى الأربع ؟ ثم حدّدَتْ الأجر قائلةً :

— تدفع لى كلٌّ منكن درهمًا واحداً مع زيادة زهيدة لحسن الطالع . زيادة زهيدة .

ثم ابتسمت بطريقة لم تكن مغريةً متملقة بقدر ما كانت ذئبيَّةً مخيفة . وأحسّ الجميعُ بقوة إرادتها ثقيلةً كالحديدتحت مُخمَّل ألفاظها. فقال ليو :

— حسنًا . فليكُن الأجر درهمًا عن كل فتاة . ولكن لا تُطيلى الحديث .

فصاحتْ فيه لوسيل قائلةً :

— بل نريد أن نسمع كل شىء . . .

وتناولت المرأة مقعدين خشبيين خفيضين من تحت إحدى العربات ووضعتهما بالقرب من العجلة . ثم جذبت لوتى فريملى السمراء الطويلة من يدها وطلبتْ إليها أن تجلس . وقالت لها وهى تتطلَّع إلى وجهها بطريقة غريبة :

— أتُبالين لو سَمعَ الجميع ؟

فاحمرّ وجهُها فى عصبية فى حين أمسكت المرأة الغجرية بيدها وربّتت على راحتها بأصابعَ صلبة تبدو عليها القسوة .

فقالت :

— إنى لا أعبأ بذلك .

وتفحَّصَتْ المرأة الغجرية راحة يدها وهى تتابع أساريرها بسبَّابتها

السوداء الصلبة . ولكن المرأة بدت نظيفةً .

وراحت تقرأ لها الطالع فى بطء على حين وقف الجميع يُنصِتْن إليها دون أن تنقطع صيحاتُهن :

ـ آه هذا جيم ياجالى ! آه ! إننى لا أصدق ذلك ! آه هذا غير صحيح ! شقراء تعيش تحت شجرة ! ومن تكون هى ؟ ... إلى أن أسْكتَهُن ليو بتحذير قوى قائلاً :

ـ تمالكن شعوركن يا فتيات ! فأنتن تُفشين كل شىء .

وانسحبت لوتى خَجِلةً مرتبكة ثم جاء دور إيلا . وكانت أكثر هدوءاً وذكاءً وهى تحاول أن تقرأ ألفاظ الكِهانة . وظلت لوسيل تصيح قائلةً « آه ! يالله ! » ووقف الرجل الغجرى على قمة الدرج هادئاً رابطَ الجأش دون أن يبدو عليه تعبير ما . ولكن عينيه الجريئتين ظلتا تحدجان إيفيت حتى أحسَّتْ بهما على وجنتها وعلى عنقها ولم تجرؤ على أن ترفع إليه بصرها . ولكن فريملى كان يتطلَّع إليه أحياناً فيرى وجه ذلك الرجل الغجرى الوسيم ، ويتلقى من عينيه السوداوين المتكبرتين المغترتين ، نظرةً سويَّةً غريبة تنطلق من عينيه اللتين تنتميان إلى قبيلة المتَّضعين ، تنطق بكبرياء المنبوذين ، وتحدى الطريد الذى يسخر من الخاضعين للقانون ثم يمضى فى طريقه . وظل الرجل الغجرى طيلة الوقت واقفاً هناك وطفلُه بين ذراعيه متفرجاً فى غير اهتمام .

كانت لوسيل تستمع إلى المرأة وهى تقرأ كفَّها قائلةً :

— لقد عَبَرتِ البحر وهناك التقيتِ برجلٍ — رجلٍ كستنائى الشعر ولكنه أسنُّ منك بكثير .

فصاحت لوسيل قائلة وهى تُدير عينيها نحو إيڤيت :

— آه ! يا لله !

ولكن إيڤيت كانت شاردةً مضطربة لا تكاد تعى شيئًا : فى إحدى حالات نومها المغناطيسى . ثم أردف صوت المرأة قائلاً :

— ستتزوجين بعد بضع سنين — ليس الآن بل بعد بضع سنين — وربما بلغتْ أربعًامن السنين — ولكن الثراء ليس من نصيبك بل الوفرة — ما يكفى حاجتك من كل شىء — كما أنك ستقومين برحلة طويلة .

فصاحت لوسيل قائلةً :

— مع زوجى أم بدونه ؟

— معه

وعند ما جاء دور إيڤيت تطلَّعتْ إليها المرأة فى جُرأة وقسوة ، وهى تتفرّس طويلاً فى وجهها حتى قالت إيڤيت فى لهجة عصبية :

— لا أحسبُنى راغبةً فى سماع الطالع . لا ، لن أسمع الطالع ! لا ! لا أريد ذلك حقًّا !

فقالت المرأة الغجرية فى قسوة :

— أتخشين شيئًا ؟

فقالت إيفيت متململة :

— لا . ليس هذا .

— ألديك سرٌّ ما تخشَيْن أن أذيعه ؟ هَلُمِّى ! أتريدين دخول العربة حيث لا يسمعنا أحد ؟

كانت المرأة تُوعِزُ إليها على صورة غريبة فى حين ظلت إيفيت مُصِرّةً عنيدة . وحينئذ كانت سيماءُ التمرُّد تُضفى على وجهها الغضّ الواهن الرقيق صرامةً غريبة ثم قالت فجأة :

— نعم ! نعم ! لا أرى مانعًا من ذلك !

فصاح الآخرون — « يا لله ! لا تُفسِدى علينا لهونا » .

فصاحت لوسيل قائلةً :

— لا أظنك تُحسنين عملاً بذلك ؟

فقالت إيفيت بلهجتها الطفولية القاسية :

— بلى ! سأفعل ذلك . وسأدخل العربة .

فصاحت المرأة الغجرية بشىء ما للرجل الواقف على الدرج . واختفى لحظة فى داخل العربة ثم عاد إلى الظهور هابطاً الدرج حيث أوقف الطفل على قدميه المزعزعتين وأمسك به من يده . كان متأنقًا فى هندامه ، بحذائه الأسود اللامع وسراويله السوداء الضيقة وسُترته الصوفية الخضراء المُحكَمة . أخذ يمشى فى بطء إلى جانب طفله الذى كان يتعثَّر فى خُطاه متجهًا إلى الحظيرة المقامة بين جُبَّيْن من الصخور الرمادية حيث كان الغجرى

الكَهْل يُقدم إلى الحصان الأسمر طعامه من الشوفان، وقد تناثرت بعض الحشائش الجافة على الأرض المكسُوّة بشظايا الأحجار . وفى أثناء مروره لم يفتأ يحدج إيڤيت مباشرةً فى عينيها بنظرة المنبوذ التى كانت على الرغم من جرأتها تنطوى على الغدر والخيانة . واصطدمت نظرتُه بشىء صلْب فى داخلها . أما السطح الخارجى لجسدها فقد بدا وكأنه تحوّل إلى ماء . ومع ذلك فإن معالم وجهه الغريبة الصافية وأنفه المستقيم الصافى ووجنتيه وصُدغيه قد انطبعَتْ جميعُها على شىء صَلْب فى داخلها . كما تحدّدَتْ تحت سُتْرته الخضراء كافةُ معالم جسده الغريب الأسمر فى صفائه الرقيق الذى كان أشبه بسخرية حيَّة .

وبدا لها وهو يخطُر أمامها فى بطء معتمداً عَجُزَهُ المَرِن أنه أقوى منها . فمن بين جميع الرجال الذين رأتهم فى حياتها كان هو دون سواه يفوقُها قوةً من نوع قوتها وإدراكاً من صنف إدراكها .

وهكذا سارت يحدوها الفضول فى أثر المرأة الغجرية وهى تصعد الدرج، وإزارُ سُتْرتِها البنية الأنيقة يتأرجح ويكاد يكشف عن ركبتيها من تحت ثوبها الأخضر الشاحب . وكانت ساقاها طويلتين جميلتين واسِعَتى الخُطى ولكنهما أقرب إلى النحول منهما إلى السُّمك . وقد ارتدت جوارب صوفية رقيقة غريبة الزخرف ذات لون بُنى شاحب تبدو فيها ساقاها وكأنهما ساقا حيوان رقيق .

وما إن بلغَتْ قمة الدرج حتى وقفت برهة ثم التفتت نحو الجميع فى

مرح وسرور قائلةً بطريقتها التلقائية الساذجة المتعالية :

— لن أستبقيها طويلاً .

وقد فُتِحتْ ياقةُ سترتها الفرائية الرمادية فكشفت عن عنقها الرقيق وثوبها الأخضر الشاحب . وضغطت قبعتها البنية الصغيرة المجدولة على رأسها حتى بلغت أذنيها محيطة بوجهها النضر الرقيق . وكانت توحى بشىء من الرقة ولكن فى سيطرة وعدم اكتراث . أدركت أن الرجل الغجرى قد استدار لينظر إليها . كما أحسَّتْ بقفاه الأسمر الصافى وشعره الأسود المشذَّب . أخذ يراقبها وهى تدخل بيته .

لم يعرف أحدٌ قط ما قالته لها الغجرية . ولكنَّ الجميع أحسوا أنه طال انتظارها . وأخذ ضوء الشفق يخبو رويداً رويداً مقتربًا من ظلمة الليل ومال الجو إلى الرطوبة والبرودة . وراح الدخان ينبعث من مدخنة العربة الثانية حاملاً إليهم رائحة الطعام الدسم . كان الحصان قد تناول طعامه وتدثر ببطانية صفراء ثم ظهر عن بُعد رجلان من الغجر يتحدثان بأصوات خافتة . وران على المحجر الخلىّ المنعزل إحساسٌ غريب بالسرية والسكون .

وأخيراً فتح باب العربة وظهرت إيثيت منحنيةً إلى الأمام وهى تخطو هابطةً الدرج بساقيها الطويلتين السحريتين النحيلتين . وقد اكتنفها عند ظهورها فى ضوء الشفق صمتٌ سحرىٌ مُطرِق . قالت فى غموض دون أن تنظر إلى أحد منطويةً بقوة على سرها الخاص خلف

عنادها الغامض الرقيق .

ــ هل بدا لكم أننى تأخرت ؟ علّكم لم تشعروا بالملل ! أليس الشاى لذيذاً الآن ؟ ! هل نذهب ؟

فقال بوب :

ــ ادخُلى السيارة ! وسأدفع أنا الأجر .

وإذا بالمرأة الغجرية تهبط الدرج فيتأرجح إزارها الصرفى الأخضر اللامع الفضفاض . وقد انتصبت قامة تلك المرأة العبهر[١] وارتسم الظفر على وجهها الذئبى الأسمر . كما انزلق جانباً فوق شعرها الأسود المجدول منديلُها القرمزىّ الكشمير المحلى بالورود الحمراء . أخذت تحملق فى الشباب على ضوء الشفق فى عُنجُهية جريئة .

ووضع بوب فى يدها خمسة دراهم .

فقالت له مستحثّةً متملقة كالذّئب الذى يتحايل على فريسته :

ــ زِدْنى قليلاً جزاء حُسن الحظ من أجل سيدتى الصغيرة . أعطِنى شيئاً يجلب لك الحظ .

فقال بوب فى هدوء وهم يتجهون صَوْبَ السيارة :

ــ إنى نقدتك درهماً لذلك . يكفى هذا .

ــ قطعة صغيرة من الفضة ! قطعة صغيرة فقط لتسعد فى الحب ! فإذا بإيفيت عند دخولها السيارة تدور إلى الخلف بإحدى حركاتها

---

(١) الطويلة الممتلئة الجسم .

المفزعة المفاجئة التى تأتيها بأطرافها الطويلة ثم تخطو نحو المرأة الغجرية مادّةً ذراعها الطويلة لتدس شيئًا فى يدها ثم تدخل السيارة حانيةً قامتَها.

وانبعث صوتُ المرأة الإيحائى فى شىء من السخرية قائلاً :

— النجاح والثراء للحسناء الصغيرة . إنى أباركها .

ودوّى صوتُ المحرك ثم دوّى مرة أخرى على صورة أعنف وانطلقت السيارة . وأضاء ليو الأنوار ثم ما لبث أن اختفى المحجر والغجر فى ظلام الليل .

وهتف صوت إيڤيت عند ما تحركت السيارة قائلاً :

— طابت ليلتكم !

ولكن صوتها لم يسمع سواه مغرداً وقحًا لعدم اكتراثه . وحملقت الأنوار الكاشفة فى الطريق الحجرى .

ثم صاحت لوسيل قائلةً على الرغم من إرادة إيڤيت الصامتة التى تأبى أن تُسأل :

— إيڤيت . عليك أن تخبرينا بما قالته لك العرافة .

فقالت إيڤيت فى حرارة مصطنعة :

— ليس شيئًا مثيراً على الإطلاق . بل ذلك اللغو العادى المألوف . رجل أسمر يرمُز إلى حسن الحظ . ورجل أشقر يرمز إلى سوئه . ثم وفاة فى الأسرة . ولو أن جدتى هى المعنية بذلك لهان الخَطْب . كما أننى سأتزوج عند ما أبلغ الثالثة والعشرين وعندئذ يتوفّر لى الحب والمال ثم أرزق بطفلين .

كلها أحلامٌ جميلة ولكنها كما تعلمين تنطوى على كثير من المبالغة .

ــ ولكن لماذا أجزلت لها العطاء ؟

ــ حسناً . هكذا أردت ! فلا بد أن تأخذى نفسك قليلاً بمظاهر العظمة مع هؤلاء الناس .

٤

ثارت فى الأبرشية ضجَّةٌ عنيفة حول إيڤيت وصندوق النافذة . فقد حدث بعد الحرب أن عقدت العمة سيسى آمالها على نافذة زجاجية ملونة فى الكنيسة خُصِّصَتْ كنُصُب تذكارى لشهداء الأبرشية . ولكن معظمهم كانوا من المنشقِّين ، فأقيم النُّصُب على شكل ضريح صغير قبيح أمام مصلَّى ويزليان .

ولكن ذلك لم يُثبِّط من همة العمة سيسى ، بل أخذت تتصيد السلع وتُقيم الأسواق الخيرية وتدفع الفتيات إلى تقديم استعراضات مسرحية للهواة ، كل ذلك من أجل نافذتها الثمينة . ولما كانت إيڤيت مشغوفةً بالناحية التمثيلية والاستعراضية من المشروع ، فقد تولَّتْ الإشراف على المسرحية المضحكة « مارى فى المرآة » ، وجمعت حصيلتها التى كان عليها أن تدفعها لصندوق النافذة عند تسوية الحسابات . وكانت كل فتاة تحمل

حصّالةً لذلك الغرض .

وعند ما رأت العمة سيسى أن مجموع المبالغ يكاد عندئذ يكفى الغرض طلبت فجأةً حصّالة إيڤيت التى لم تكن تحوى سوى خمسة عشر درهمًا . فكانت لحظةً من الرعب الأخضر .

— وأين بقيةُ المبلغ ؟

فقالت إيڤيت فى غير اكتراث :

— لقد اقترضتُه . ولكن المبلغ ليس جسيمًا إلى هذا الحد .

فسألتها العمة سيسى وكأن الجحيم قد فغر فكيه فى ثُؤَباء :

— وماذا عن الجنيهات الثلاثة والدراهم الثلاثة عشر التى جُمعت من تمثيلية « مارى فى المرآة » ؟

— بالضبط ! اقترضتُها . ويمكننى سدادُها .

مسكينة العمة سيسى ! لقد انفجرت فى نفسها خُراجةُ الحقد الخضراء وثار شجارٌ شاذٌ مرعب جعل إيڤيت ترتجف من الخوف والكراهية العصبية . بل إن القس نفسه لم تأخذه بها رحمة أو شفقة ، إذ قال لها فى فتور :

— لِمَ لم تخبرينى أنك فى حاجة إلى النقود ؟ هل سبق أن رفضتُ لك طلبًا فى حدود المعقول ؟

فتلعثمتْ إيڤيت قائلةً :

— خُيِّل . . . . خُيِّل لى أن الأمر غير ذى أهمية .

ـ وماذا فعلت بالنقود ؟

فقالت إيفيت وقد اتسعت عيناها فى ذهول واربدّ وجهها .

ـ أعتقد أننى أنفقتُها .

ـ أنفقتها ؟ فيم ؟

ـ لا يمكننى الآن أن أذكر كل شىء . فقد ابتعتُ بعض الجوارب وغيرها من الحاجيات كما تبرّعتُ بجزء منها .

مسكينة إيفيت! فقد أخذت مظاهرُ عظمتها وَبذَخِها ترتدُّ إليها بما تحمل من عواقب وخيمة . إذ غضب القس وبدا شرسًا مُكشِّراً عن أنيابه . واكتسى وجهه بابتسامة ساخرة صفراء . كان يخشى أن تكون ابنته قد بدأت تنمو فى نفسها بعضُ المعايب العَفِنة الفاسدة التى كانت تتصف بها « المرأة التى تُدعى سنثيا » .

فقال لها فى سخرية بهيمية باردة كشفت عن إلحاده المطلق فى أعماق قلبه :

ـ أتتظاهرين بالبذل والعطاء من مال غيرك ؟

كشف القسُّ عن قلبٍ دنىءٍ خاوٍ من الإيمان الدافئ والفخر بالحياة. فقد تجرّد تمامًا من كل إيمان بابنته .

فشحُب وجه إيفيت وتولاها الذهول. وانكمشَتْ شعلةُ كبريائها الواهنة الثمينة التى حاول الجميعُ إخمادَها ـ انكمشت بعيداً كما ينكمش اللَّهَبُ عند تعرُّضه لريح باردة فيبدو كأنه قد خَمَد . أما وجهُها الذى

ابيضّ لونه عندئذ ولم يزل كزهرة الثلج — زهرة غروره الثلجية البيضاء، فقد بدا وكأنه فقد الحياة . ولم يبقَ به سوى ذلك الذهول الصافى الغريب .

فحدّثتْ نفسها قائلةً :

— إنه لا يؤمن بى فأنا فى نظره لا أعنى شيئًا فى الحقيقة . لا أعنى شيئًا سوى العار . العار فى كل شىء . العار فى كل شىء .

لو أنها سُفعت بلهيب الانفعال أو الغضب فربما أخرجها عن طورها أو طواها فى غماره ولكنه ما كان ليحُطّ من قدرها كما فعل إنكاره إياها وموقفه النهائى منها الذى تمثل فى ابتسامة ساخرة صفراء .

فقد ساوره الخوف قليلاً فى سكون الفكر العقيم . كان يحتاج قبل كل شىء إلى « مظهر » الحب والإيمان والحياة المرحة ولكنه لن يجرؤ مطلقًا على مواجهة تلك الدودة السميكة التى كانت تتحرك فى قلبه : دودة إنكاره وإلحاده .

سألها قائلاً :

— بماذا تدافعين عن نفسك ؟

فلم تزِدْ على أن تطلّعتْ إليه بوجهها الهامد الشبيه بزهرة الثلج فأشاعت فى نفسه الخوف وبثت فيها إحساسًا بالذنب لاحيلة له فيه . فقد كانت تلك « المرأة التى تُدعى سنثيا » تنظر إليه يراودها ذلك الخوفُ الخَدِر الأبيض — الخوف من إنكاره المُذلّ — الذى يسكُنُ قلبه كالدودة . كان يعلم أن قوامَ قلبه دودةٌ سميكة رهيبة . ولشدّ

ما كان يخشى أن يقف أحدٌ على تلك الحقيقة حتى لا تعذبه كراهيته لكل من يعلم ذلك ويزورُّ عنه .

وما إن رأى إيڤيت وهى تزورُّ عنه حتى غيَّر من أسلوبه فى الحال وتقمَّص شخصية الرجل الدنيوى الساخر ، المرح .

فقال :

— آه حسنًا . عليك أن تردّى المبلغ يابنيتى . هذا هو كل ما هنالك . وسأمدُّك به خصمًا من مرتبك . ولكنى سأتقاضى منك فائدة شهرية قدرها ٤٪ ، فإن الشيطان نفسه يجب أن يدفع فائدة على ديونه . أما عن المستقبل فإياك أن تأخذى نقوداً لاتخصُّك فإن كان لايمكنك أن تثقى بنفسك . فإنه لمما يَشينك أن تخونى الأمانة .

ظلت إيڤيت فى مكانها مسحوقةً مهينة مغتصبة . وراحت تزحف هنا وهناك مجرِّرةً خلفها أذيال كبريائها . لقد نفرت من كل شىء . حتى من نفسها . فلماذا لمست ذلك المال الأجذم ! وتقلَّص بدنها كله وكأنه قد تدنّس . لم كل هذا ؟ لم ؟ لم كل هذا ؟

لقد اعترفت بينها وبين نفسها بأنها أخطأت بإنفاقها النقود ، وقالت محدثةً نفسها :

— لاشك أننى ما كان يجب أن أفعل ذلك . فهم مُحِقون تمامًا فى غضبهم .

ولكن مم اقشعرّ بدنُها على هذه الصورة الرهيبة ؟ ولماذا أحسَّتْ

أن مرضًا ما قد انتقلت إليها عدواه ؟

وراحت لوسيل المسكينة، التى لشدّ ما اغتمّتْ من أجلها، تَعِظُها قائلةً :

— ما أسخَفك يا إيڤيت فى تعريض نفسك لسخريتهم جميعًا. كان يمكنك أن تدركى أنهم سيكشفون الأمر . وكان فى وسعى أن أجمع لك النقود ، وأوفر عليك كل هذه المتاعب . فما أشنَع ذلك ! ولكنك تأبين دائمًا أن تفكرى أولاً فيما تقودك إليه أعمالك ! أيُخيل لك أن العمة سيسى تقول لك كل هذا ؟ ! ياللشناعة ! ماذا تقول أمك لو أنها سمعت بهذه القصة ؟

وكانت الفتاتان كلما تعرضتا لأزمة عنيفة تذكران أمهما وتزدريان أباهما وسلالة سايول الحقيرة بأسرها . فلا شك أن أمهما كانت تنتمى إلى عالم أسمى ، ولو أنه أشد خطورة « ولا أخلاقية » ، فلا جدال فى أنه أكثر أنانية رغم لَفَتاته اللامعة . وأقل اكتراثًا للأمور وأسرع إلى الاحتقار : ولكنه لا يُمعن فى التحقير على هذه الصورة .

كانت إيڤيت تعتقد دائمًا أنها وَرِثتْ عن أمها بدنها الغض الرقيق . أما أفراد أسرة سايول جميعًا فقد تجلّد صفاقُهم بعض الشىء فى مكان ما وَعلِق به القَذَر . ولكنهم لا يتخلّون عنك مطلقًا . فى حين أن « المرأة الجميلة التى تُدعى سنثيا » قد تخلّت عن القس بفضيحة كما تخلّت عن طفلتيه الصغيرتين . طفلتيها الصغيرتين ؟ لقد تعذّر

عليهما أن تصفحا عنها تمامًا .

وعلى أثر تلك الضجة لم تُدرك إيڤيت إلا فى غموض قُدسيَّة ذاتها الأخرى . قُدسيَّة بدنها الحسّاس النظيف لحمًا ودمًا وقد استطاع أفراد أسرة سايول بما يسمونه « قوة خلقية » أن يُدنسوه . كانوا يرغبون دائمًا فى تدنيسه . فقد أنكروا الحياة فى حين أن « المرأة التى تُدعى سنثيا » ربما لم تنكر منها سوى أخلاقها فحسب .

وقد استولى على إيڤيت الذهول والعبوس والارتباك . ودفع القس المبلغ إلى العمة سيسى . ولشدّ ما أغضبها ذلك . فإن خُراجة سورتها التى لا حيلة لها فيها مازالت تقيح . وكان بودها أن تعلن فى مجلة الأبرشية عما اقترفته ابنة أخيها من إثم . لشدّ ما آلم تلك المرأة المُحطَّمة ألا تستطيع إذاعة الخبر فى العالم أجمع . إنها الأنانية ! الأنانية ! الأنانية !

ثم سلَّم القسُّ لابنته حسابها الصغير معه : دينها له مضافًا إليه الفائدة وَخصَم المبلغ من مرتبها الصغير . ولكنه وضع جنيهًا لحسابها كغرامة عليه أن يدفعها لاشتراكه فى الجرم .

فقد قال مازحًا :

— بوصفى والد المذنبة فإنى أدفع غرامة قدرها جنيه واحد . وبذلك أبرئ نفسى من الذنب .

كان القس يجود دائمًا بماله — ولكنه خُيل له أنه ببذله المال يمكنه بصفة مطلقة أن يدَّعى الكرم . فى حين أنه كان يستغلُّ ماله بل

عطاءه فى إحكام قبضته عليها .

ولكنه ترك الموضوع يطويه النسيان . ولشدَّ ما كان القسُّ عندئذ منشرحَ الصدر ، هذا إذا بنينا حكمنا على المظاهر . فقد خُيل له أنه مازال فى أمانٍ من الخطر .

ومعَ ذلك فقد تعذَّر على العمة سيسى أن تُشفى غُلَّتها . وذات ليلة أوَتْ إيڤيت إلى فراشها فى ساعة مبكرة وهى تشعر بالتعاسة ، وكانت لوسيل مدْعُوَّةً إلى حفلة فى الخارج فإذا بباب غرفتها يُفتح فى هدوء وهى راقدة فى فراشها تؤلمها أطرافها اللينة الهزيلة فى نوع من الخدر والدَّنَس فرأت العمة سيسى واقفة هناك وهى تميل بوجهها الأخضر الشاحب إلى الأمام من خلال فتحة الباب فجفلت إيڤيت فى فزع .

وفحَّتْ العمة سيسى قائلةً بوجهها المخبول :

— أيتها السارقة الكذوب ! أيتها الأنانية المتوحشة ! أيتها المنافقة الصغيرة ! أيتها الكذابة الأشرة ! أيتها الأنانية المتوحشة ! أيتها الجشعة المتوحشة !

لشدَّ ما نَضَح قناعُها الأخضر الشاحب كما نضحت كلماتها المجنونة بالكراهية الشاذّة غير الشخصية مماجعل إيڤيت تفتح فاهاالتَطلق صرخات مخبولة . ولكن العمة سيسى أغلقت الباب بنفس الطريقة الفُجائية التى فتحته بها ثم اختفت . فقفزت إيڤيت من فراشها وأدارت المفتاح . ثم زحفت عائدةً إليه وقد أوشك خوفُها من الشذوذ القذر أن يُفقِدَها وعيها

وأصابها شللُ كبريائها المحطَّمة بخَدَر نصفىّ . وفى وسط ذلك كله ارتفعتْ إلى حلقها فُقاعةٌ من الضحك المذهول . فلشدَّ ما كان ذلك مثيراً للسخرية على صورة قذرة !

لم يكن سلوكُ العمة سيسى فى نظر الفتاة بالغَ الإساءة . فقد كان خياليًّا إلى حد ما قبل كل شىء . ولكنها جُرحَتْ بلاشك . . فى أطرافها ، وفى بدنها ، وفى جنسها . نعم جُرحَتْ . جُرحَتْ وتخدَّرتْ وكادت تنهار . ولم يعُدْ ينبض فيها شىءٌ سوى أعصابها التى لم تفتأ تتذبذب فى تنابذ واختلال . ومع ذلك فإن حداثة سنها لم تمكِّنها من إدراك ما كان يدور حولها .

لم يسعها إلا أن ترقد فى فراشها وتتمنَّى لو كانت غجرية تعيش فى مُخَيَّم أو قافلة ولا تطأ قدُمها المنازل ولا يخطُر ببالها وجودُ الأبرشيات ولا ترى الكنائس مطلقًا . فلشدَّ ما نفرت من الأبرشية حتى تجمَّدَ قلبُها . فقد كرهت تلك البيوت بوسائلها الصحية وحماماتها وبشاعتها الخارجة عن المألوف . كرِهتْ الأبرشية وكل ماتنطوى عليه من معان، فقد عَفنَتْ فيها تلك الحياة الآسنة كلها—« حياة المجارى » — حيث كانت تلك الكلمة لاتُذكر مطلقاً ولكن رائحتها تبدو وكأنها تفوحُ من وسطها لكل ذى ساقين من سكان الدار ابتداءً من الجدة حتى الخدم . وإذا كان الغجر لا يملكون حمامات فإن حياتهم على الأقل خلوٌ من المجارى والهواء طلق متجدِّد . أما فى الأبرشية فإن

الهواء لايتجدد مطلقاً بل يظل راكداً حتى فى نفوس الناس إلى أن يعْفَن .

وأضرمت البغضاء النار فى قلبها وهى راقدة على الفراش بأطرافها المخدّرة . وتذكرت كلمات المرأة الغجرية عندما قالت لها : « هناك رجل يهواك أسمر اللون لم يعرف قط الحياة فى المنازل . أما الآخرون فإنهم يطؤون قلبك بالأقدام . ولن يبرحوا يطؤونه حتى يخيل لك أنه مات . ولكن الرجل الأسمر سينفخ فى الشرارة الأخيرة ليُحيلها من جديد ناراً حامية . وسوف ترين كيف تتأجّج هذه النار » .

وأحسّتْ إيڤيت وهى تُنصتُ إلى حديث المرأة أن هناك بعض الخداع فيما تقول . ولكنها لم تُبال بذلك . فاشدّ ما كرهت الحياة داخل الأبرشية بما فيها من عَفَن — كُرهاً طفولياً بارداً لاذعاً . لقد أحبّتْ تلك المرأة الغجرية الضخمة السمراء بوجهها الذئبى وقُرطها الذهبىّ الكبير المعلّق فى أذنيها ووشاحها القرمزى المعصوب حول شعرها الأسود المموّج وسُترتها البنيّة المُخمليّة المحكمة وإزارها الأخضر الفضفاض . أحبّت يديها السمراوين القويتين الصلبتين اللتين ضغطتا بقوة كمخالب الذئب على راحتها اللينة الناعمة . أحبتها . أحبّتْ خَطرها وأحبّتْ جُرأتَها الكامنة . أحبّتْ جنسَها الخفىّ العنيد الذى كان على الرغم من « لاخلقيته » يتحلّى بكبرياء عنيدة متحدية . فلا تستطيع قوةٌ أن تُخضعَ تلك المرأة . إنها خليقة بأن تحتقر الأبرشية وأخلاقيات الأبرشية احتقاراً مطلقاً ! وهى

خليقة بأن تخنُق الجدة بيد واحدة . وخليقةٌ أيضًا بأن تحتقر رجالاً كأبيها القس وعمها « فرد » احتقارها « لروفر » كلب نيوفوندلاند الهَرِم البدين ذى الرؤالة . إنه احتقارٌ أنثوى عميق ساخر لتلك الكلاب المستأنسة التى تُسمى نفسها رجالا .

أما الرجل الغجرى نفسه ! وهنا ارتعدت إيڤيت فجأة وكأنها تمثلت عينيه النجلاوين الجريئتين مركَّزتين عليها وقد ارتسم فيهما إيعازٌ سافر بالرغبة . وقد جعلها ذلك الإيعازُ السافر الصارخ بالرغبة ، ترقد فى فراشها مستسلمة فاقدة القوى وكأن مُخَدِّراً قد صبَّها فى قالب جديد مصهور .

لم تعترف إيڤيت لأحد قط بأنها تبرعت للمرأة الغجرية بجنيهين من صندوق النافذة المشئوم . ماذا يحدث لو علم أبوها والعمة سيسى بذلك وتقلَّبتْ إيڤيت متلذِّذةً فى فراشها . فقد أطلقت ذكرى الرجل الغجرى الحياة فى أطرافها وَبلْورتْ فى قلبها كراهيَّتَها للأبرشية ولم تعد عندئذ تحس بالعُنَّة والعجز بل بالقدرة والنشاط .

وعند ما روت إيڤيت بعد ذلك للوسيل الفاصل التمثيلى الذى لعبته العمة سيسى عند مدخل غرفة نومها غَضِبتْ لوسيل وصاحت قائلةً :

ــ عليها اللعنة ! بوسعها الآن أن تنسى هذا الموضوع فأظننا قد سمعنا عنه ما يكفى ! ياللسماء ! إنه ليُخيَّل لك وكأن العمة سيسى طائر من الجنة بلغ حدَّ الكمال ! فقد نسى أبى الموضوع وهو من شأنه

هو قبل كل شيء إن كان لأحد أن يهتم به . فلتخرس إذن العمة سيسى .

وفى الواقع أن القس بنسيانه ذلك الموضوع وعودته إلى معاملة إيڤيت ذات الشخصية الغامضة غير المبالية وكأنها مخلوقٌ ذو حقوق خاصة هو الذى جعل مرارة العمة سيسى لاتفتأ تنضح بصفراء الحقد . فقد كان مما يوشك أن يدفعها إلى الجنون أن إيڤيت كانت لاتُحس بمشاعر غيرها من الناس فى معظم الأحيان، وبالتالى فإنها كانت لاتهتم بهم. فلماذا ينبغى أن تعيش تلك المخلوقة الصغيرة التى وُلِدتْ لأم آثمة مميزةً عن غيرها دون أن تحس بوجود الآخرين حتى ولو كانوا تحت بصرها ؟

وحينئذ كانت لوسيل سريعة الانفعال حتى بدت وكأنها قد فقدت توازنها إلى حد ما منذ دخولها الأبرشية . ياللمسكينة ! فلشدّ مازاد تفكيرُها ومسئوليتُها ! كانت تتحمل جميعَ الأعباء الإضافية من تفكير فى الأطباء والدواء والخدم وما إلى ذلك من أمور . كما كانت تكدحُ بإخلاص طيلة النهار فى عملها فى المدينة حيث تعمل فى غرفة مضاءة بنور صناعى منذ العاشرة صباحاً حتى الخامسة مساء . ثم تعود إلى المنزل حيث تتوتّر أعصابها إلى ما يقرب من الجنون من جرّاء فضول جدّتها المُلِحّ الرهيب وشيخوختها المتطفّلة .

كان من الواضح أن العاصفة التى أثيرت حول صندوق النافذة قد هدأت، ولكن الجو ما زال خانقاً متوتراً . وظل الطقس رديئاً. فكانت لوسيل تُلازم الدار فى أصيل عطلة نصف اليوم ولم تكن تستغله فيما

يعود عليها بالخير . وذات يوم كان القس فى غرفة مكتبه وكانت لوسيل تعاون إيڤيت فى صنع ثوب لها . أما الجدة فكانت تأخذ نصيبها من الراحة على إحدى الأرائك .

وكان الثوب من المخمَّل الحريرى الأزرق وهو قماشٌ فرنسى يُلائم إيڤيت للغاية . وقد أعادت لوسيل قياسَه على شقيقتها إيڤيت فلشدَّ ما ضايقها عدم انسيابه أسفل الذراعين .

فصاحت إيڤيت وهى تمدَّ ذراعيها الطويلتين الرقيقتين الطفْلتين اللتين مال لونهما إلى الزرقة من شدة البرد .

— « لاتُبالى بذلك فلشدَّ ماتُدققين يالوسيل ! إن الثوب لاعيب فيه مطلقاً .

— إن كان هذا هو كل ما أجنيه من تقدير بعد ما بذلتُه من جَهْد مُضن فى ساعات فراغى لأصنع لك ثيابك ، فالأجدر بى إذن أن أصنع شيئاً لنفسى !

فقالت إيڤيت بصراحتها المعهودة التى تثير الأعصاب وهى ترفع مرفقيها العاريين لتتفرَّس فى المرآة الطويلة من فوق كتفها :

— أنت تعلمين يالوسيل أننى لم أطلب إليك ذلك مطلقاً ! كما تعلمين أنه لايسعك إلا أن تُشرفى على حياكته .

فصاحت لوسيل قائلة :

— حقّاً ! لم تطلبى إلىّ ذلك مطلقاً ! وكأنى لم أفطن إلى غرضك

عندما بدأت تتنهّدين وتتململين .

فقالت إيڤيت فى دهشة غامضة :

ــ أنا ؟ متى تنهّدتُ وتململتُ ؟

ــ لاشك أنك تعرفين ذلك .

ــ أنا ؟ لا . لا أعرف ذلك ! متى حدث هذا ؟

وكانت إيڤيت يمكنها أن تبُشَّ فى أسئلتها الشاردة الرقيقة نغمةً خاصة تبعث على الضيق .

فقالت لوسيل بصوتها الغاضب المُدوِّى إلى حد ما :

ــ لن أضع يدى فى هذا الثوب حتى تقفى فى سكون وتمسكى عن الكلام .

فقالت إيڤيت وكأنها تقف على جَمْر النار .

ــ ما أسوأ طبعَك وأسرع غضَبك يالوسيل !

فصاحت لوسيل فى وجه أختها وقد أومضت عيناها فجأةً ببريق الغضب قائلةً :

ــ والآن ياإيڤيت ! اصمُتى فى الحال ! فلماذا يُفرض علينا جميعًا أن نتحمل مِزاجَك المستبِدّ اللعين ؟

فقالت إيڤيت وهى تتلوَّى فى بطء لتخلع ثوبها الذى لم يتمّ صنعُه بعد وتعود إلى ارتداء ثوبها القديم :

ــ أنا لاأدرى شيئًا عن مزاجى .

ثم عاودت الجلوس إلى المائدة فى ذلك المساء المعتم . وقد بدا على وجهها عنادٌ صبيانىٌّ ثم أخذت تحيك القماش الأزرق . وقد تناثرت فى الغرفة قصاصاتٌ زرقاء وألقى المقص على الأرض وأُفْرِغَتْ السلة من أدوات الحياكة التى انتثرت فى فوضى على المنضدة كما وُضِعَتْ على حافة البيان مرآة أخرى كانت مهددةً بالسقوط .

أما الجدة التى استغرقت على الأريكة الكبيرة الوثيرة فى شبه غيبوبة أسْمَتْها « إغفاءة » فقد استيقظتْ وارتدتْ قبعتها على الفور .

ثم قالت فى بطء وهى تتحسَّس شعرها الأبيض النحيل لتتحقق من تنسيقه :

— إنى لاأجد الهدوء لأغفو .

فقد بلغت سمعها أصوات غامضة .

ثم جاءت العمة سيسى وهى تبحث فى حقيبة عن قطعةٍ من الشيكولاتة قائلة :

— لم أرَ فى حياتى مثل هذه الفوضى ! يحسُنُ بك يا إيڤيت أن تجمعى بعض هذه القصاصات .

فقالت إيڤيت :

— حسنًا . بعد دقيقة واحدة .

فسخرت منها العمة سيسى وهى تندفع فجأةً لتلتقط المقص قائلةً :

— أى أبداً !

وساد الصمتُ لحظات قليلة ثم دفعت لوسيل بيديها فى بطء خلال شعرها وهى تقرأ فى كتاب .

فألحَّتْ العمة سيسى قائلةً :

ــ يحُسنُ بك أن تزيلى كل شىء يا إيڤيت .

فأجابت إيڤيت وهى تنهض مرة أخرى لترتدى الثوب الأزرق من فوق رأسها هازّةً ذراعيها الطويلتين من خلال فتحتى الثوب . ثم ذهبت لتقف بين المرآتين متأملة نفسها مرة أخرى .

وفيما هى تفعل ذلك إذا بها تدفع المرآة الأخرى التى كان وضعها على البيان مهدَّداً بالسقوط فتنزلق على الأرض فى دَوىّ إلى حد ما ، ولكنها لم تتحطَّم لحسن الحظ غير أن الجميع جفلوا مذعورين .

فهتفتْ العمة سيسى قائلةً :

ــ لقد هشَّمتَ المرآة !

فانبعث صوتُ الجدة الحاد قائلاً :

ــ هشمت المرآة ! أية مرآة ! ومن الذى هشَّمَها ؟

فقالت إيڤيت فى هدوء :

ــ أنا لم أهشم شيئًا ، فالمرآة لم تُمس بسوء .

فقالت لوسيل :

ــ يحُسنُ بك ألا تضعيها هناك مرة أخرى .

وحاولت إيڤيت أن تضع المرآة فى مكان آخر وهى تهزُّ كتفيها

هِزَّة خفيفة مُعبرةً عن ضيقها بكل تلك الضجة . ولكنها لم تنجح فى ذلك .

ثم قالت فى غضب :

— لو كانت فى غرفتى نار للتدفئة لما لَزِمَ أن يضجَّ من حولى جمعٌ من الناس عندما أرغب فى الحياكة .

فسألتها الجدة قائلة :

— أية مرآة هذه التى تُحركينها هنا وهناك ؟

فقالت إيڤيت فى وقاحة :

— إحدى مرايانا التى نُقلتْ من الأبرشية .

فقالت الجدة :

— لاتكسريها فى هذه الدار مهما كان مصدرُها .

وكانت الأسرة تكره ذلك الأثاث الذى يخصُّ « المرأة التى تُدعى سنثيا » . فأودعَ معظمهُ المطبخَ وغرفَ الخدم .

فقالت إيڤيت :

— أنا لا أومن بخرافات المرايا وما إلى ذلك .

فقالت الجدة :

— « ربَّما كنت لا تؤمنين بذلك . فمن لا يتحمَّل مسئولية أعماله لا يعبأ عادةً بما يحدث .

فقالت إيڤيت :

ـــ لعلى أستطيع أن أقول إنها مرآتى الخاصة قبل كل شىء حتى لو هشَّمتُها فعلاً .

فقالت الجدة :

ـــ وأنا أقول إن هذه الدار لن تُكسر فيها المرايا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً بغض النظر عمن تخصُّه أو كانت تخصُّه . سيسى . هل استقام وَضْعُ قبعتى ؟

فاتجهت إليها العمة سيسى وعدّلتْ من وضع قبعتها . على حين أخذت إيڤيت تترنَّم فى صوتٍ عالٍ مثيرٍ بلحنٍ ناشزٍ .

فقالت العمة سيسى :

ـــ والآن هل تسمحين يا إيڤيت بتنظيف المكان ؟

فصاحت إيڤيت قائلةً فى غضب :

ـــ أف ! يا للإزعاج ! لشدَّ ما يُضجرُنى أن أعيش مع قوم لا ينقطع ضجيجُهم وعجيجُهم لأتفه الأسباب .

فقالت العمة سيسى فى صوتٍ مُنذر بالشر :

ـــ هل لى أن أسأل من تقصدين ؟

وأنذر الجو بنشوب شجار آخر . ورفعت لوسيل رأسها وفى عينيها شَزَرٌ غريب . لقد غلى فى عروق الفتاتين دُم « المرأة التى تُدعى سنثيا » .

فقالت إيڤيت المُحنَقة :

ـ طبعًا لك أن تسألى ! إنك تعلمين جيداً أنى أقصد أهل هذا المنزل اللعين .

فقالت الجدة :

ـ حسبنا على الأقل أننا من أصلٍ لا يتنصَّفه الفساد .

فساد الصمت المكهرب لحظة . ثم قفزت لوسيل من مقعدها الخفيض وكان الشررُ يتطاير من عينيها . وهتفت قائلة وهى تصبُّ جامَ غضبها على رأس المرأة العجوز ذات الجلال المبرقش :

ـ اخرسى !

فأخذ صدرُ المرأة العجوز يضطرب جياشًا بعواطف لا يعلم بها إلا الله . وساد الصمت ولكنه كان عندئذٍ بارداً كالثلج كذلك الذى يعقُبُ الصاعقة .

وهجمت العمة سيسى على لوسيل وهى ممتقعةُ الوجه وراحت تدفعها فى عنفٍ وغضب قائلةً بصوت أجشّ :

ـ اذهبى إلى غرفتك ! اذهبى إلى غرفتك !

ولم تفتأ تدفع لوسيل إلى خارج الغرفة ، وقد ابيضّ وجهُها واتقدت عيناها، فانقادت لها لوسيل فى حين راحت العمة سيسى تصرخ فيها قائلة :

— الزمى غرفتك حتى تعتذرى عن ذلك ! تعتذرى « للأم » عن ذلك !

فسُمِعتْ لوسيل فى الممر حيث كانت العمة سيسى لا تفتأ تدفعها وهى تقول بصوت واضح النبرات :

— لن أعتذر !

فراحت العمة سيسى تدفعها إلى أعلى الدرج فى مزيد من الجنون .

ووقفت إيڤيت فى غرفة الجلوس بقامتها المديدة وهى مذهولة وقد بدت على مظهرها الإساءة التى لَحِقتْ بكرامتها ولكنها كانت مذهولة فى نفس الوقت مما أضفى عليها تعبيراً غريباً للغاية . كانت ذراعاها لاتزالان عاريتين فى ثوبها الأزرق الذى لم يتمّ صنعُه بعد . وقد أفزعها هى أيضًا إلى حد ما تطاولُ لوسيل على جلال المشيب . ولكنها أحسّتْ كذلك بغضب هادئ لما ارتكبته الجدة من قَذْفٍ فى دم الأمومة الذى يجرى فى عروقهما .

قالت الجدة :

— لا شك أننى لم أقصد إساءة .

فقالت إيڤيت فى فتور :

— حقًّا ؟

— طبعًا لا — لم أزِدْ على قولى إننا إن تشاءمنا من كَسْرِ المرايا فلا يعنى ذلك أننا فاسدون .

وكاد يتعذَّر على إيڤيت أن تُصدق أذنيها . ألم تخطئ السمع ؟ أكان ذلك ممكنًا ! أم أن الجدة وهى فى مثل هذه السن تكذب فى صفاقة ؟

أدركت إيڤيت أن العجوز تكذب فى صفاقة وبرود . ولكنها سُرعان ما صدَّقتْ روايتها المكذوبة .

ثم ظهر القسُّ الذى كانت لديه فُسحَةٌ من الوقت للراحة . فسأل قائلاً فى بهجة وحذر :

— ماخطبُكن ؟

فقالت إيڤيت فى بطء :

— لاشىء ! لقد أمرتْ لوسيل الجدَّةَ بالصمت وهى تقول شيئًا ما . . . فقادتها العمة سيسى إلى غرفتها ! إنها زوبعةٌ فى فنجان ! ولكن لوسيل تجاوزت الحدّ قليلاً فى هذه المرة .

ولم تستطع العجوز أن تسمع ما قالته إيڤيت .

فقالت :

— يجب أن تتعلم لوسيل فى الحقيقة كيف تتحكَّم فى أعصابها . سقطت المرآة فانزعجتُ . وقلتُ ذلك لإيڤيت . فعلَّقَتْ بكلام عن الخرافات وأهل هذا المنزل اللعين . فقلتُ لها إنْ كان أهل هذا المنزل يكترثون لكسر المرايا فلا يعنى ذلك أنهم فاسدون . وعندئذ صرختْ فىّ لوسيل وأمرتنى بالصمت . إنه لمن المخجل حقًّا أن يفقد هؤلاء الأطفال

السيطرة على أعصابهم . فأنا أعلم أن الأمر كله لا يعدو أن يكون كذلك .

وجاءت العمة سيسى أثناء ذلك الحديث فانعقد لسانُها فى أول الأمر ثم بدا لها بعد ذلك أن الجدَّة لم تذكر سوى الحقيقة .

ثم قالت :

— لقد حظَرْتُ عليها مغادرة غرفتها حتى تقدم اعتذارها إلى الأم .

فقالت إيڤيت فى هدوء وترفُّع وهى قابضة على ذراعيها العاريتين :

— يُساورنى الشك فى أنها ستعتذر .

فقالت العجوز :

— وأنا لا أريد اعتذاراً . فهو انفعالٌ فحسب . لست أدرى مصير هؤلاء الفتيات إن كانت أعصابُهن الآن على هذه الصورة ! يجب أن تتعاطى لوسيل مقوياً كالڤيبروفات . أعتقد ياسيسى أن آرثر يريد أن يتناول الشاى .

وجمعت إيڤيت قُصاصاتها وأدوات الحياكة لتصعد بها إلى غرفتها . ثم عادت تترنم بلحنها فى حِدَّة ونشاز إلى حد ما . ولكنها كانت ترتجف فى أعماق نفسها .

فقال لها أبوها فى مرح :

— أتصنعين مزيداً من الثياب ؟ !

فردَّدتْ عليه قائلةً فى حكمة وهى تتبختر صاعدةً الدرج وقد وضعت ثوبها على إحدى ذارعيها :

— نعم مزيداً من الثياب !

كانت تريد أن تُخفِّف عن لوسيل وتسألها كيف كان يبدو عندئذ انسياب الثوب الأزرق .

وتوقَّفتْ عند أول بسطة فى الدرج كما كانت تفعل فى معظم الأحيان لتُحدِّق خلال النافذة المُطلَّة على الطريق والجسر . فقد كان يبدو أنها لاتفتأ تتخيَّل أن شخصاً ما سوف يُقبل نحوها بحذاء النهر مُنشِداً تيراليرا ! أو شيئاً لا يقلُّ حكمةً عن ذلك شأنُها فى هذا شأن الليدى أوف شالوت .

٥

أشرفت الساعة على موعد الشاى . وكانت زهور الثلج تنمو بالقرب من ممر الحديقة القصير الممتد من جانب الدار إلى البوابة ، وهناك على الحشائش الرطبة المنحدرة نحو النهر كان البستانى يعمل متباطئاً فى أحواض الزهور الدائرية المبتلة . وفيما وراء البوابة امتدَّ الطريق الأبيض الموحَّل الذى لا يلبث أن يعبر الجسر الحجرى مباشرة ثم يلتف إلى أعلى نحو القرية الشمالية الحجرية الوعرة التى تعلو المصانع الحجرية القاتمة بمنازلها المتراصة ودخانها المتصاعد . وكانت إيفيت تراها فى الوادى الضيق

أمامها وقد امتدَّتْ مداخنُها طويلةً مستقيمة .

وكانت الأبرشية تستبطِنُ الوادى الوَعْر على أحد جانبى نهر پاپل . أما القرية فكانت تقوم عن بُعد فى أعلى التل فيما وراء الأبرشية على الجانب الآخر من النهر السريع . ومن خلف الأبرشية كان التل يرتفع فى وعورة تكسوه غابةٌ صغيرة قاتمة من أشجار اللاريس العارية التى يختفى خلالها الطريق . وفى مواجهة الدار مباشرة من ناحية الأبرشية كانت ضفة النهر ترتفع وعرةً شجراء إلى أن تبلغ المراعى الجرداء المنحدرة التى ترتفع بدورها تدريجيًّا على جوانب التل الشَّجيرة التى تتخلَّلها صخورٌ رمادية ناتئة .

ولكن إيڤيت كانت لاتستطيع من طرف الدار إلا أن ترى الطريق فيما وراء الحائط المُسوَّر بالغار وهو يلتفُّ نحو الجسر ثم يعود فيرتفع ملتفًّا حول كتف التل نحو المجموعة الأولى من المنازل الصَّلْدة فى قرية پاپلويك فيما وراء الأسوار الحجرية الجافة المحيطة بالحقول الوعرة .

كانت لاتفتأ تتوقع أن ترى شيئًا مُقبِلاً نحوها فى طريق پاپلويك المنحنى ، ولذلك كانت لاتفتأ تتلكأ عند بسطة النافذة . وغالبًا ما كانت تأتى عربةٌ أو سيارة أو لورى محمل بالأحجار أو عامل أو أحد الخدم . ولكن لم يظهر لها قط شخصٌ يُنشِدُ تيررا ليررا ! بحذاء النهر حتى خيل إليها أن هذه الأيام قد ولت ولن تعود .

ومع ذلك ظهر يومئذ عند منحنى الطريق الأبيض المائل إلى اللون الرمادى حصانٌ أسمر يخْطِرُ فى شجاعة ونشاط هابطاً التل فيما

بين الحشائش والأسوار الحجرية الخفيضة يقوده رجل مقلّس يعتلى مُقَدَّمَ العربة الخفيفة . وكان الرجل يتمايل مسترخياً مع اهتزازات العربة فى حين يخُطرُ الحصانُ هابطًا التل فى غَسَق المساء الساكن . وكانت تبرز من مؤخّر العربة مكانُس طويلة من الغاب والريش مالت رءوسُها على أعوادها .

واقتربت إيڤيت من النافذة واضعةً الستائر خلف ظهرها وهى تقبضُ بقوة على عَضُديها العاريين .

وعند أسفل المنحدر أخذ الحصان يَجِدُّ فى خَطْوِه النشيط نحو الجسر الذى جَلْجلَتْ فوقه العربة واهتزَّتْ المكانسُ مختلطةً على حين ظل السائق يتمايل وكأنه فى حُلم . كان المنظر أشبه بالرؤيا التى يراها النائم .

ولكنه ما إن عبر الجسر وأخذ يسير بمحاذاة سور الأبرشية حتى رفع بصره إلى المنزل الحجرى القاتم الذى بدا كأنه قد ارتدّ بعيداً عن البوابة عند أسفل التل . وحرَّكَتْ إيڤيت يديها بسرعة على ذراعيها . وبنفس السرعة لمَحَها الرجلُ من تحت هامة قَلَنْسُوته . وكان وجهُه الأسمر الضارى يقظًا متنبهًا .

وإذا به يوقف العربة عند البوابة البيضاء وهو لا يزال شاخصًا ببصره إلى أعلى نحو نافذة البسطة على حين ظلت إيڤيت قابضة على ذراعيها الباردتين المرقّطتين تحدق فيه من النافذة وهى شاردة الذهن .

أشار إليها برأسه فى حركة دقيقة سريعة وقاد حصانه إلى جانب

الطريق فوق الحشائش . ثم كشف الغطاء المشمّع عن العربة فى لدونة ويقظة واختار بعض الأدوات ثم جذب مكنستين طويلتين أو ثلاثًا من الغاب أو الريش وغطّى العربة مرة أخرى . واتجه نحو الدار متطلعًا إلى إيڤيت وهو يفتح البوابة البيضاء .

فأومأت إليه برأسها واندفعت إلى غرفة الحمام لترتدى ثوبها مؤملة أن تكون إيماءتُها قد خفيتْ عليه حتى لايتأكّد من أنها فعلت ذلك . وفى تلك الأثناء سمعت روڤر الأحمق المُسِنّ وهو يزأر بصوت أجشّ عميق يتخلّله نُباحُ تريكسى الأبله الصغير .

وقد وصلت إلى باب غرفة الجلوس فى نفس اللحظة التى جاءت فيها الخادم .

فقالت إيڤيت للخادم :

— هل هو الرجل الذى يبيع المكانس ؟ حسنًا !

ثم فتحت الباب وهى تقول :

— هناك رجلٌ يبيع المكانس ياعمتى . فهل أفتح له الباب ؟

فقالت العمة سيسى التى كانت تجالس مع القس والأم إلى مائدة الشاى . وقد استُبعِدتْ الفتاتان من تلك الوجبة على سبيل التغيير :

— أى نوع من الرجال هو ؟

فقالت إيڤيت :

— رجلٌ يقود عربة .

فقالت الخادم :

— إنه من الغجر .

فكان من الطبيعى أن تنهض العمة سيسى فى الحال إذ أنها لابد أن تراه .

كان الرجل الغجرى يقف عند الباب الخلفى أسفل الضفة الوَعْرة القاتمة التى تنمو فيها أشجارُ اللاريس . وقد بدت المكانسُ واضحةً فى إحدى يديه على حين تدلَّتْ من يده الأخرى أدواتٌ مختلفة من النحاس الأحمر والأصفر اللامع : مقلاة وشمعدان وصحاف من النحاس المطروق . وكان الرجلُ نفسُه أنيقًا يكاد يبدو خليعًا فى قَلَنْسُوته الخضراء القاتمة وسُترته الخضراء ذات الصفين المكسُوَّة بالمربَّعات . ولكنه لشدّ ما كان رقيقاً هادئاً متكبراً فى نفس الوقت يحدوه شىءٌ من الترفُّع والتنازل .

قال وهو ينظر إلى العمة سيسى بعينين سوداوين فاحصتين فَطِنتين وقد بثَّ فى صوته رقةً هادئة للغاية :

— هل تطلُبين شيئًا اليوم يا سيدتى ؟

فرأت العمة سيسى كم كان وسيمًا وقد تقوَّسَتْ شفتاه فى ليونة أسفل خط شاربه الأسود حتى اعتراها الاضطراب لرؤيته . . وكان أقلُّ أثرٍ للخشونة أو التهجُّم من جانبه كفيلاً بأن يجعلها تُغلق الباب فى وجهه باحتقار . ولكنه استطاع أن يبُثَّ فى مظهره الذكورىّ إيحاءً هينًا دقيقًا بالخضوع جعلها تتردَّد .

قالت إيڤيت :

— ما أجمل الشمعدان ! هل صنعته أنت ؟

وتطلَّعتْ إلى الرجل بعينيها الطِّفلتين الساذجتين اللتين كانتا كعينيه قادرتين على التعبير المزدوج .

— نعم يا سيدتى !

ثم نظر إلى عينيها لحظةً وفى عينيه ذلك الإيحاءُ السافرُ بالرغبة الذى كان يبدو وكأنه يسحَرُها ويسلِبُها إرادتَها . وبدا وجهُها الرقيق وكأنه فى سُبات .

فتمتمت قائلةً فى غموض : « ما أجمله ! »

وبدأت العمة سيسى تسومُه الشمعدان : كان يتألَّف من ساقٍ نحاسية قصيرة سميكة تقوم فى كأسٍ كبيرة مزدوجة . وراح الرجل يصغى إليها فى أناة وترفُّع دون أن ينظر مطلقًا إلى إيڤيت التى استندتْ إلى الباب وهى تراقبه فى تأمُّلٍ وتفكير .

وعندما دخلت العمة سيسى لتعرض الشمعدان على القس وتسأله رأيه فيما إذا كان يستحق الشراء إذا بإيڤيت تسأله قائلةً :

— كيف حالُ زوجتك ؟

فحدَّجها الرجل بملء عينيه وقد تغضَّنَتْ شفتاه بابتسامة لاتكاد تظهر للعيان ولكنها لم ترتسم فى عينيه بل اشتدَّ فيهما الإيحاء حتى صار بريقًا وحشيًّا .

فتمتم قائلاً بصوت أليف خافت مُدغدغ :

— بخير . ومتى تأتين من تلك الطريق مرة أخرى ؟

فقالت إيڤيت فى غموض :

— لستُ أدرى .

قال :

— أقبلى فى أحد أيام الجُمَع حينما أكون هناك .

فحملقتْ إيڤيت من فوق كتفه وكأنها لم تسمعه . وعادت العمة سيسى بالشمعدان والنقود لتدفع له ثمنه . فاستدارت إيڤيت فى غير اكتراث وهى تترنَّم بأحد ألحانها المتقطعة متخليةً عن الأمر كله . فى شىءٍ من الجفاء .

ومع ذلك وقفت عند نافذة البسطة متخفِّيةً فى هذه المرة لتراقب الرجل عند رحيله . فقد كانت تريد أن تعرف إن كان ذلك الرجل يسيطر عليها حقًّا . ولم تقصد عندئذ أن تَلفِتَ نظره إليها .

رأته وهو يهبط إلى البوابة حاملاً مكانسه وأوانيه ومتجهًا إلى عربته حيث دسَّها بعناية مثبِّتًا عليها غطاء المشمَّع. وما هى إلا وثبةٌ بطيئةٌ لا جَهْدَ فيها من خاصرتيه المرنتين حتى اعتلى العربة من جديد . وما كاد يلمس الحصان الأسمر بالعنان حتى انطلق يجرى فى الحال فى حين راحت عجلاتُ العربة تطحن الطريق إلى أعلى التل وما لبث الرجل أن اختفى دون أن ينظر خلفه . اختفى كالحُلم الذى لم يكن سوى حلم ولكنها مع ذلك

لم تستطع أن تتخلّص منه .

قالت محدثة نفسها وقد خاب رجاؤها حقًّا إلى حد ما لأنها كانت ترغب فى الخضوع لسيطرة شخصٍ ما أو شيءٍ ما : « كلا! لاسيطرة له علىّ مطلقًا ! »

ثم ذهبت لتناقش لوسيل المُجهَدة الشاحبة فى الأمر وتلومها على إثارتها زوبعةً فى فنجان . قالت لها معاتبةً : « وماذا يهمُّ لو أمرتِ الجدَّة بأن تلزم الصمت ! فينبغى أن يُنهَى كلُّ شخص عن الكلام إذا ما أغلظ القول . ولكنها لم تقصد ذلك كما تعلمين . كلا لم تقصد ذلك . كما أنها لشدّ ما تشعر بالأسف لما قالته . ولا سبَب هناك مطلقًا لإثارة ضجّة . هَلُمّى فلنتزيَّ بأبهى ثيابنا ولنتهادَ إلى أسفل كالدوقات لتناول العشاء . فلنثأر لأنفسنا عن هذا الطريق . هيا يالوسيل ! »

كانت بشاشةُ إيڤيت الغامضة ومجانبتها الكَدَر على صورة شاذة مبهمة تتميزان بشىءٍ غريبٍ مُحيِّر يُشبِه إحاطة الوجه بنسيج العنكبوت . كما كان ذلك يُشيع البهجة والسرور ، ولكنه أشبه بالسير خلال ضباب الخريف عندما تهبُّ على وجهك جدائلُ من خيوط العنكبوت الهائمة فى الهواء . فلا تدرى تمامًا أين تسير .

ومع ذلك نجَحتْ فى إقناع لوسيل ؛ وأخرجت الفتاتان أبهى ثيابهما . فارتدت لوسيل ثوبًا يتألّف من اللونين الأخضر والأبيض الفضى

واتَّشحَتْ إيڤيت بثوب بنفسجيّ باهت تحلّى بخيرط حريرية فى لون الفيروز . ووضعت كلتاهما قليلاً من أحمر الشفاه ومساحيق الوجه كما انتعلتا أجملَ خِفافِهما . عندئذٍ أخذت رياضُ الفردوس تتفتح . وهمهمتْ إيڤيت وهى تنظر إلى نفسها وقد حاكت المركيزات الصغيرات فيما اكتستْ به من مظهرٍ أشد ما يكون ارتياحاً وانطلاقاً . فقد مال حاجباها وزُمَّتْ شفتاها على صورة غريبة . كما بدت للعيان منفصلةً عن كل اعتبار دُنيويّ ومحلِّقةً فى سحابة نسجَتْها من ذخيرتها ذات الألوان اللؤلئية . كان ذلك مُسلِّيا ولكنه لم يكن مُقنِعاً .

قالت فى أدب ورقَّة : « لا شك أننى جميلة يالوسيل . وما أروعَ حُسْنَكَ الآن وقد بدت عليك تلك النظرة المعاتبة . فلا شك أنك بأنفك هذا تفوقينى أرستقراطيةً ! كما أن العتاب الذى يبدو الآن فى عينيك يُضفى عليك مظهراً جذاباً . فما أروعَ حُسنَك ! ما أروَع حُسنَك ! ولكن ألا توافقيننى على أننى أفوقك جاذبيةً إلى حد ما ؟ » ثم استدارت نحو لوسيل فى بساطة ماكرة مُعقَّدة .

لشدَّ ماكانت ساذجَة بسيطة فيما قالته . فقد عبَّرتْ تماماً عما يدور بخلَدها . ولكنها لم تُشِرْ قط إلى إحساسها الذى كان يشغلُها أيضاً وما أشدَّ اختلافَه ؛ إحساسِها بأنها قد استُطلعت لا من الخارج بل من الداخل — من داخل ذاتها الأنثوية الخفية . كانت ترتدى أبهى ثيابها وتتجلَّى فى أروع مظاهرها لا لسببٍ إلا لتقاوم ما أحدثه فيها

الغجرى من تأثير عندما نظر إليها ولم يرَ شيئاً من قسامة وجهها أو جمال أسلوبها — لم يرَ فيها سوى سِرِّ عُذْرَتِها الغامض القوىّ المختلج .

وما إن دقّ ناقوسُ العشاء حتى أخذت الفتاتان تهبطان الدرج فى كامل أبَّهتهما ولكنهما تريَّثتا حتى بلغت سمعهما أصواتُ الرجال . ثم تهادتا إلى الطابق السفلى حيث دخلتا غرفة الجلوس ، وقد راحت إيڤيت تُعدِّل من مظهرها بطريقتها المرحة الغامضة دون أن يفارقها ذهولُها . أما لوسيل فكانت خَجولاً تجيش الدموعُ فى مآقيها .

فهتفت العمة سيسى التى كانت لاتزال ترتدى سُتْرتها البنية الداكنة المنسوجة قائلةً : « ياإلهى ! يالها من رؤيا مفاجئة ! إلى أين تتخيَّلان أنكما ذاهبتان ؟ »

فقالت إيڤيت فى سذاجة : « سنتناول العشاء مع الأسرة . . . ولقد ارتدينا أبهى ملابسنا احتفاءً بهذه المناسبة » .

فضحك القسُّ بصوتٍ عالٍ ، وقال العم فرد : « إنه لشرفٌ عظيم للأسرة » .

كان كلا الكَهْلين على جانب كبير من الشهامة والرقة — وهو ما كانت تنشُدُه إيڤيت .

فقالت الجدَّة :

— أقبلا لأتحسَّس ثيابكما — هيا ! هل هى أجملُها جميعاً ؟ لشدَّ ما يُخجِلنى ألا أستطيع رؤيتها !

فقال العم فرد :

— علينا الليلة ياأماه أن نصحَبَ الآنستين الصغيرتين إلى مائدة العشاء ونقوم نحوهما بواجب الحفاوة . فهل ذهبتِ أنتِ فى صُحبة سيسى ؟

فقالت الجدة :

— بالطبع . فلا بد أن يتمتع الشباب والجمال بالصَّدارة .

فقال القسُّ مسروراً :

— حسناً . الليلة فقط يا أماه !

ثم قدّم ذراعه إلى لوسيل ، وسارت إيڤيت فى صُحبة العم فرد .

ولكن الوجبة كانت مع ذلك ثقيلةً مُملَّة . فقد حاولت لوسيل أن تكون مرحةً أنيسة . ولشدَّ ما كانت إيڤيت ودوداً بطريقتها الغامضة المبهمة . ولكنها لم تفتأ تُسائل نفسها بإبهامٍ فى عقلها الباطن قائلةً : « لماذا لا نعدو أن نكون جميعًا كقطع الأثاث الهامدة ؟ لماذا خلا كل شىء من الأهمية ؟ »

« لماذا خلا كل شىء من الأهمية ؟ » — هذا هو السؤال الذى لم يفتأ يتردَّد فى نفسها ويطفو مراراً فوق سطح وعيها كفُقَّاعةٍ صغيرة حيثما ذهبتْ سواء فى الكنيسة أو فى حفلٍ للشباب أو فى فندق المدينة : « لماذا خلا كل شىء من الأهمية ؟ » .

كان كثيرٌ من الشبان على استعداد لمغازلتها والإخلاص لها فى الحب . ولكنها كانت تُضطر إلى التخلُّص منهم فى ضَجَر ، وهى

تُسائل نفسها قائلة : « ما السرُّ فى تفاهتهم البالغة ؟ — وضيقى الشديد بهم ؟ ! »

بل إن الغجرى نفسه لم يخطُر لها على بال . فقد كان حَدَثًا عارضًا لا يستحق الاهتمام مطلقًا . ومع ذلك كلما قَرُبَ يوم الجمعة لاحت لها أهميتُه على صورة غريبة حتى إنها سألت لوسيل قائلةً : « ماذا نفعل يوم الجمعة ؟ » فأجابتها لوسيل بأنه ليس لديهما ما تفعلانه . وغضبت إيثيت .

وجاء يوم الجمعة وظلت على الرغم منها تفكر طيلة النهار فى المحجر الكائن بعيداً عن الطريق المرتفع عند « بونسول هِدّ » . وأرادت أن تكون هناك . هذا هو كل ما كانت تعيه . أرادت أن تكون هناك . ولكن فكرة الذهاب إلى هناك لم تخطُر لها على بال . وفضلاً عن ذلك عاد المطر يتساقط . ولكنها فى أثناء حياكتها الثوب الأزرق لتنتهى منه قبل الحفل الذى كان مُزمَعًا إقامته فى « لامبلى كلوس » فى اليوم التالى ، أحسَّتْ أن روحها قد انتقلت إلى المحجر لتقيم مع الغجر بين القوافل . لقد فارقَتْ جسدَها أو محارةَ هيكلها فبدت وكأنها ضالةٌ أو سليبةُ الروح . أما جوهرُ كيانها فقد فارقها إلى المحجر حيث أقام .

وفى أثناء الحفل الذى أقيم فى اليوم التالى لم تدْرِ قط أنها كانت تُلاطف ليو وتَرِقُّ له . ولم يخطُر على بالها قط أنها كانت تنتزعه من بين يدى إيلا فريملى المُعذَّبة . كانت لا تعى شيئًا من ذلك حتى

سألها ليووهى تأكل الأيس كريم المحلَّى بالفُستُق قائلاً :

ــ لم لا نعقد خطْبتنا يا إيڤيت ؟ فكلى ثقةٌ أن هذا هو عين الصواب لكلينا .

كان ليو مبتذلاً إلى حدٍّ ما ولكنه رقيقٌ ميسورُ الحال . وكانت إيڤيت تميل إليه حقًّا . ولكن أتُخطب له ! ماأسخفَ هذا ! أحسَّتْ أنها تودُّ لو قدَّمتْ إليه طاقِمًا من ملابسها الداخلية الحريرية ليُخطب إليه .

فقالت متعجِّبَةً : « ولكننى حَسِبْتُك تَنشُدُ إيلا ! »

ــ حسنًا ! لولاك لكان من المحتمل أن يحدث ذلك . إنها فعالُك كما تعلمين ! فمنذ أن قرأ لكِ الطالع هؤلاء الغجر أحسَسْتُ أننى لك دون سواى وأنك لى دون سواك .

فقالت إيڤيت وقد أذهلها الدَّهَش :

ــ حقًّا ! حقًّا !

فسألها قائلاً :

ــ ألم تبادلينى ذلك الإحساس إلى حدٍّ ما ؟

فردّدتْ إيڤيت قائلةً وهى لا تزال تشهق فى هدوء كالسمكة :

ــ حقًّا !

فقال :

ــ ألم تبادلينى ذلك الإحساس إلى حدٍّ ما ؟

فسألته قائلةً وهى تُفيق من دهشتها :

— ماذا ؟ نحو ماذا ؟

— نحوى . كما أُحِسُّ نحوك .

— لماذا ! ماذا ؟ أتعنى خطْبتَنا ؟ أنا ؟ لا ! كيف يمكننى ذلك ؟ ما كان يمكننى مطلقًا أن أحلم بمثل هذا المحال .

أخذت تتكلم بصراحتها المعهودة دون أن تكترثَ مطلقًا لمشاعره . فقال فى شىءٍ من الغضب : « وماذا كان يمنعك من ذلك ؟ حَسِبتُك تفعلين » .

فقالت فى دهشة بصراحتها العَذْرية الهادئة غير المبالغة التى أكسبتها إعجابَ البعض وعداءَ الآخرين : « أهكذا اعتقدت حقًّا ؟ ! »

لشدّما استولت عليها الدهشة حتى إنه لم يجد ما يفعله إلا أن يعبث بأصابعه فى ضيق . وصدَحَتْ الموسيقى فتطلّع إليها ببصره .

فقالت له وهى تجمع شتاتَ نفسها مرسلةً الطرف فى قليل من الترفُّع نحو جَمْع الراقصين وكأنه لا وجود له : « لا ! لن أرقُصَ بعد ذلك » .

وارتسمتْ على جبينها مِسحةٌ من العَجَب الحائر كما أوحى فعلاً وجهُها العذرى الهادئ الغامض بتلك الزهرة الثلجية التى تفتّقَتْ عنها مُخيلةُ أبيها العاطفية .

ثم قالت وهى تستدير نحوه فى تنازُلٍ رقيق : « ولكنك سترقُص

بالطبع . فعليك أن تطلب أحداً لهذه الرقصة » .

فنهض غاضباً وسار عبر الغرفة .

ومكثت هى فى مكانها هادئة مذهولة تَلُفُّها الدهشة . هل يمكن أن يتقدَّم ليوخطبتها ؟ ! كان يمكن كذلك أن يتقدَّم « روڤرْ » كلب نيوفوندلاند الهَرِم لخِطْبتها أو يخطُبَها أىُّ رجلٍ فى الوجود ؟ كلا بحق السماء . لا يمكن أن يتخيَّل الإنسان شيئاً أدعى إلى السخرية من ذلك !

عندئذٍ وَمَضَ فى ذهنها خاطرٌ سريعٌ فأدركت وجود الرجل الغجرى . وتولاها الغضب فى الحال . ذلك الرجل من بين جميع الناس ! ذلك الرجل ! مستحيل !

ثم تساءلتْ مرة أخرى فى دهشة مكبوتة : « والآن لماذا ؟ لماذا ؟ فهذا محال تماماً . . تماماً ! إذن فما السرُّ فى ذلك ؟ »

استعصت عليها تلك المشكلة . فنظرت إلى الراقصين من الشبان ، الذين ارتفعتْ مرافقُهم وبرزتْ أعجازُهم وَضُمرتْ خصورُهم فى رشاقة . ولم يمدّها هؤلاء الشبان بحلٍّ لمشكلتها . ولكنها لشدَّ ما كرِهتْ تلك الرشاقة المفتعلة للخصور والأعجاز البارزة التى تدلَّت فوقها السترات الأنيقة فى خلاعة مخنَّثة .

وحدَّثتْ نفسها فى غضب قائلة : « ثمة شىءٌ فى كيانى لايراه هؤلاء الشبان ولن يروه » . وقد أحستْ فى نفس الوقت بالراحة لعدم

رؤيتهم إياه وقصورهم عنه . فبذلك خلَتْ الحياةُ من التعقيد إلى حد كبير .

ولما كانت إيقيت تحتفظ بوعيها فى رؤاها فقد تراءى لها الرجل الغجرى من جديد بسُترته الخضراء القاتمة المرسلة على سراوياه السوداء وعَجُزه الجميل الحى الذى لايقل يقظةً عن العيون . كان رشيقًا . أما هؤلاء الراقصون فقد بدت رشاقتهم مكتنزة صمّاء، وأعجازُهم لاتعدو أن تكون قد اكتظّتْ لحمًا . وكان ليو على شاكلتهم يخالُ نفسَه راقصًا مرموقًا ويخال قوامَه آيةً فى الكمال !

ثم تراءى لها وجهُ الغجرى ، بأنفه المستقيم وشفتيه الرقيقتين الحساستين ونظرته السويّة المعبرة فى عينيه السوداوين وقد بدت أنها تُصيبُها فى مكانٍ حيوىٍّ لم يُكتشف بعد دون أن تُخطِئَ الهدف .

جمعت شتات نفسها فى غضب . كيف تجاسر ذلك الغجرى على أن يحدجها بمثل هذه النظرات ؟ فشخَصَتْ ببصرها فى غضب إلى هؤلاء الشبان الأغرار التافهين فى حلقة الرقص . واحتقرتهم . لقد ألْفَتْ نفسها تحتقر ذلك الجمع تمامًا كما تحتقر الغجريات أولئك الرجال الذين ليسوا من الغجر ، يحتقرن مشيتهم الشبيهة بمشية الكلاب فى الطرقات . أنّى لهم بذلك التحدّى الرقيق المختلى الموعز الذى يمكن أن يصل إليها . إنها لاتريد أن تعاشر كلبًا أليفًا .

وقد شمّ أنفُها الحسّاس وانسدل شعرُها الكستنائى الناعم مُحيطًا

بوجهها الرقيق إحاطة الكأس بالزهرة وهى جالسةٌ تفكر وتتأمَّل . لشدَّ ما بدت بَتُولاً . كما بدت عليها فى نفس الوقت مِسحةٌ من تلك الساحرة الطويلة الصغيرة البتول التى تخشاها الكلاب الأليفة من الرجال . فربما صارت كائناً غريباً مخيفاً بين غمضة عينٍ وانتباهتها .

لذلك أحسَّتْ بالوحدة برغم كل ما كانت تسمعه من كلمات الغزل . بل ربما زادتها كلماتُ الغزل إحساساً بالوحدة .

وما إن انتهت الرقصة حتى عاد إليها ليو الذى كان أشبه بالكلب الضخم بين الكلاب الأليفة مُستَجْمِعاً شجاعته من جديد !

قال وهو يجلس بجانبها : « ألم تفكرى فى الأمر قليلاً ؟ »

كان شاباً ميسوراً صادقَ العزم موفور الصحة . ولكن إيڤيت كانت تضيق به على صورة غير معقولة دون أن تدرى لذلك سبباً عندما يجذب سراويله عند الركبة من فوق ساقيه اللتين كانتا على تناسقهما لاتلفتان النظر ثم يجلس فى ثقة على أحد المقاعد .

فقالت فى غموض : « أنا ؟ فيم ؟ ! »

فقال : « أنت تعرفين ماذا أعنى فهل استقرّ رأيُك ؟ »

فسألته قائلة فى براءة : « علاَم يستقرُّ رأيى ؟ »

لقد نَسِيتْ الأمر حقاً بوعيها الخارجى .

فقال ليو جاذباً سراويله مرة أخرى : « على خِطْبَتِنا كما تعلمين » .

كان يُشبِهُها تقريباً فى طريقته المرتجلة .

فقالت فى وُدٍّ رقيق وكأنه سؤالٌ عابر من بين عدة أسئلة « هـــذا مستحيلٌ على الإطلاق » .

ثم ردَّدَتْ كلامها كالأطفال قائلةً : « بل إنى لم أعُدْ قط إلى التفكير فيه . لاتُحَدِّثْنى عن هذا الهُراء! فهو أمر مستحيل على الإطلاق» .

فقال وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ غريبةٌ إزاء تأكيدها الشارد الهادئ : « أهذا الأمر مستحيل ؟ . . . حسنًا . إذن فما هو الممكن ؟ أتريدين إذن أن تموتى عانسًا ؟ »

فقالت فى شرود : « لا يُهمُّنى ذلك » .

فقال : « ولكنه يَهُمُّنى » .

فاستدارت نحوه ونظرت إليه فى عَجَبٍ قائلةً :

— « لماذا ؟ ماذا يهمُّك إن كنتُ عانسًا ؟ »

فقال وهو يتطلَّع إليها بابتسامةٍ جريئة محمَّلة بالمعانى التى أراد أن يصرُخ بها وإن لم يُوضِّحْها : « لكل ما فى الوجود من أسباب » .

ولكن ابتسامة ليو الجريئة الواضحة لم تنْفُذ إلى أعماق كيانها الخفيَّة فتصيبها فيها بل ارتطمت كالكرة بظاهر جسدها فحسب وأحدثت أثرها المزعج المباغت .

فقالت فى حقد فاحش : « ما أسخفَ هذا العَرض ! فأنت تكاد أن تكون خطيباً لـ . . . . . »

ولكنها استدركَتْ فى الوقت المناسب وأردفتْ قائلةً : « ربما

لنصف دستة من الفتيات الأخريات . ولا أجد فى عَرْضكَ ما يُرضى كبريائى . وأكره أن يعلم به أحد ! نعم أكره ذلك ! ولن أَنبُسَ بكلمة عنه كما أرجو أن يكون لديك من الحكمة مايمنعك من ذلك .. ها هى ذى إيلا ! »

ثم تهادَتْ بعيداً مُشيحةً عنه بوجهها كالزهرة الرقيقة على غُصنِها الأملود لتنضمَّ إلى إيلا فريملى المسكينة .

وضرب ليو نفسه بقُفَّازه الأبيض .

ثم حدّث نفسه قائلاً : « أيتها الكلبة الصغيرة ! ما أشرسَكِ ! »

ولكنه من ذلك النوع الضخم القوى من الكلاب الذى يستهويه إلى حدٍّ ما أن تَهِرَّ القِطَّةُ الصغيرةُ فى وجهه . فبدأ فعلاً يطاردها .

٦

وفى الأسبوع التالى عاد المطرينهمر بغزارةٍ ، مما أثار غضب إيفيت الغريب . فقد كانت تريده أن يكون صَحْواً . بل أصرَّتْ على أن يكون الجو كذلك وخاصة قرب نهاية الأسبوع . ولكنها لم تسأل نفسها عن السبب !

وحلّ يومُ الخميس وهو عُطلةُ نصف اليوم فطلعت الشمس ونزل

الصقيع . وجاء ليو بسيارته وجماعته . ولكن إيڤيت رفضت فى جفاء أن تذهب معهم دون إبداء الأسباب .

قالت : « لا ، وشكراً . فإنى لا أشعر بالرغبة فى ذلك » .

كانت تجد بعضَ المتعة فى الخروج على الإجماع .

ثم خرجتْ للنزهة وحدها فوق التلال المتجمِّدة حتى بلغت منطقة الصخور السوداء .

وكان اليوم التالى مُشْمِسًا أيضًا يتساقط فيه الصقيع . ومع أن ذلك كان فى شهر فبراير فإن الأرض فى الشمال لا يذوب جليدُها فى الشمس . وأعلنت إيڤيت أنها ذاهبةٌ فى نزهة بالدراجة ومعها غداؤها فربما مكثت فى الخارج حتى المغيب .

وبدأت رحلتها فى غير عجلة . وكانت الشمس على الرغم من الصقيع تعروها مسحةٌ من الربيع . وقد وقفت الغزلان فى ضوء الشمس بعيداً فى المرعى طلباً للدفء على حين سار أحدُ الظِّباء فى بُطء عَبْر المنظر الطبيعى الساكن وكان مُرقَّطًا بالبياض .

وتعذَّر على إيڤيت وهى تقود دراجتها أن تحتفظ بدفء يديها على الرغم من إحساسها بالسخونة الشديدة فى جسدها . لم تشعر بدفء يديها إلا عندما اضطرت للسير على الأقدام فى سكون الريح صاعدةً التل حتى قمته .

ولشدَّ ما كانت الأرض المرتفعة عاريةً واضحةً كعالمٍ آخر .

وصعدت إيڤيت إلى مستوًى آخر من الأرض حيث قادت دراجتها فى بُطء خشية أن تضِلَّ طريقها فى ذلك التيه الشاسع من الأسوار الحجرية. وبينما كانت تسير فى طريقها الذى استَصْوَبته بلغ سمعَها صوتُ طرقاتٍ خافتة ذاتِ رنينٍ معدنىٍّ واهن .

كان الرجل الغجرى ،مفترشًا الأرض وقد استند ظهره إلى ذراع العربة وهو يطرق وعاءً من النحاس . كان جالسًا فى الشمس عاريَ الرأس ولكنه كان مرتدياً سُترتَه الخضراء ومن حوله يتحرك فى هدوء ثلاثة أطفال أخذوا يلعبون فى حظيرة الحصان . أما الحصان والعربة فقد اختفيا عن الأنظار . وثمة عجُوزٌ مَحْنِيَّة عُصِبَ رأسُها بمنديل راحت تطهو الطعـــام على نارٍ وَقُودُها الحَطَب . ولم يكن يُسمع سوى صوت المطرقة الصغيرة التى تتابَعتْ طرقاتُها السريعة المدوية على النحاس .

وتطلَّع الرجل ببصره فى الحال عندما ترجَّلَتْ إيڤيت من فرق دراجتها ولكنه لم يتحرك برغم توقُّفه عن الطَّرْق وقد عَلَتْ وجهه ابتسامة النصر وكانت رقيقةً لا تكاد تُرى . ونظرت العجوزُ خلفها نظرةً حادَّة من تحت شعرها الرمادى القذر . فأسرَّ لها الرجل بكلمة خافتة استدارت على أثرها مرة أخرى نحو النار . وتطلَّع هو إلى إيڤيت .

سألته فى أدب قائلةً : « كيف حالُكم جميعًا ؟ »

فاستدار فى جلسته وجذب مقعداً خفيضًا لإيڤيت من تحت عربة

القافلة قائلاً : « بخير ! هل جلست قليلاً ؟ »

وبينما كانت تقود دراجتها إلى جانب المحجر عاد يطرق الإناء بضرباته السريعة الخفيفة الخاطفة .

وذهبت إيڤيت إلى النار لتُدفئ يديها .

ثم سألت العجوز فى طفولة وهى تمدُّ نحو جَمرات النار يديها الطويلتين الرقيقتين المرقَّشتين بالحمرة من شدة البرد قائلة :

— أتطهين الغداء ؟

فقالت العجوز : « الغداء . نعم ! له وللأطفال » .

وأشارت بشوكة طويلة إلى الأطفال الثلاثة ذوى العيون السوداء الشاخصة، وكانوا يُحدِّقون فيها من تحت أهدابهم السوداء . ولكنهم كانوا يتميَّزون بالنظافة . أما العجوز فهى وحدها التى لم تكن نظيفة . بل إن المحجر نفسه كان آيةً فى النظافة .

وَجثَتْ إيڤيت فى صمت وهى تُدفئ يديها ، فى حين راح الرجل يواصل طرقاته بسرعة تتخلَّلها فتراتٌ من السكون . وصعدت العجوز فى بطء دَرَجَ العربة الثالثة من القافلة وهى أقدمُها عهداً . وبدأ الأطفال يلعبون من جديد فى صمت وانهماك كالحيوانات البرِّية الصغيرة .

وسألته إيڤيت مستديرةً نحوه وهى تنهض من فوق النار قائلةً :

— هل هم أطفالُك ؟

فنظر إلى عينيها وأومأ برأسه .

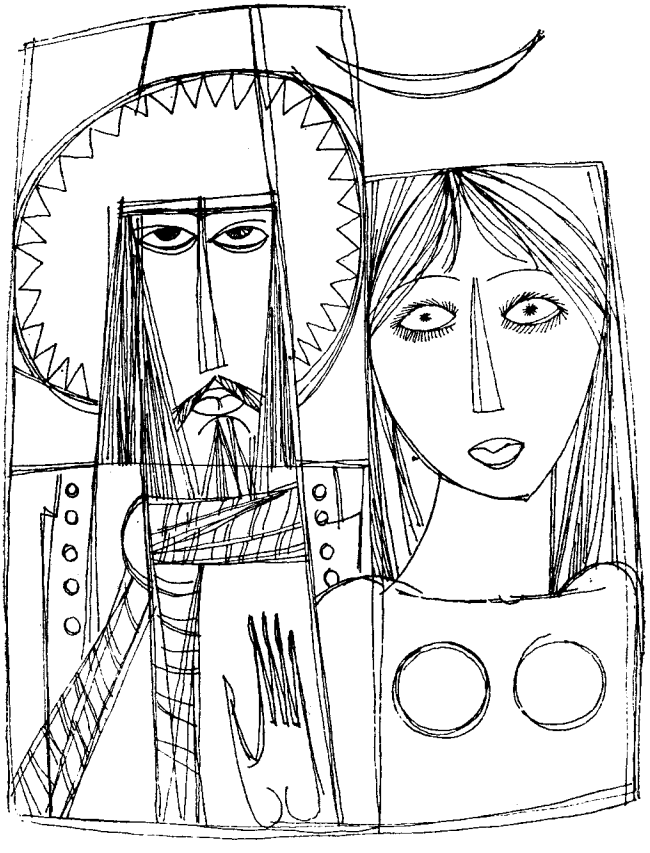

— ولكن أين زوجتك ؟

— خرجت بالسلة . خرجوا جميعاً بقضّهم وقضيضهم لبيع السلع . أما أنا فلا أذهب لذلك . إنى أصنعها فحسب ولكننى لاأذهب لتسويقها . فقلّما أفعل ذلك . قلّما » .

فقالت : « وهل تصنع جميع الأدوات النحاسية ؟ »

فأومأ برأسه ، وقدّم إليها المقعد الخفيض مرة أخرى فجلست .

قالت : « قلت إنك تمكث هنا يوم الجمعة . فجئت من هذا الطريق . إذ أن الجوَّ جميلٌ للغاية » .

فقال الغجرى ، وهو ينظر إلى وجنتها التى لم تزل ممتقعةً إلى حد ما بسبب البرد ، وإلى شعرها الناعم فوق أذنها المحمرَّة ، وإلى يديها الطويلتين فوق ركبتها وكانتا لا تزالان مرقّشتين بالحمرة : « إنه يومٌ جميلٌ حقّاً ! »

ثم سألها قائلاً : « ألا تشعرين بالبرد أثناء ركوبك الدراجة ؟ »

فقالت وهى تقبض يديها فى عصبية : « . . . فى يدىّ ! »

— ألم ترتدى قفازك ؟

— نعم ولكنه لم يُجْدِ كثيراً .

فقال : « أينفذُ منه البرد ؟ »

فردّت قائلةً : « نعم »

وجاءت العجوز فى بطء وهى تهبط درج العربة على صورة غريبة

مضحكة حاملةً بعضَ الصحاف المطلية بالمينا .

صاح قائلاً فى صوت هادئ : — « أطهَوْتِ الغداء ؟ »

فتمتمتْ العجوزُ بشىء ما وهى تضع الصحاف بالقرب من النار . وقد تدلَّى وعاءان من قضيب حديدىٍّ طويلٍ امتدَّ فى وضعٍ أفقى فوق جمرات النار ، وثمة مقلاةٌ صغيرة كانت تئزُّ على حاملٍ حديدىٍّ صغير ، والبخار والحرارة يرتعشان معًا فى ضوء الشمس .

وضع أدواته والإناء على الأرض ثم نهض واقفًا .

سأل إيڤيت قائلاً دون أن ينظر إليها : — « أتأكلين شيئًا معنا ؟»

فقالت إيڤيت : « لقد أحضرت غدائى » .

فقال : « أتأكلين شيئًا من اليخنى ؟ »

ثم عاد يُخاطب العجوزَ خِلْسةً وبهدوء . فتمتمت مجيبةً إياه وهى تُزَحْلق الوعاءَ الحديدى نحو طرف القضيب .

قال : « هاكِ بعض الفول مع قليلٍ من لحم الضأن » .

فقالت إيڤيت : « شكراً جزيلاً ! »

ثم استجمعَتْ إيڤيت شجاعتها فجأة وأردفت تقول : « حسنًا . لا بأس . على أن تكون كميةً صغيرةً للغاية إن كان لى أن أطلب » .

واتجهت إلى دراجتها لتُحضِر غداءَها المُوثَق بها فى حين صعد هو الدرج إلى عربته الخاصة . ولم يلبث أن ظهر وهو يمسح يديه بمنشفة .

قال : « أتريدين أن تأتى لتغسلى يديك ؟ »

فقالت : « لا . . لا أظن ذلك . . فهما نظيفتان » .

وألقى بعيداً بماء الاغتسال ثم سار فى الطريق حاملاً إبريقاً نحاسياً كبيراً ليملأه بالماء النظيف من النبع الذى كان يتساقط ماؤه نضيضاً فى بركة صغيرة، كما حمل قدحاً ليعُبَّ به الماء .

وعند عودته وضع الإبريق والقدح بالقرب من النار ثم أحضر لنفسه كُتلةً صغيرةً من الخشب ليجلس عليها . وافترش الأطفالُ الأرضَ متزاحمين بالقرب من النار وهم يأكلون الفول وقطع اللحم الصغيرة بالملعقة أو بأصابعهم . أما الرجل الجالس على كتلة الخشب فكان يأكل فى صمت واستغراق . فى حين راحت المرأة تصنع القهوة فى الإناء الأسود فوق الحامل ثم تعرُجُ صاعدةً الدرج لتأتى بالأقداح . وران السكون على المُخيَّم . جلست إيفيت على المقعد الخفيض بعد أن خلعت قبعتها وهزّت شعرها فى الشمس .

وسألته إيفيت فجأة قائلةً : « كم طفلاً لديك ؟ »

فأجاب قائلاً فى بطء وهو يتطلّع ببصره إلى عينيها : «حوالى خمسة ».

وهوى طائرُ قلبها مرةً أخرى حتى بدا أنه مات . وتناولت منه قدحَ القهوة فى غموض وكأنها فى حُلم . كانت لا تحسُّ بشىءٍ سوى هيكله الصامت وهو جالسٌ كالطيف على كتلة الخشب وفى يده قدحٌ مطلىٌّ بالمينا يحتسى منه القهوة فى صمت . كانت إرادتُها قد فارقتْ أطرافَها ، فقد سيطر عليها ، وألقى عليها ظلَّه .

وكان الغجرى وهو ينفخ فى القهوة الساخنة لايُحسُّ إلا بثمرة عُذْرتِها الغامضة ورقة جسدها المتناهية .

وأخيراً وضع قدح القهوة بالقرب من النار ثم نظر إليها . كان شعرها مُسدلاً على وجهها وهى تحاول أن ترشفَ القهوة من القدح الساخن . وقد ارتسمت على وجهها سيماءُ الزهرة الرقيقة الوَسْنَى عندما تخفُق على عودها يانعةً ممتلئة . كانت أشبه بزهرة قديمة غامضة أينعت متفتحة أو كزهرة الثلج التى تنشُرُ أجنحتها البيضاء الثلاثة مُحلقةً فى سُباتها اليقظان أثناء إزهارها القصير السريع . لقد ران عليها ذلك النُّعاس اليقظان الذى استغرقت فيه عُذْرتُها الناضجة المتفتحة وهى نشوى كزهرة الثلج فى ضوء الشمس .

وأحسَّ بها الرجل الغجرى فى عليائه ، فراح ينتظرها كمادة الظل ، والظل يلبث فى مكانه كائنًا هناك . وأخيراً سُمع صوتُه وهو يقول دون أن يبدِّد ذلك السحر الساجى : « أتريدين الآن أن تذهبى إلى عربتى لتغسلى يديك ؟ »

وحدَّقَتْ عيناها الطفلتان ناعستين فى يقظة وهى فى لحظة عُذرتها الكاملة — حدَّقتا فى عينيه دون أن تُبصرا شيئًا . لم تُحِسَّ إلا بذلك الفيض الغامض الغريب الذى يتدفق منه فيغمُرُ أطرافها ويُحيلها فى النهاية سليبةَ الإرادة تمامًا . كانت تُحسُّ بقوته الغامضة الكاملة .

قالت : « أظن ذلك » .

فنهض فى صمت ، ثم استدار ليُلقى أمراً إلى العجوز فى صوت خفيض، ثم عاد فنظر إلى إيثيت مركزاً عليها قوته حتى لا تشعر بعبء نفسها أوعملها .

قال : « هيّا » .

فتبعته فى بساطة وهى تتابع أمام عينيها حركةَ جسده الهادئة الخفيّة المسيطرة ولم يكلّفْهَا ذلك جهداً ما فقد صارت طىّ إرادته .

كان قد بلغ قمة الدرج وهى ما زالت عند أسفله عندما أحسّتْ بصوتٍ متطفّل . فوقفت هناك ساكنة. ثمة سيارةٌ كانت مُقبِلة . فوقف هو عند قمة الدرج يتلفّت حوله بطريقة غريبة . وهتفت العجوز تقول شيئًا فى صوت أجشّ ، على حين اندفعت السيارة تدنو منهم بضجيجها الذى أخذ يرتفع سريعًا . كانت السيارة مارّةً بهم .

ثم سمعا صيحةَ امرأةٍ وصوتَ الفرملة . لقد توقفت السيارة وراء الحجر تمامًا .

وهبط الرجلُ الغجرىُّ الدرج بعد أن أغلق باب العربة .

قال : « أتريدين أن ترتدى قبعتك ؟ »

فاتجهَتْ ممتثلةً لأمره إلى المقعد الخفيض بالقرب من النار حيث التقطت قبعتها . وجلس هو فى غمرض بالقرب من إحدى عجلات العربة حيث التقط أدواته . وعندئذ انفجرتْ ضرباتُ مطرقته السريعة الغاضبة تُشبِهُ طلقات المدفع الرشاش الصغير فى نفس اللحظة التى سُمع فيها

صوتُ المرأة وهى تصيح قائلةً : « هل يمكننا أن نُدفئ أيدينا على نار المخيَّم ؟ »

وتقدَّمت المرأة مرتديةً سُترةً ملساء لامعة ضخمة من فراء السمُّور ، وتبعها رجلٌ يرتدى معطفًا أزرق وهو ينتزع قفازه الفرائى ويُخرج غليونه.

قالت المرأة ذاتُ السُّترة المصنوعة من جلود عديد من الحيوانات الصغيرة الميتة ، وهى ترسم على وجهها ابتسامةً عريضة تُنْبِئُ بشىءٍ من التنازل وقليل من التردُّد نحو أهل الدار :

— لشدَّ ما بدتْ النار مُغرية .

فلم ينْبُس أحدٌ ببنت شفة .

ثم تقدَّمتْ نحو النار وهى ترتجف قليلاً من البرد داخل سترتها . فقد جاءا فى سيارة مفتوحة .

كانت امرأةً ضئيلةً للغاية ذاتَ أنف كبير إلى حد ما ! ربما كانت يهودية . ولما كانت فى حجم الطفل تقريبًا فقد بدت أضخم مما ينبغى بكثير فى تلك السُّترة الفرائية . وفى وسط هندامها الغالى كانت عينا المرأة اليهودية المدلَّلة الواسعتان العسليتان الممتعضتان إلى حد ما تحملقان على صورة غريبة .

انحنت فوق النار الهادئة مادَّةً يديها الصغيرتين اللتين كانتا تتلألآن بالماس والزُّمرّد . ثم قالت وهى ترتجف : « لاشك أنه ما كان ينبغى

أن نأتى فى سيارة مفتوحة ! ولكن زوجى يأبى حتى أن أعبّر عما أحسُّ به من البرد ! »

ثم نظرت إليه بعينيها الطِّفلتين النجلاوين المعاتبتين اللتين لم تبرحا تحتفظان بما يُميِّز المرأة اليهودية البورچوازية من دهاء ماكر . ربما كانت امرأة غنية .

كان من الواضح أنها تهوى ذلك الرجل الضخم الأشقر على طريقة المرأة اليهودية الغريبة . وأخذ يُباد لُها النظرات بعينيه الزرقاوين الشاردتين اللتين كانتا تبدوان وكأنهما بلا أهداب . وقد تغضَّنَتْ وجنتاه الناعمتان العاريتان على صورة غريبة بابتسامة صغيرة لاتُعبِّر عن شيء .

كان يُوحى إلى كل من يراه برياضات الشتاء كالتزحلق والانزلاق . أخذ يملأ غليونه فى بطء وهو يضغط على التبغ بإصبعٍ قوية مُحمرَّة وقد بدا عليه أنه رجلٌ رياضىٌّ منقطعٌ عن الحياة .

ونظرت إليه المرأة اليهودية لتتلقَّى منه جواباً . ولكنه لم يُجِبْ بشيءٍ قط فيما عدا تلك الابتسامة الغريبة الجوفاء . فاستدارت مرة أخرى نحو النار وقد مال حاجباها وهى تنظر إلى يديها الصغيرتين البيضاوين الممدودتين .

نزع معطفه ذا البطانة الثقيلة فظهر فى سُترة أنيقة تتألَّفُ من وحدات زخرفية حادة الزوايا وقد صنعت من الصوف الناعم المصقول ذى الألوان الصفراء والرمادية والسوداء وأسدلتْ على سروال أنيقٍ فضفاض إلى حد ما . نعم كان كلاهما يتزيَّا بكلِّ غالٍ وثمين ! كما كان الرجل

يمتاز بجسم رائع وصدر رياضى بارز . أخذ يُكدِّس الوقود فى هدوء شأن من خَبِرَ حياةَ المخيَّمات وكأنه جنديٌّ فى حملة حربية .

سأل إيڤيت قائلاً وهو يحدِجُ الغجريَّ المنهمكَ فى طرقاته بنظرة سريعة صامتة : « أيُضايقهم أن نُزكِيَ النار ببعض قطع الوقود من خشب الشَّوْح ؟ »

فقالت إيڤيت فى ذهول وقد بدأ سحر الرجل الغجرى ينجاب عنها رويداً فأحسَّتْ بالجنوح والفراغ :

ــ أعتقد أنهم يُرحِّبون بذلك .

فذهب الرجل إلى السيارة وعاد يحمل كيسًا صغيراً مملوءاً بقطع الخشب اغترف منه ملْءَ يده ثم صاح قائلاً وهو يخاطب الرجل الغجرى :

ــ أيضايقكم أن نُزكى النار ؟

ــ ماذا ؟

ــ أيضايقكم أن نُزكيَ النار بقليلٍ من الوقود ؟

فقال الغجرى : لا . فلتفعَلْ .

وبدأ الرجل يضع قطع الوقود فى خفةٍ وحِرْص على الجمرات الحمراء ولم تلبث أن اشتعلتْ إحداها بعد الأخرى، وتوهَّجتْ كوردٍ من اللهب يطيبُ أريجُها .

فصاحت اليهودية الصغيرة وقد عادت تنظر إلى رجلها قائلةً :

« آه ! ما أجمل هذا ! ما أجمل هذا ! » فنظر إليها . ولشدّ مارقّتْ نظرتُه كأنها أشعة الشمس على الجليد . ثم صاحت اليهودية الصغيرة مخاطبةً إيڤيت عَبْر صوت الطرقات قائلةً : « ألا تحبين النار ؟ آه ! إنى أعشقها ! »

وضاقت بصوت الطرقات فأدارت بصرها وقد تقطّبَ إلى حدٍّ ما حاجباها الصغيران الرفيعان وكأنها تريد أن تأمر الرجل بالتوقف . وأدارت إيڤيت بصرها أيضًا فإذا بالرجل الغجرى مُكبٌّ على إنائه النحاسى وقد انفرجت ساقاه وانخفض رأسه وارتفعت ذراعه اللَّدْنة . لشدّ ما بدا نائيًا عنها .

واتجه الرجل الذى جاء فى رفقة اليهودية الصغيرة إلى الغجرى ووقف ينظر إليه فى صمت واضعًا غليونه فى فمه . لقد صارا الآن رجلين أشبه بذكرين غريبين من الكلاب لابد أن يتشمّم أحدُهما الآخر .

قالت اليهودية الصغيرة وهى تنظر إلى إيڤيت نظرةً ماكرة ممتعضة :

— « إننا نقضى شهر العسل » . كانت تتكلم بصوت متحدٍّ عالى النبرات إلى حد ماكصوت طائرٍ ما مثل القميق أو غراب القيظ .

فقالت إيڤيت : « حقًّا » ؟

— « نعم ! قبل أن يتم زواجُنا ! هل سمعت عن سيمون فوسيت ؟ وكان ذلك هو اسم أحد المهندسين الأغنياء المعروفين فى الشمال .

— أنا زوجته وهو يتخذ الآن الإجراءات ليُطلّقنى !

ثم نظرت إلى إيڤيت فى تحدٍّ ولهفة غريبين ٥

فقالت إيڤيت : « حقًّا ؟ ! »

وعندئذ أدركت السر فى نظرة الامتعاض والتحدى التى ارتسمت فى عينيها النجلاوين ، الطِّفلتين العسليتين . كانت امرأة صغيرة نزيهة ولكن نزاهتها ربما كانت متحررة أكثر مما ينبغى . بل ربما كان ذلك هو السبب إلى حد ما فيما عُرِفَ عن سيمون فوسيت الشهير من تبذُّلٍ شائن .

— نعم ! وسأتزوج الماجور إيستوود ، حالما أحصل على الطلاق .

لقد كشَفتْ الآن جميع أوراقها . فهى لن تخدع أحداً .

ومن خلفها كان الرجلان يتجاذبان فى إيجاز أطراف الحديث . فالتفتت خلفها وحدَجتْ الرجل الغجرى بنظرة سريعة من عينيها النجلاوين العسليتين .

كان يتطلَّع ببصره فيما يشبه الخجل إلى الرجل الضخم ذى السترة اللامعة الذى وقف ينظر إلى أسفل وغليونه فى فمه وقفةَ رجُلٍ لرجل .

قال الغجرى فى صوت خفيض : « مع الخيل خلف آراس » .

كانا يتحدثان عن الحرب . فقد خدم الغجرى فى فصائل المدفعية فى فرقة الماجور .

قالت اليهودية : « Ein Schoner mensch . أليس رجلاً وسيماً ؟ »

فقد كان الرجل الغجرى فى نظرها أيضًا رجلاً عاديًّا من الجنود البريطانيين .

فقالت إيڤيت : « للغاية » !

فسألتها اليهودية قائلةً وفى صوتها رَنَّة دَهش : « أتركبين الدراجة ؟ »

ــ نعم ! إلى پاپلويك ــ فإن أبى هو مستر سايول راعى الكنيسة، فى پاپلويك !

فقالت اليهودية : « آه ! إنى أعرفه . إنه كاتب لوذعى ! لوذعى للغاية ! فقد قرأتُ له ... »

وكانت جميعُ قِطع الشوح قد التهمتها النيران التى صارت عندئذ كومةً مرتفعة من الجَمَرات تتفتَّتُ حِطامًا . ثم أخذت السماء تتلبَّد بالغيوم عند الأصيل . وأنذرت السماء بالثلوج قُربَ المساء .

عاد الماجور والتحف بمعطفه قائلاً :

ــ أعتقد أننى تذكَّرتُ وجهه ! إنه أحد السُّوَّاس، وقد بَرَعَ فى تدريب الخيل ورعايتها . »

وهتفت اليهودية قائلةً لإيڤيت : « أنصِتى إلىّ ! ألا تسمحين لنا باصطحابك إلى نورمانتون » ؟ فنحن نسكن سكورسبى، ويمكننا أن نُوثِقَ دراجتك بمؤخَّر السيارة » .

فقالت إيڤيت : « لا بأس » .

ثم نادت المرأة اليهودية الأطفال – الذين راحوا يختلسون النظر والرجل الأشقر يدفع الدراجة بعيداً – قائلةً : – « تعالَوا إلى ! تعالَوا! تعالَوا هنا ! »

ثم أخرجت كيس نقودها الصغير وأبرزت لهم درهمًا .

وصاحت قائلةً : « تعالوا إلى ! تعالَوا خُذوه » .

كان الرجل الغجرى قد توقَّف عن عمله ودَلَفَ إلى داخل عربته . فنادت العجوز الأطفال من الحظيرة بصوتٍ أجشّ وتقدَّم الطفلان الكبيران إلى الأمام وهما يختلسان الخُطى . فأعطتهما المرأة اليهودية قطعتى الفضة اللتين احتواهما كيسُ نقودها، وكانت إحداهما من ذات الخمسة قروش والأخرى من ذات العشرة . ثم سُمِعَتْ العجوز التى كانت مختفيةً عن الأنظار وهى تصيح مرة أخرى بصوتها الأجشّ .

وهبط الرجل الغجرى من عربته ثم سار نحو النار . وتفرَّسَتْ المرأة اليهودية فى وجهه بما عُرِفَ عن جنسها من جُرأةٍ بورچوازية غريبة .

قالت : « هل حاربْتَ فى فرقة الماچور إيستوود ؟ »

– نعم ياسيدتى !

– تخيل أنكما هنا الآن معًا ! إن السماء ستُثلج .

ثم تطلَّعَتْ ببصرها إلى السماء .

فقال الرجل وهو ينظر إلى السماء : « ليس الآن . بل فيما بعد » .

لقد صار هو أيضًا بعيد المنال فقد خاض بنو جنسه منذ قديم الأزل

معركةً غريبة مع المجتمع المستقر ، ولم يفكروا فى كسب المعركة . ولكنهم كانوا يُسَجِّلون نصراً من وقت لآخر .

غير أن تلك الفرصة الرياضية التى كانت تُتاحُ لهم قديمًا لإحراز انتصارات من وقت لآخر قد اختفت تمامًا منذ نشوب الحرب فلم يكن هناك بدٌّ من الاستسلام . ومع ذلك فإن عينى الرجل الغجرى لم تبرحا تحتفظان بنظرتهما الجريئة . ولكنها تجمَّدَتْ واتجهَتْ بعيداً بعد أن زالت عنها مسحةُ الرغبة الوقِحَة . فقد خاض الحرب . ونظر إلى إيڤيت قائلاً :

— هل تعودين بالسيارة ؟

فأجابته فى رِجْفةٍ متكلِّفة إلى حد ما قائلةً : « نعم . فإن الطقس غدَّار ! »

فردَّد قولها وهو ينظر إلى السماء قائلاً : « الطقسُ غدَّار ! »

لم تستطع أن تتبين مشاعره مطلقًا . وفى الواقع فإنها لم تعبأ بذلك كثيراً .

فقد فُتنتْ عندئذ إلى حد ما بسحر تلك اليهودية الصغيرة التى كانت أمًّا لطفلين ، وكانت على وشك أن تنقل ثروتها من حَوْزة المهندس الشهير إلى الماچور إيستوود ذلك الشاب الرياضى المُفلِس الذى كان ولاريب يصغُرُها بخمسة أعوام أو ستة . إنه لأمر مُحيِّر إلى حدما !

ثم عاد الرجل الأشقر .

وصاحت اليهودية الصغيرة قائلةً بنغمة حزينة : « شارل ! أعطنى سيجارة ! » فأخرج عُلبته فى بطء بحركته الرياضية الوئيدة . وكان فى نفسه شيء حسّاس يجعله بطيئًا حَذِراً وكأنه مُجرَّحٌ من الناس . أعطى زوجته سيجارة وإيڤيت أخرى ثم العُلبة فى بساطة تامة إلى الرجل الغجرى الذى أخذ منها واحدة .

ــ شكراً ياسيدى !

ثم اتجه نحو النار فى هدوء ثم انحنى مُشعلاً السيجارة من الجَمَرات الحمراء وقد راحت المرأتان تراقبانه .

فقالت اليهودية فى عطف بورچوازى غريزى : « حسنًا . وداعًا ! وشكراً لنارك الدافئة » .

فقال الغجرى : « النارُ مِلْكُ الجميع » .

وأقبل عليه طفله الصغير وهو يمشى بخُطًى قصيرة سريعة .

ثم قالت إيڤيت : « وداعًا ! أرجو من أجلكم ألا تُثلِجَ السماء » .

فقال الغجرى : « نحن لانبالى بالقليل من الثلج » .

فقالت إيڤيت : « حقًّا ؟ كنت أظن غير ذلك ! »

فقال الغجرى : « كلا ! »

وألقَتْ بوشاحها فى جلال على كتفها ثم سارت فى أثَر السُّترة الفرائية التى كانت ترتديها اليهودية وقد بدت وكأنها تمشى من تلقاء ذاتها على ساقين صغيرتين .

٧

كانت إيفيت تجدُ شيئًا من الإثارة فى أسرة إيستوود كما تعوَّدَتْ أن تُسمِّيها . ولم يكن أمام اليهودية الصغيرة وقتذاك ، إلا أن تنتظر ثلاثة أشهر لتحصُل على الطـــلاق النهائى . واستأجرت فى جُرأة كوخًا صغيراً على مقربة من البرارى فى سكورسبى غيرَ بعيد من التلال . كان الشتاء فى زمهريره وكانت تعيش هى والماچور فى عزلة نسبية دون أن يقوم أحدٌ على خدمتهما . وقد اعتزل الماچور وظيفته فى الجيش العامل وتسمّى باسم المستر إيستوود . وفى الواقع أنهما صارا يُعرفان فى نظر العالم أجمع باسم مستر ومسز إيستوود .

كانت اليهودية الصغيرة فى السادسة والثلاثين من عمرها ، وقد تجاوز طفلاها الثانية عشرة من عمرهما . وقد وافق زوجُها على أن تؤول إليها الوصاية على الطفلين حالما يتمُّ زواجُها من إيستوود .

وهكذا عاش ذلك الثّنائى الغريب : تلك اليهودية الصغيرة الضئيلة ذات التكوين الدقيق بعينيها النجلاوين الممتعضتين المعاتبتين وشعرها الأسود الكثّ المموَّج الذى عُنِيَتْ بتهذيبه وتصفيفه ، وكانت كائنًا صغيراً رشيقًا على طريقتها . وذلك الشاب القوىّ الضخم البارد الشاحب العينين الذى كان بلا ريب ينحدُر من أصل دانيماركىّ غامض

عريق . كانا يعيشان معاً في منزل عصريٍّ صغير بالقرب من البرارى والتلال حيث يقومان على شؤونهما المنزلية .

كانا ساكنين غريبين ، فقد استأجرا الكوخ بأثاثاته ولكن اليهودية الصغيرة نقلت معها أعزّ ما تملك من قطع الأثاث . فلشدّ ما أُغرِمَتْ بالنقوش الزاهية فيما تقتنى من أشياء كالخزائن الغريبة المقوسة والمطعّمة بالصدف والقواقع والأبنوس ، وما إلى ذلك ، والمقاعد الإيطالية الغريبة الطويلة الزاهية ذات النسيج الحريرى الأخضر ، وتماثيل القديسين المدهشة ذات الوجوه القرمزية والمسوح التى نُحِتَتْ وهى تتطاير فى مهبّ الريح بألوانٍ زاهية جميلة ، ورفوف من خزف ساكس القديم الغريب وتماثيل كاپودى مونتى الصغيرة . وأخيراً مجموعة غريبة من الصور المدهشة المرسومة بالزيت على الزجاج ، والتى ربما رجع تاريخُها إلى أوائل القرن التاسع عشر أو أواخر القرن الثامن عشر .

فى ذلك المنزل المزدحم الخارج عن المألوف استقبلت اليهودية الصغيرة إيڤيت عندما قامت الأخيرة بزيارتها خِلْسةً . وقد رُكِّبَ فى الكوخ جهازٌ كامل للتدفئة فشاع الدفء فى كل ركن من أركانه حتى أوشك أن يكون ساخناً ، كما كانت المرأة اليهودية نفسُها بقدّها الدقيق الزاهى المتّشح بثوبٍ صغير جميل تعلوه وزرة تضع فى إحدى الصحاف شرائحَ من لحم الخنزير فى حين كان الماچور ذلك الطائر الثلجى الضخم بصديره الأبيض وسراويله الرمادية يقطع الخبز ويُعِدُّ

الخردل ويصنع القهوة ويقوم على مابقى من شؤون المنزل . بل إنه قام بإعداد أحد ألوان الطعام وهو الأرنب المسلوق فى القِدْر الذى قُدِّم بعد تناول اللحم البارد والكاڤيار .

وكانت الأدواتُ الفضية والخزفية ثمينة حقًّا وهى جزءٌ من جهاز العُرس . وكان الماجور يجرع البيرة فى كوب كبير من الفضة على حين كانت اليهودية الصغيرة وإيڤيت تحتسيان الشمپانيا فى أقداح جميلة . ثم أحضر الماچور القهوة وأخذوا يتسامرون . ولشدَّ ما كانت اليهودية غاضبة على زوجها الأول . فقد كانت على خُلُق قويم عنيف بل لقد بلغت من ذلك حدًّا جعلها امرأةً مطلَّقة . كما كان الماچور أيضًا ذلك الطائر الشتوى الغريب عظيم القوة بالغ الوسامة أيضًا على طريقته الخاصة ، غير أن عينيه قد أحاط بهما الشحوب حتى بدتا وكأنهما بلا أهداب كعينى الطائر . كان هو أيضًا ساخطًا على الحياة على صورة غريبة لما فيها من أخلاقيات زائفة ، وقد انطوى صدرُه الرياضىّ القوىّ على نوع غريب بارد من الغضب . وكانت رقَّتُه نحو اليهودية الصغيرة مبعثُها إحساسُه بانتهاك العدالة ، فى حين كانت أخلاقياته المثالية التى انحدرتْ إليه من الشمال تدفعه كالريح الغريبة إلى العُزلة .

وعند ما دنت ساعةُ الأصيل ذهبوا جميعًا إلى المطبخ حيث شمَّر الماچور عن ساعديه الأبيضين القويين الرياضيين وأخذ يغسل الصحاف بعناية وخفة فى حين تقوم المرأتان بتجفيفها . فلا عَجَب أن يكون ذا عضلات

قوية . ثم تفقَّد مواقد المنزل الصغير التى كانت لا تحتاج من العناية إلى أكثر من لحظة أو اثنتين يوميًّا . وبعد ذلك أخرج السيارة الصغيرة المقفلة التى صَحِبَ فيها إيڤيت إلى منزلها تحت وابل من المطر المنهمر . وهناك أنزلها عند البوابة الخلفية وكانت أشبه بكُوَّة صغيرة بين أشجار الشربين تنحدر من خلالها درجاتٌ من الطين مؤديةً إلى المنزل :

لشدَّ ما أذهلها ذلك الثنائى .

قالت : « حقًّا يا لوسيل ! فلا شك أنى ألتقى بأغرب أنماطٍ من البشر » .

ثم سرَدتْ وصفاً تفصيليًّا دقيقاً لذلك الثنائى .

فقالت لوسيل : « يبدو أنهما ظريفان إلى حد ما ! فإنه لمما يروقنى أن يقوم الماچور بأعمال المنزل وهو مع ذلك مفرطٌ فى الأناقة . أعتقد أنه يطيبُ لى أن أعرفهما عند ما يتمُّ زواجُهما » .

فقالت إيڤيت فى غموض : « نعم ! نعم ! نعم أعتقد ذلك! »

لقد أعادتْ إلى ذاكرتها تلك العلاقة الغريبة التى تربط بين اليهودية الصغيرة وبين الضابط الرياضى الشاب ذى العينين الشاحبتين صورة رجلها الغجرى ، وكانت قد اختفت من وعيها تماماً ، ولكنها عاودتها عندئذ بقوة فجائية مؤلمة .

سألتها قائلة : « ما الذى يجمع بين الناس يالوسيل كثنائى إيستوود مثلاً ؟ كأبى وأمى برغم ما بينهما من تنافرٍ شديد ؟ ما الذى

جمع بين تلك المرأة الغجرية الـ قرأت لى الطالع وهى أشبه ما تكون بالحصان الضخم وبين ذلك الرجل الغجرى ذى الجمال الرائع والتكوين الدقيق ؟ ماذا يجمع بين هؤلاء جميعاً ؟ »

فقالت لوسيل : « أعتقد أنه الجنس أيًّا كان » .

ــ نعم . ولكن ما هو ؟ لا شك أنه ليس شيئًا مبتذلاً من قبيل الشهوانية المألوفة كما تعلمين يالوسيل . لا شك أنه ليس كذلك .

فقالت لوسيل : « كلاّ . لا أحسبُه كذلك . وعلى أية حال فإنى أعتقد أنه لاينبغى أن يكون كذلك » .

ــ لأن هؤلاء السوقة كما تعلمين الذين يمتهنون الفتيات ليسوا موضعَ اهتمام كبير ولا يُحسُّ أحدٌ بوجود مايربطه بهم . ومع ذلك فالمفروض أنهم شديدو الإحساس بالجنس » .

فقالت لوسيل : « أعتقد أن الجنس نوعان أحدُهما مبتذلٌ ، والآخر لايشوبه ابتذال . لاشك أنه أمر معقّد للغاية ! فلشدَّ ما أمقتُ السوقة من الناس . كما أننى لا أحسُّ بشىء من الجنس » . وهنا ضغطَتْ على تلك الكلمة فى شىء من الاشمئزاز ثم أردفت قائلة : « نحو غيرهم ممن ليسوا من السوقة . ربما كنت عديمةَ الجنس» .

فقالت إيڤيت : « بالضبط ! ربما كانت كلتانا عديمة الجنس . وربما كنا نفتقر حقًّا إلى ذلك الجنس الذى يربطنا بالرجال » .

فصاحت لوسيل قائلةً فى نفور : « يربطنا بالرجال ! ماأبشع هذه

العبارة ! ألا تكرهين أن ترتبطى بالرجال على هذه الصورة ؟ أعتقد أنه لممّا يُؤسف له حقًّا أنه لامفرَّ من وجود الجنس ! فلشدَّ ما أوثر لو وجد الرجال والنساء بغير هذا الشيء » .

واستغرقت إيڤيت فى تأمُّلاتها . فقد تمثلت لها عن بُعد فى إطار عقلها الباطن صورةُ الغجرى وهو يُحوِّلُ بصره نحوها عندما قالت : « إن الطقس غدًّار ! » أحسَّتْ وهى تُنكر وجوده أنها تحذو حَذْوَ بطرس الرسول إلى حد ما عندما صاح الديك . أو الأحرى أنها لم تنكر وجوده . بل تغاضت عن دوره فى العَرْض على أية حال . وكان ما أنكرته هو جزءٌ خفىٌّ من نفسها : ذلك الجزء الذى استجاب له فى غموض دون أن يُقرَّ بذلك ، أما الديك الذى صاح ساخراً منها فقد كان غريباً متألقاً أسودَ اللون .

قالت فى غموض : « نعم ! نعم ! فالجنسُ شىءٌ مملٌّ للغاية كما تعلمين يالوسيل . فإنك تفتقدينه على صورة ما عندما تفتقرين إليه ، وعندما تحوزينه ، أو تملكينه . . » وهنا رفعت رأسها وغضَّنَتْ أنفها فى احتقار ثم قالت : « . . . . .فإنك تكرهينه » .

فصاحت لوسيل قائلة : « لستُ أدرى ! أعتقد أننى أريد أن أهيم بحب رجل » .

فقالت إيڤيت وهى تُغضّن أنفها مرة أخرى : « أتعتقدين ذلك ؟ ! ولكنك لو فعلت لما أردت ذلك » .

فسألتها لوسيل قائلة : « وما أدراك ؟ »

فقالت إيفيت : « لستُ أدرى ذلك حقًّا ، ولكن هذا هو اعتقادي ! نعم هذا هو اعتقادى ! »

فقالت لوسيل فى اشمئزاز : « ربمـا صَحَّ ذلك حقًّا ! وعلى أية حال فلابد أن يتوقع المرءُ زوالَ الحب عنه ، وعندئذ لن يُحسَّ نحوه إلا بالنفور » .

فقالت إيفيت : « نعم إنها لمشكلة » .

ثم راحت تترنَّم بلحن صغير . .

ــ لا تكترثى لذلك فإننا لم نتعرض بعدُ لهذه المشكلة . فكلتانا لم تعرف الهوى حقًّا . وربما لن تعرفه . وهكذا فإن المشكلة على هذه الصورة مفروغ منها .

فقالت إيفيت فى حكمة : « لستُ على يقين من ذلك . لستُ على يقين من ذلك . فإنى أعتقد أننى سأقع يومًا ما فى حب عنيف » .

فقالت لوسيل فى قسوة : « وربما لم تقعى فيه قط . فإن معظم العوانس لايفتأن يتخيَّلن ذلك » .

ونظرت إيفيت إلى شقيقتها نظرة تأمُّل ولكن فى غير اكتراث .

قالت : « حقًّا ؟ أتعتقدين ذلك حقًّا يالوسيل ؟ ما أقسى هذا عليهن هؤلاء المسكينات ! ولماذا يعبأن به على الإطلاق ؟ »

فقالت : « لماذا ؟ ربما لم يعبأن به حقًّا ــ وربما لا يدفعهن إلى

ذلك سوى قول الناس " يا للمسكينة ! إنها لاتستطيع أن تُوقع رجلاً فى حبائلها" » .

فقالت إيڤيت : « أعتقد ذلك ! فهن يعانين من ألسنة الناس التى لاتفتأ تنال منهن فى قسوة ووحشية . ياللعار ! »

فقالت لوسيل : « ولكننا على أية حال نستمتع بحياتنا . ولا شك أننا نحظى باهتمام الكثيرين من الشبان » .

فقالت إيڤيت : — « نعم ! نعم ! ولكننى لاأستطيع مطلقاً أن أقترن بأحدهم » .

فقالت لوسيل : « ولا أنا كذلك . ولكن ماذا يضطرنا إلى هذا ؟ لماذا نهتمُّ بالزواج ما دُمنا نستمتع بوقتنا للغاية مع شبان لاتشوبهم شائبة . فيجب أن تعترفى ياإيڤيت بأنهم فى سلوكهم نحونا يكشفون عن روح رياضية عالية كما أنهم مهذَّبون تماماً » .

فقالت إيڤيت فى شرود : « نعم ! »

فقالت لوسيل : « أعتقد أنه يحينُ الوقت للتفكير فى الزواج عندما تُحسِّين أنك لم تعودى تستمتعين بوقتك . عندئذ تزوَّجى واستقرّي » .

فقالت إيڤيت : « تماماً ! »

ولكنها كانت عندئذ تُخفى ضَجَرَها من لوسيل تحت ستار ذلك الوُد الرقيق المؤنس . وأرادت فجأة أن تهرب منها .

فلتنظر إلى تلك الظلال المُحيطة بعينى لوسيل المسكينة والرغبة المرتسمة فى عينيها الجميلتين . آه ! ليتها تتزوج رجلاً رقيقًا طيب القلب يحميها بقوته ! وليت لوسيل المنصفة ترضى به زوجًا لها !

لم تروِ إيڤيت للقس أو لجدتها شيئًا عن أسرة إيستوود . إذ أن ذلك لن يؤدى إلا إلى إثارة كثير من القيل والقال الذى لشدّ ما كانت تمقته . أما القس فإنه ما كان ليعبأ بذلك بينه وبين نفسه . ولكنه كان يدرك أيضًا ضرورة الابتعاد ما أمكن عن لسان الناس تلك الأفعى السامة المتعددة الرؤوس .

صاحت اليهودية الصغيرة قائلةً : « ولكننى لا أريدك أن تأتى لزيارتى إن كان والدك لايعلم بذلك » .

فقالت إيڤيت : « أعتقد أننى يجب أن أخبره . وإنى لعلى ثقة من أنه لايبالى بذلك حقًا . ولكنه لو عَلِمَ به لاضطُر إلى المبالاة على ما أعتقد » .

فنظر إليها الضابط الشاب فى سرور غريب بعينيه الحادتين الشبيهتين بعينى الطائر دون أن تبدو فيهما عاطفةٌ ما . كان يبدو هو أيضًا وكأنه مُغرَمٌ بإيڤيت . فقد كانت تجذبه إليها برقتها العذرية الغريبة وانعزالها الهائم الشارد .

لقد فَطِنتْ إلى ما كان يدور بخَلَد إيستوود فُعنِيتْ بمظهرها إلى حد ما وزادت من أناقتها . إذ أنه كان يُثيرُ خيالها . فقد كان

ضابطًا شابًّا أنيقَ الملبس ينتمى إلى طبقة ممتازة هادئًا كل الهدوء ومثيراً للدهشة فى قيادته للسيارة وبطلاً عظيماً فى السباحة . وكان مما يُحيِّر الألباب أن تراه ساكنًا هادئًا يغسل الصحاف وهو يُدخن غليونه مؤديًا عمله فى يقظة تامة ومهارة فائقة . كان يطهو الأرنب المسلوق فى القِدْر فى مطبخ الكوخ بنفس الاهتمام الذى يفحص به آلات السيارة الداخلية الغامضة . ثم تراه بعد ذلك وهو يخرجُ فى الزمهرير لينظف سيارته حتى تبدو وكأنها كائنٌ حيّ كالقط عندما يلعق نفسه . ثم يعود مرة أخرى ليتحدث إلى اليهودية الصغيرة فى غير ما تكلُّف على الإطلاق بل فى استجابة لحديثها ولو فى إيجاز . ومن الواضح أنه كان لا يعرف الملل . فكان يجلس صامتًا إلى النافذة فى الطقس الردىء وهو يُدخن غليونه ساعات بطولها شاردَ الذهن غارقًا فى تأملاته ولكن جسمه الرياضى يظل يقظًا فى سكونه .

لم تكن إيفيت تغازله . ولكنها كانت تميل إليه حقًّا .

سألته قائلةً : « ولكن ماذا عن مستقبلك ؟ »

فقال وهو يخرج غليونه من فمه وقد أطلَّ من عينيه الشبيهتين بعينى الطائر طرفُ ابتسامة لا أثر فيها للعاطفة : « ماذا عنه ؟ »

فحملقتْ فى عينيه فى سذاجة غريبة قائلة : « مستقبلك ! أليس على كل رجل أن يشُقَّ لنفسه طريقًا فى الحياة ؟.... كما تُفرِزُ الإوزَّةُ الضخمةُ عُصارتَها » .

فقال وفى عينيه نظرةٌ باردة ثابتة : « أنا اليوم على خير ما يرام

وهكذا سأكون غداً . فلم لا يكون مستقبلى سلسلة متصلة من اليوم والغد » .

ثم نظر إليها نظرةً فاحصة وهو رابطُ الجأش .

فقالت : « تماماً ! فأنا أكره الأعمال وكُلَّ ما يضمُّه ذلك الجانب من الحياة » .

ولكنها كانت تفكر فى ثروة اليهودية .

ولم يُحِرْ جواباً . كان غضبُه من ذلك النوع الثلجىّ الهادئ الذى يخنُقُ الروح فى غير عناء . وتطوَّر الحديثُ بينهما إلى مناقشة فلسفية . فبدت اليهودية الصغيرة شاحبة متعبة إلى حد ما . كانت ساذجة على صورة غريبة وكانت لا تعرف الأنانية فى موقفها من الرجل ، كما لم تكن قط حقوداً ماكرة مع إيڤيت . بل تبدو صامتة مُتعَبَة إلى حـــد ما .

وفجأة خطر لإيڤيت أنه يحسُنُ بها أن تُفصِحَ عن سريرتها .

فقالت : « ما أشقَّ الحياة ! »

فصاحت اليهودية قائلة : « حقًّا ! »

ثم قالت إيڤيت وهى تُغضِّن أنفها : « وليس أشقّ على المرء مـــن أن يُفرضَ عليه الحبُّ والزواج ! »

فصاحت اليهودية وقد اتسعتْ عيناها وحملقت فى عتاب مشدوه قائلة : « ألا تنشُدين الحب والزواج ؟ »

فقالت إيڤيت : « كلا . لا أنشدهما بالذات ! وخاصة عندما

يُحس المرءُ أنه لا عمل له سواهما . فهما أشبه بحظيرة كريهة للدجاج يتعيَّن علينا أن ندخُلَها » .

فصاحت اليهودية قائلة : « ولكن ألا تعرفين ما هو الحب ؟ »

فقالت إيڤيت :— « كلا ! أتعرفينه أنت ؟ »

فصرخت اليهودية الصغيرة قائلة :— « أنا ! أنا ! يا إلهى ! ألا أعرفه ! »

ونظرت ساهمةً فى كآبة إلى إيستوود الذى راح يدخن غليونه وقد ظهرت غمازات السرور المنعزل على وجهه الناعم النظيف . لشدّ ما كانت بشرتُه رقيقة ناعمة لم تتأثَّر بعد بالجو حتى بدا وجهُه عاريًا كوجوه الأطفال . ولكنه لم يكن وجهًا مستديراً بل كان ذا طابَع خاص مميَّز تعلوه غمازاتٌ غريبة متهكِّمة كالقناع الضاحك الذى تجمَّدتْ عليه أساريرُه .

وألحَّتْ اليهودية قائلة : « أتعنين أنك لا تعرفين ما هو الحب ؟ »

فقالت إيڤيت فى صراحة غير عابئة : « كلا ! لا أظننى أعرفه ! أليس هذا معيباً فى مثل سنى ؟ »

فقالت اليهودية وقد اتَّسعتْ عيناها بنظرة أخرى إلى إيستوود : «أليس هناك البتَّة رجلٌ يبعث فى نفسك شعوراً مختلفًا تمامًا .. تمامًا ؟»

كان إيستوود يدخن وهو فى عزلة تامة .

فقالت إيڤيت : « لا أظن ذلك . إلا إذا كان... نعم ! إلا إذا كان ذلك الغجرى » .

ونحَّتْ يدها جانبًا فى تأمُّل وتفكير .

فصرخت اليهودية الصغيرة قائلة : « أىُّ غجرى ؟ »

فقالت إيڤيت فى برود : « ذلك الذى كان جنديًّا فى الجيش يسوسُ الخيل فى فرقة الماجور إيستوود أثناء الحرب » .

فحملقت اليهودية الصغيرة فى إيڤيت وقد اتسعت عيناها من شدة الذهول . ثم قالت : « أتُحبين ذلك الغجرى ! »

فقالت إيڤيت : « حسنًا ! لستُ أدرى . ولكنه هو وحده الذى يبعث فى نفسى شعوراً مختلفًا ! هو وحده حقًّا ! »

— ولكن كيف ؟ كيف ؟ هل قال لك شيئًا قط ؟

— لا ! لا !

— إذن فكيف ؟ وماذا فعل ؟

— لم يَزِدْ على أن نظر إلى . . . !

— كيف ؟

— لستُ أدرى . ولكنها نظرةٌ مختلفةٌ ! نعم مختلفة ! مختلفةٌ ! مختلفةٌ تمامًا عن نظرة أي رجل آخر إلىّ » .

فألحَّت اليهودية قائلة : « ولكن كيف نظر إليك ؟ »

فقالت إيڤيت وقد بدا وجهُها المتأمل كبُرعُم الزهرة : « وكأنه حقًّا يشتهينى — ولكن حقًّا ! »

فصاحت اليهودية الغاضبة قائلة : « ما أسفلَه ! فبأىّ حقٍّ نظر إليك على هذه الصورة ؟ » فتدخَّل الماچور فى هدوء وقد َعلَتْ وجهَه عندئـذ بَسَمَاتُ وجه القط قائلاً : « قد ينظر القط إلى الملك ! »

فسألته إيڤيت قائلة وهى تتحـوَّل نحوه : « أتظن أنه ما كان ينبغى أن يفعل ذلك ؟ »

فصاحت اليهودية الصغيرة قائلة : « طبعًا لا ! رجلٌ غجرىٌّ يجرُّ خلفه نصف دستة من النساء القذرات ! طبعًا لا ! »

فقالت إيڤيت : « لقد تعجَّبْت ! فقد كان ذلك عجيبًا حقًّا إلى حد ما ، كما كان شيئًا مختلفًا تمامًا فى حياتى » .

فقال الماچور وهو يُخرِجُ غليونه من فمه : « أعتقد أن هذه الرغبة أعجَبُ شىء فى الحياة . فمن يمكنه أن يُحِسَّ بها حقًّا كان َملِكًا . وإنى لا أحسُدُ سواه ! »

ثم أعاد غليونه إلى فمه .

فنظرت إليه اليهودية فى ذهول .

ثم صاحت قائلة : « ولكن يا شارل ! كلُّ سوقىّ منحط فى هاليفاكس لا يُحِسُّ إلا بهذه الرغبة ! »

فأخرج غليونه من فمه مرة أخرى . ثم قال : « تلك شهوةٌ فحسب » .
ثم أعاد غليونه إلى فمه .

فسألته إيفيت قائلة : « أتعتقد أن الغجرى يُحِسُّ بها حقًّا ؟ »

فرفع كتفيه ، وأجاب قائلا : « ليس لى أن أقرر . ولكننى لو كنت مكانك لعرفتُ ذلك . وما سألت أحداً » .

فتلعثمتْ إيفيت قائلة : « نعم . . . ولكن . . »

— شارل ! إنك مخطئ ! فكيف يمكن أن يكون إحساسُه حقيقيًّا ! وكأنها يمكنها أن تتزوجه وتنتقل معه فى قافلة ! »

فقال شارل : « لم أقُلْ تتزوجه » .

— أو تتعلَّق به ! ما أشنع ذلك ! فماذا يكون رأيُها فى نفسها . ليس هذا حبًّا ! بل . . . بل دعارة !

ظل شارل يُدخن لحظات قليلة .

ثم قال : « كان ذلك الغجرى خيرَ سُوَّاسنا . وقد أوشك أن يموت بالالتهاب الرئوى . وكنت أظنه فى عداد الأموات . فهو فى نظرى قد بُعِثَ إلى الحياة من جديد . كما أننى أنا نفسى قد بُعِثتُ إلى الحياة من جديد على هذا القياس » .

ثم نظر إلى إيفيت قائلاً : « فقد دُفِنْتُ تحت الثلوج عشرين ساعة ولكننى عندما أُخرِجت لم أُصَب بسوء » .

ومرت فترة صمت باردة خلال الحديث .

ثم قالت إيفيت : « ما أشقَّ الحياة ! »

فقال : « لقد أخرجونى بمحض الصدفة » .

فقالت إيفيت فى بطء : « قد يكون ذلك هو القدر » .

ولم يُحِرْ جوابًا .

٨

وبلغت مسامع القس علاقةُ إيفيت الوثيقة بأسرة إيستوود وقد جَفَلَتْ قليلاً لما ترتَّب على ذلك . كان يُخَيَّل لها أنه لن يكترث لتلك العلاقة . فلشدَّ ما تنكَّرَ للتقاليد وتمسَّك بالروح الرياضية العالية على طريقته التى أُريدَ بها أن تكون فكاهية . وكما قال هو نفسه فإنه كان فوضويًّا محافظًا ومعنى ذلك أنه كافر بالقيم شأنه فى ذلك شأن كثيرين آخرين . وقد امتدَّت الفوضى إلى حديثه الفكاهى وتفكيره الخفى . ولكن روح المحافظة التى تنبع من خوفه الدنىء من الفوضى كانت تتحكم فى كل عمل من أعماله . كما كانت خواطره الخفية تبعث الرعب فى القلوب . لذلك فإنه لشدَّ ما كان يخشى الخروج على التقاليد فى حياته .

وعندما كانت تتغلَّب عليه روحُ المحافظة ويستبدُّ به خوفهُ الذليل كان لا يفتأ يرفع شفته العليا كاشفًا بعض الشىء عن ثناياه فى ابتسامة صفراء ساخرة كما تفعل الكلاب .

قال لإيفيت : « لقد بلغنى أنك صادقت أخيراً مسز فوسيت التى

تُوشك أن تُطلَّق من زوجها وإيستوود القوّاد Maquereau[1]

ولم تدر ماذا تعنى كلمة « Maquereau » ولكنها أحسَّتْ بالسُّم فى أنيــاب القس . فقالت : « إنى أعرفهما فحسب . وهما غاية فى الرقة حقًّا . وسيُعقد قِرانُهما فى خلال شهر » .

فنظر القس فى كراهية إلى وجهها غير العابئ . كان يُحسُّ بالخوف فى إحدى زوايا نفسه . فهو جبان بالفطرة . وأولئك الذين جُبِلوا على الخوف هم عبيدٌ بالطبيعة ، تدفعهم غريزتُهم العميقة إلى الخوف المسموم ممن يتوقعون أن يضعوا حول أعناقهم فجأةً طَوْقَ العبودية .

لهذا السبب انهار القس فى ذِلَّة وضَعَة . نعم انهار فى ذلة وضعة أمام « المرأة التى تُدعى سنثيا » ؛ لخــوفه العبودى من احتقارها — احتقار الطبيعة التى ولدت حرة لتلك التى جُبِلَتْ على الخِسَّة والضَّعة .

كانت إيفيت أيضًا تتميَّز بفطرتها الحرة . ولن تلبث هى كذلك أن تعرفه يومًا من الأيام ويضع احتقارُها طوقَ العبودية حول عنقه .

هل تفعل ذلك ؟ ولكنه عندئذ سيُقاتل حتى الموت قبل أن يستسلم . كان العبدُ المنزوى فى نفسه لا يستطيع فِكاكًا فى هذه المرة كالفأر المحاصر وكان لا يفوقُه شجاعةً .

قال ساخراً : « أعتقد أنهما على شاكلتك ! »

فقالت فى غموضها المرح :— « حسنًا . هما كذلك بالفعل . ولشدَّ ما أُحِبُّهما . فهما يبدوان على جانبٍ كبيرٍ من القوة والنزاهة » .

---

(١) كلمة فرنسية معناها قواد .

فقال ساخراً : « ما أغربَ فكرتك عن النزاهة ! شاب عالة يهرب مع امرأة أسنّ منه ليعيشَ على نفقتها ! وتترك المرأة بيتها وأطفالها! لست أدرى من أين لك بهذه الفكرة عن النزاهة . أرجو ألا تكونى قد نقلتها عنى . كما يبدو أنك على صلة وثيقة بهما رغم ما تزعُمينه من أنها معرفةٌ فحسب . أين التقيتِ بهما ؟ »

ــ أثناء قيامى بنزهة بالدراجة . فقد أقبلا فى سيارتهما . وحدث أن تجاذبنا أطراف الحديث . فأخبرتنى المرأة فى الحال بمن هى حتى لا تُضَلِّلَنى . إنها امرأةٌ صادقة .

كانت إيفيت المسكينة تناضل لتتحمّل .

ــ وكم مرةً التقيتِ بهما منذ ذلك اللقاء ؟

ــ ذهبتُ إلى هناكَ مرتين فقط .

ــ هناك أين ؟

ــ إلى كوخهما فى سكورسبى .

فنظر إليها فى بُغْض وكأنه يريد أن يقتلها . ثم تقهقر بعيداً عنها كالفأر المحاصر مستنداً إلى ستائر النوافذ فى حجرة مكتبه . فقد كان فى إحدى زوايا عقله يظن بابنته شرَّ ألوان الفسق ، كما سبق أن خامره ذلك الظن بالمرأة التى تدعى سنثيا . كان عاجزاً أمام خــواطره التى لشدّ ما كانت وضيعة . وكانت ألوانُ الفسق التى راح يَصِمُ بها فى خواطره الفتاةَ الماثلةَ أمامه وهى لا تزال صامدةً له على الرغم من ذُعْرها تجعله ينكمش كاشفـًا عن جميع أنيابه فى وجهه الوسيم .

قال : « إذن فهى معرفةٌ فحسب . أليس كذلك ؟ إنى أرى الكذبَ يجرى فى دمك . ولا أظنك وَرِثته عنى » .

فأشاحت إيفيت قليلاً بوجهها الصامت وتذكَّرتْ مراوغة جدتها السافرة الوقحة . ولم تُحِر جواباً .

ثم قال ساخراً : « وماذا يدعوك إلى التسلُّل لزيارة أمثال هؤلاء الناس ؟ أليس فى العالم ما يكفى من المهذبين لتتعرفى بهؤلاء ؟ سيعتقد الناس أنك كلبٌ ضالٌّ عليه أن يحوم حول الفَجَرة لأن المهذبين لا يرغبون فى التعرف إليه . هل يجرى فى دمك ما هو شرٌّ « من الكذب؟ ».

فسألته قائلة : « وماذا فى دمى شرٌّ من الكذب ؟ »

وبدت تغشاها موجةٌ من الموت البارد . هل كانت شاذة ؟ هل كانت إحدى الشواذ من أنصاف المجرمين ؟ كان ذلك الخاطر يبعث فى أوصالها البرودة والموت .

كانت فى نظره تكشِفُ بلا حياء عن الفسق المستتر خلف قناع وجهها العَذْرى الرقيق الشبيه بوجه الطائر . فهكذا كانت « المرأة التى تدعى سنثيا » : زهرةً ثلجية . واعترت بدنَه تشنُّجاتٌ من الرعب السادى وهو يفكر فيما يمكن أن يكون عليه فسقُ « المرأة التى تُدعى سنثيا » . فى الواقع والحقيقة أن حبَّه إياها ذلك الحب الشهوانى المعروف عن جبناء الفطرة كان فى نظره فِسْقاً فى الخفاء . إذن فكيف يمكن أن يكون عليه العشقُ غير الشرعى ؟

فقال ساخراً : « أنت خير من يعرف ماذا فى دمك . ولكنه شىء خليق بك أن تكبحى جماحه وبسرعة إن كنت لا تريدين أن ينتهى بك المطاف إلى مصحة للجنون الإجرامى » .

فقالت وقد امتقع لونها وانعقد لسانها وغشيها خدر من الخوف المتجمد : « لماذا ؟ وفيم الجنون الإجرامى ؟ ما الذى فعلتُه ؟ »

فقال متهكماً : « هذا سر بينك وبين الخالق . لن أسألك عنه مطلقاً ولكن ثمة ميولاً معينة تنتهى بالمرء إلى الجنون الإجرامى ما لم تُكبَح فى حينها » .

فسألته إيڤيت بعد فترة صمت من الخوف المخدر قائلة : « أتقصد أن تقول كالتعرف بأسرة إيستوود ؟ »

— كالتحويم حول أناس على شاكلة مسز فوسيت اليهودية والماچور السابق إيستوود ذلك الرجل الذي يهرب مع امرأة أسن منه من أجل نقودها ؟ نعم إنى أقصد ذلك ؟

فصاحت إيڤيت قائلة : « ولكنك لا تستطيع أن تقول هذا فهو رجل "غاية" فى البساطة والصراحة » .

— من الواضح أنه على شاكلتك .

فقالت ببساطة وهى لا تكاد تعى ما تقول : « حسناً — أعتقد أنه كذلك على صورة ما . كما خُيِّل لى أنك ستُعجَب به » .

فتقهقر القس منزوياً داخل الستائر وكأن الفتاة تُهدده بشىء مخيف

ثم زمجر قائلاً فى ذلة :— «كُفِّى عن هذا الحديث. كُفِّى عن هذا الحديث . فقد قلتِ أكثر مما ينبغى لإدانتك . لا أريد أن أعرف المزيد من هذه الأهوال » .

فألحّتْ قائلة : « ولكن أية أهوال ؟ »

كانت تصدُّه بما فى براءتها من بساطة غير عابئة وتُشيعُ فى نفسه المزيدَ من الذعر .

فقال فى صوت خفيض كفحيح الأفعى : «كفى ! ولكننى سأقتلك قبل أن تحذى حَذْوَ أمك » .

فنظرت إليه وهو واقف أمامها مستندٌ إلى الستائر المُخمَّلية فى غرفة مكتبته وقد اصفرَّ لونُه واضطربتْ عيناه بالخوف والغضب والكراهية كعينى الفأر واعتراها إحساسٌ مُخدِّر بارد بالوحدة . فإن كلَّ شىء فى نظرها أيضاً قد فقدمعناه .

وتعذَّر تبديدُ ذلك السكون المتجمد المُجدب الذى أعقب هذا الحديث . ومع ذلك نظرت إليه أخيراً . فإذا بالاحتقار له يرتسم فى عينيها الغَضَّتين الصافيتين المغلوبتين على أمرهما على الرغم منهادون أن تَعِيَ ذلك . وإذا به يسقط فى النهاية حول عنقه كطَوْق العبد .

قالت : « أتعنى أنه يجب ألاّ أعرف أسرة إيستوود ؟ »

فسخر منها قائلاً : « يمكنك إن شئت أن تعرفيها ولكنك إن فعلت فلا بد أن تتوقَّعى قطيعةً بينك وبين الجدة والعمة سيسى ولوسيل .

فلا يمكننى أن أسمح بتدنيسهن . كانت جدَّتُك زوجًا وفية وأمًّا مخلصة، هذا إذا جاد الزمن بواحدة . وسبق أن تعرَّضَتْ لصدمة عار ودنس ولن تُصدمَ مرة أخرى » .

سمعت إيثيت ذلك كله فى غموض دون أن تعيه إلا قليلاً .

ثم قالت فى غموض : « يمكننى إبلاغهما أنك لا تُقِرّ علاقتى بهما » .

— « اتخذى ما شِئْتِ من سُبُل . ولكن تذكَّرى أنك يجب أن تختارى بين القوم الشرفاء واحترامك العميق لشيخوخة جدتك البريئة وبين الفَجَرَة عقلاً وجسداً » .

وساد الصمت مرة أخرى . ثم نظرت إليه وكان وجهها ينطِقُ بالحيرة الشديدة . ولكن هذه الحيرة كان يستتر وراءها فى مكان ما من نفسها ذلك الاحتقارُ العَذْرى الهادئ الغريب الذى يَكِنُّه من وُلدوا أحراراً لمن ولدوا أخِسَّاءَ فقد وُلد هو وجميعُ أفراد أسرة سايول متَّضعين أخِسَّاء.

قالت : « حسنًا . سأكتُب إليهما لأبلغَهما أنك لا تُقِر علاقتنا » .

فلم يُحِر جوابًا . لقد أشبع غروره إلى حَدّ ما، وراوده شعورٌ خفىٌّ بالنصر ولكن فى خِسَّة وضَعَة .

قال : « لقد حاولتُ أن أكتم هذا الموضوع عن جدتك وعمتك سيسى ، فلا حاجة لإذاعته على الملأ ما دُمتِ قد آثرت أن تجعلى

صداقتك بهما خفيّةً مستورة » .

وساد صمتٌ مُوحِش كئيب .

ثم قالت : « حسنًا . إنى ذاهبةٌ لأكتُبَ إليهما » .

وزحفت إلى خارج الغرفة .

وقد وجّهَتْ رسالتها الصغيرة إلى مسز إيستوود قائلةً : « عزيزتى مسز إيستوود . إن أبى لا يُقِر تردُّدى عليكما . ولذا فإنك ستفهمين السبب إذا اضطررنا إلى قطع هذه العلاقة . ولشدّ ما يؤسفنى ذلك». ولم تَزِدْ على هذا .

ولكنها أحسّتْ بفراغ كئيب عندما أرسلت الخطاب . فقد صارت عندئذ تخشى خواطرها الخاصة . وتمنّتْ حينئذ أن يضُمّها الغجري إلى صدره النحيل الجميل . أرادت أن يضمها بين ذراعيه ولو مرة واحدة ، مرة واحدة ، ليُخفّف عنها ويُعضّدَها . أرادت أن يؤيدَها ضد أبيها الذي كان لا يحس نحوها إلا بالخوف المنفِّر .

وفى الوقت نفسه كانت تنحنى فى ذِلّة ويقشعِرُّ بدنُها فى ألم حتى إنها لم تكد تقوى على السير خوفًا من ذلك الخاطر القذر البغيض : الجنون الإجرامى . فقد خُيِّل لها أنها إذا سارت جَرَحَ الخوفُ عقبَيها . إنه الخوف ، خوفُ أذلاء الفطرة الهائل البارد ، خوف أبيها وكل ما هو بشرىّ مائج . لقد غمرتها البشرية وكأنها مستنقعٌ ضخم غاصت فيه وهى تُحِسُّ بالوهن فى ركبتيها وقد امتلأت نفسها بالخوف والنفور ممن

يُصادفها من البشر جميعاً .

ومع ذلك فسُرعان ما واءمت بين نفسها وبين رأيها الجديد فى الناس . كان عليها أن تعيش، ومن العبث أن يُخاصِمَ المرءُ مورد حياته كما أنه من السُّخف أن يُسرف فى حسن ظنه بالحياة . ولذلك فقد واءمت بين نفسها وبين الحقائق الجديدة بكل ما أوتيت من قدرة على التكيف السريع امتاز بها جيلُ ما بعد الحرب . فلم يكن من سبيل إلى تغيير أبيها فهو لن يفتأ يُمالئ المظاهر وستحذو هى حذْو أبيها . فهى أيضاً سوف تُمالئ المظاهر .

وهكذا تكونت طبقةٌ صُلبة كالصخر المتبلْور فى قلبها خلف قناعٍ قوامُه نسيجٌ هائمٌ من عدم الاكتراث المَرِح الرقيق . لقد تبدَّدَتْ أوهامُها وأحلامُها بانهيار ما فى نفسها من إحساسات التعاطف . كانت فى ظاهرها تبدو كما هى . أما فى باطنها فقد تجمَّدَتْ وانعزلتْ وتحفَّزَتْ للانتقام دون أن تدرى ذلك .

ظلت محتفظةً بمظهرها . وكان ذلك جُزءاً من خطتها، فما دامت الظروف لم تتغيَّر فعليها أن تكون من الناحية المظهرية على الأقل وفيَّةً لالتزاماتها .

ولكن روح الانتقام كانت تتجلَّى فى نظرتها الجديدة إلى الناس . فكانت ترى تفاهة القس الضعيفة المتخاذلة تحت ستارٍ من شهامته الظاهرية . وكانت تشعر نحوه بالاحتقار . ولكنها مع ذلكً كانت تحبه

أيضًا على صورة ما . فلشدّ ما تتعقّد المشاعر .

وصارت تمقُت جدّتها بكل جوانحها . تلك العجوز المنبعجة القابعة فى ظُلمة عينيها كأكمة ضخمة من اللحم النافر ملطخةً بالحُمرة وقد غاص عنقُها بين كتفيها المرتفعتين وبين طيات اللحم المتهدلة من ذَقَنها الهَرِم . وهكذا كانت بلا عُنُق كإحدى ثمار البطاطس المزدوجة . كانت إيقيت تمقُتُها بحق مقتًا خالصًا مجرداً يكاد يكون متعةً للنفس ولشدّ ما خَلُصَ بغضُها إياها حتى إنها كانت تستمدُّ منه المُتعة ما دامت تُحِسُّ بالقوة .

كانت العجوز تجلس وقد ارتدّ إلى الخلف قليلاً وجهُها الكبير المُحْمَرّ واستقرّتْ فوق شعرها النحيل الأبيض قبّعتُها المصنوعة من الدانتلا على حين لايزال أنفُها المُدبّب يؤكد وجودَها وقد أطبقَ فمُها الهَرِم كالفَخّ . تلك الروح العجوز الحنون كان فمُها يشى بها . فقد كان دائمًا من ذلك النوع المُطبَق ولكنه صار فى شيخوختها بلا شفاه كفم الضِّفْدَع يرتفع فكُّه الأسفل ضاغطًا إلى أعلى كباب الفخ . وكان أشدّ ما تبغضه إيقيت منظرُ فكِّها السفلى وهو لا يفتأ يضغط إلى أعلى بحركة ممتدّة إلى الخارج مما يجعل أنفَها المدبّب يضغط بدوره إلى أعلى . وكان وجهُها بأجمعه مضغوطًا إلى الداخل قليلاً تحت جدار جبهتها العريضة . أما إرادة هذه المرأة العجوز تلك الإرادة الضِّفْدَعيّة الهرِمة البغيضة فكانت مخيفةً إذا ما رأيتها . كانت إرادةً ضِفْدَعية

مُلحدَة دون الإرادة البشرية ! كانت تنتمى إلى ذلك الجنس القديم المُعمّر من الضفادع أو السلاحف . وكان ذلك يوحى بأن الجدَّة لن تموت . بل ستواصل الحياة إلى الأبد فى غيبوبة نصفية كتلك الزواحف الراقية .

ولم تجرؤ إيثيت حتى على الإيعاز لأبيها بأن الجدة كانت دون الكمال خشية أن يُهددها بالمصحة العقلية ، ذلك التهديد الذى كان لا يفتأ يُردده وكأنه على طرف لسانه تماماً كما لو كانت كراهيَّتُها لتلك الجدة ولتلك الدار الرهيبة بمن فيها من أقارب هى فى حد ذاتها دليل الجنون الخَطِر .

ولكنها انفجرتْ ذات مرة فى إحدى حالات انقباضها الضَّجِر قائلةً :

— « ما أبشع هذه الدار ! ففيها تجتمع العمة لوسى والعمة نـــل والعمة آليس وتنضم إليهن الجدَّة والعمة سيسى فى حَلْقة كحلقات الغربان حيث يرفعن جميعاً أزُرَهن ويُدفئن سيقانهن على نار المدفأة بينما نُستبعد أنا وأختى لوسيل . فما نحن إلا غريبتان فى هذه الدار اللعينة ! »

فرمقها أبوها فى فضول . ولكنها نجحت فى أن تُضفى على حديثها شيئاً من الضيق والضجر وأن ترسم على وجهها تعبيراً يُنبئ بالوقاحة الغاضبة فحسب ، حتى تجعله يضحك كما لو كان انفجارُها سَوْرةَ غضب

صبيانية . ومع ذلك فقد كان يدرك فى مكان ما من نفسه أنها تعنى ما تقول فى عَمْدٍ وحقد مسموم . وكان منها على حَذَر .

وبدا لها عندئذ أن حياتها لم تَعُد أن تكون احتكاكاً مثيراً بأسرة سايول المنفِّرة التى انغمست فيها . فلشدَّ ما مقتت الأبرشية مقتاً استنفد حياتها بل مقتاً قوياً لم تستطع معه حقاً أن تغادر المكان ؛ فقد أحسَّتْ أنها مرتبطةٌ بالأبرشية فى نفور ما بقيت قائمةً وكأنها رهينةُ سحرها .

ونسيت أسرة إيستوود . فماذا كانت ثورة اليهودية الصغيرة قبل كل شىء بالقياس إلى الجدة وعُصبة سايول ! فالزوج لا يتجاوز مطلقاً أن يكون شيئاً من قبيل العوارض . أما العائلة ! العائلة البشعة العفنة التى تأبى أن تتفرَّق ، فقد اجتمع أفرادها من أنصاف الموتى حول قاعدة تقف عليها عجوزٌ كالكَمْء الهَرِم ! كيف السبيل إلى الاشتباك بهؤلاء والانتصار عليهم ؟ !

أما صورة الغجرى فإنها لم تفارق ذاكرتها كلية . ولكنها كانت لا تجد متسعاً من الوقت للتفكير فيه . بل كانت لا تجد متسعاً من الوقت للتفكير جِدياً فى شىء على الإطلاق برغم ما كانت تعانيه فى ملَلِها من ألم ممض يكاد يقتلها ، وبرغم فراغها التام فالوقتُ قبل كل شىء ما هو إلا تيار الروح فى تدفُّقها .

ورأت الغجرى مرتين . فقد جاءهم ذات مرة فى الدار ليبيعهم بعض السلع . وكانت إيفيت تراقبه من نافذة الدرج ولكنها أبَتْ أن تهبط إليه .

كما رآها هو أيضًا وهو يعيد الأشياء إلى عربته . ولكنه تجاهلها بدوره. ولما كان ينتمى إلى جنسٍ لا همَّ له فى الحياة إلا السَّطْو على الأطراف النائية من مجتمعنا وهو لا يفتأ يُضْمِرُ العداء دون أن تكون له وسيلةٌ للعيش سوى الغنائم والأسلاب . فلشدَّ ما كان الغجرى متحكِّمًا فى نفسه محاذراً أن يُعرِّض نفسه جهاراً لقبضة القانون العريضة المخيفة . فقد خاض الحرب وكان وقتذاك مسخَّراً مُستعبَداً على الرغم منه .

لهذا فإنه قد ظهر عند الأبرشية وهو يتشاغل بعربته فى بطء وهدوء خارج البوابة البيضاء يرين على مظهره التمرد الصامت الذي لا يعرف اللين أو الخضوع ، وكان ذلك لا يفتأ يُضْفى عليه رشاقته الضارية المنفردة . كان يُدرك أنها تراه . وينبغى أن تراه قويًّا صامداً وهو يبيع فى هدوء أوانيه النحاسية أثناء صراعه القديم مع أمثالها .

مع أمثالها ؟ ربما كان مخطئًا . عندئذ دوَّي وجيبُ قلبها كدقَّات مطرقته على الأوانى النحاسية طارقاً فى خفقاته الظروف المحيطة . كان الغجرى يطرق خِلسةً من الخارج بينما تطرق هى أكثر خلسة من داخل المبنى . كانت تهواه ، تهوى وجودَه الهادئ الصامت الواضح المحدَّد ، تهوى صمودَه الغامض ، صمودَه فى المقاومة دون تفكير فى النصر . كما أحبَّتْ فيه صلابتَه الغريبة المتزايدة ، ومجافاته للوهم فى عدائه وهى روح ما بعد الحرب . حقًّا فإنها إن كانت تنتمى إلى جانب من الجوانب أو عشيرة من العشائر فإلى جانبه وإلى عشيرته . بل كادت تُحِسّ فى

قلبها بالحنين إلى الذهاب معه حيث تُصبح امرأةً غجرية طريدة .

ولكنها وُلِدَتْ داخل الأسوار حيث ركنت إلى الراحة وتمتعت ببعض المكانة . فمع أنها كانت لا تعدو أن تكون ابنةً لراعى الكنيسة فلاشك أنها كانت تتمتع ببعض المكانة . وكان ذلك يروقُها . كما كان يروقُها أن تفرى أعمدة المعبد من الداخل . فقد أرادت أن تكون آمنةً مطمئنة تحت سقف المعبد . ومع ذلك كان يطيب لها أن تفرى شظايا صغيرة من الأعمدة التى يقوم عليها المعبد . فلا شك أن أعمدة معبد فلسطين كانت قد تفرَّتْ فى كثيرٍ من الشظايا قبل أن يُقوِّضه شمشون .

— «لستُ أدرى لماذا لا تأخذ الفتاة نصيبها من المتعة حتى تبلغ السادسة والعشرين من عمرها ثم تستسلم بعد ذلك وتتزوج ! »

كانت هذه هى فلسفة لوسيل التى تعلَّمتْها ممن يكبُرنَها سنًّا وكانت إيفيت فى الحادية والعشرين من عمرها . ومعنى ذلك أن أمامها خمس سنين أخرى يمكنها فيها أن تنال هذه المتعة الثمينة . وكانت تعنى عندئذ الغجرى . أما الزواج فى سن السادسة والعشرين فكان يعنى ليو أو چيرى .

وهكذا فإن المرأة يمكنها فى نفس الوقت أن تنال متعتها وتضمن حياتها .

ولشدَّ ما طعنت إيفيت فى السن وتذرَّعتْ بمنتهى الحكمة لاستغراقها فى عدائها الراكد البشع لأسرة سايول . كانت تتمتع بشيخوخة الشباب

وحكمته اللتين تفوقان دائماً شيخوخةَ المسنين أو الكهول وحكمتَهم .

وفى المرة الثانية التقت إيڤيت بالغجرى عن طريق الصدفة . وكان ذلك فى شهر مارس والطقس مُشمِس عقب أمطار لم يسمع بها أحد من قبل . وكانت نباتات « السِّلاندين » تحمل زهورها الصفراء فى الأسوار النبايتية كما أينعت زهور الربيع بين الصخور ، ومع ذلك فإن رائحة الكبريت المنبعثة من مصنع الصلب البعيد كانت لا تزال تهبّ عليهم من السماء الزرقاء التى تشبه الصلب فى لونها .

ولكن الوقت كان ربيعاً !

وكانت إيڤيت تقود دراجتها رويداً فى طريق كودنورجيت أمام محاجر الجير عندما رأت الغجرى خارجاً من باب كوخ حجرى بينما وقفت عربته فى الطريق . وكان عائداً إليها بمكانسه وأوانيه النحاسية .

فترجّلتْ عن دراجتها . وما إن رأته حتى استهوتها فى رقة غريبة معالمُ جسده النحيلة تحت سترته الخضراء اللامعة واستدارة وجهه الصامت . وأحسّتْ أنها تعرفه أكثر من أى شخص فى الوجود حتى لوسيل . وأنها مِلْكٌ له إلى الأبد على صورة ما .

سألته فى براءة وهى تنظر إلى أوانيه النحاسية قائلةً :— « هل صنعت شيئاً جديداً جميلاً ؟ »

فقال وهو يردُّ نظرتها بسرعة :— « لا أعتقد ذلك » .

كانت الرغبة لا تزال فى عينيه غريبةً سافرة . ولكنها خَبَتْ

قليلاً وخفَّت جرأتها . بل كان فى عينيه بريقٌ واهن وكأنه يمكنه أن يُبغِضَها . ولكن ذلك البريق ما لبث أن اختفى عندما رآها تتأمل قطع النحاس الحمراء والصفراء . أخذت تُقلِّبها فى نشاط .

فوجدت صَحْفةً نحاسيةً بيضاوية صغيرة نُقِشَتْ عليها صورة غريبة تُشبه إحدى أشجار النخيل .

قالت :— « تُعجِبُنى هذه الصَّحْفة . كم ثمنُها ؟ »

فقال :— « كما تشائين » .

فأثارها ذلك إذ بدا لها أنه غير عابئ بها ، بل يكاد يكون ساخراً. فتطلَّعَتْ إليه ببصرها قائلةً :— « أفضِّل لو ذكرت لى ثمنها » .

فقال :— « أعطِنى ما تشائين » .

فقالت فجأةً :— « كلا ! لن آخذها ما لم تخبرنى بثمنها » .

فقال :— « حسنًا . ثمنُها درْهَمَان » .

ووجدت معها نصف كراون ، فأخرج من جيبه حُفْنَةً من النقود الفضية وأعطاها منها نصف درهم .

قال وهو ينظر إليها بعينين مستطلِعتين فاحصتين :— « تراءى للغجرية العجوز فى الحُلم شىءٌ عنك » .

فصاحت إيڤيت قائلة وقد أثير اهتمامُها فى الحال : — « حقًّا ! وماذا كان ذلك ؟ » .

— « قالت : تذرَّعى بمزيد من الشجاعة فى قلبك وإلا خسرتِ الشوط » . . . . وكان نصٌّ عبارتها كالآتى : « تذرَّعى بمزيد من الشجاعة فى جسدك وإلا تخلى عنك الحظ » . كما قالت : « وتنبَّهى لصوت الماء » .

وكان لذلك تأثيرٌ عميقٌ عليها .

فسألته قائلةً :— « وما معنى ذلك ؟ »

قال :— « لقد سألتُها عنه فقالت إنها لا تدرى » .

فقالت إيڤيت — « أَعِدْ ما قالته » .

— « تذرَّعى بمزيدٍ من الشجاعة فى جسدك وإلا تخلَّى عنك الحظ » ، كما قالت « وتنبَّهى لصوت الماء » .

نظر فى صمت إلى وجهها الساهم الرقيق . وبدا له أن شيئًا ما يكاد يُشبه العِطْر أخذ يتدفَّق من صدرها الغض نحوه مباشرةً فى مودَّة وامتنان .

فقالت :— « ينبغى أن أتذرَّع بمزيد من الشجاعة فى جسدى وأتنبَّه لصوت الماء ؟ حسنًا ! لستُ أدرى ماذا تقصد ولكننى ربما فهمت ذلك فيما بعد » .

نظرت إليه بعينين صافيتين . فالإنسان ، رجلاً كان أو امرأة ، ذو أنفُسٍ كثيرة . وكانت إيڤيت تحب ذلك الرجل الغجرى بنفْسٍ واحدة ولكنها تتجاهله أو تنفرُ منه بما لها من أنفُسٍ أخرى كثيرة .

سألها قائلاً : — « ألستِ قادمةً إلى الهيد مرة أخرى ؟ »

فعادت تنظر إليه فى شرود قائلة :

— « ربما . يومًا ما » .

فقال مُديراً بصره نحو الشمس وقد ارتسمَتْ على وجهه ابتسامةٌ واهنة : « إنه الربيع ولن نلبث أن نشُدَّ رحالنا » .

فقالت :— « متى ؟ »

— « ربما فى الأسبوع القادم » .

— « إلى أين ؟ »

فحرَّك رأسه مرةً أخرى .

ثم قال :— « ربما نحو الشمال » .

فنظرت إليه ثم قالت :— « حسنًا ! ربما جئتكم قبل رحيلكم لأودِّع زوجتك والعجوز التى بعثت إلى بهذه الرسالة » .

٩

ولكن إيفيت لم تَفِ بوعدها ومضى شهر مارس بأيامه القليلة الجميلة دون أن تستغلَّها . فقد كان لا يفتأ يخالجها إحجامٌ غريب عن كل تصرُّف إيجابى أو حركة حقيقية من جانبها — كانت تريد دائمًا أن يقوم عنها شخصٌ آخر بهذه الحركة وكأنها لا تريد أن تؤدى دورها فى الحياة .

وعاشت كما تعوّدَتْ أن تعيش ، فكانت تخرج للقاء أصدقائها ولحضور الحفلات ومراقصة ليو الذى لم يفُتّ فى عَضُدِه شىء . أرادت أن تذهب لتوديع الغجر . أرادت ذلك ولم يكن هناك ما يمنعها منه .

وفى أصيل يوم الجمعة بالذات رغبت فى الذهاب . كان الطقس مشمساً وكانت آخر أزهار الكُركُم الصفراء على طول الممر فى أبهى ألوانها يانعة متفتحة فى حين أنها راحت تتقلَّب فيها أول أسراب النحل . وكان نهر بابل يندفع تحت الجسر الحجرى زاخراً بالمياه على صورة غريبة مخيفة يكاد يملأ حنايا القناطر . وتضوّع أريجُ شجرة المزيريون .

ولشدّ ما أحست بالكسل الكسل فهامت على وجهها فى الحديقة على مقربة من النهر فى انتظار شىء ما وهى فيما يشبه الحلم ، وقررت ألا تعود إلى الدار مادامت شمسُ الربيع تلمع فى الأفق . أما فى داخل الدار فكانت الجدة تجلس متكئةً إلى الخلف كأسقف رهيبٍ مُسنّ ، وقد

تدثّرتْ بثوب عظيم من الحرير الأسود ووضعت فوق رأسها قبعتها البيضاء المصنوعة من الدانتلا . كانت تُدفّئ قدميها بالقرب من النار وتستمع إلى كل ما تقصُّه عليها العمة « نل » . فقد كان يوم الجمعة هو اليوم المحدد لزيارة العمة « نل » حيث تتناول معهم الغداء عادةً ثم تفارقهم بعد تناول الشاى فى ساعة مبكرة . وهكذا جلست الأم تُثرثر على مقربة من نار المدفأة مع ابنتها الضخمة التى تميل إلى السوقية والتى ترمّلَتْ فى سن الأربعين ، فى حين أن العمة سيسى لا تفتأ تحوم حولهما . وفى يوم الجمعة كان راعى الكنيسة يذهب إلى المدينة . كما تذهب الخادم أيضًا فى إجازة نصف اليوم .

جلست إيڤيت على مقعد خشبى فى الحديقة ، لايتجاوز ارتفاعه بضع أقدام ، فوق ضفة النهر الزاخر الذى كان يموج بخضمّ غريب رهيب . وكانت نباتات الكركم تمتدّ إلى أحواض الزهور المُلوّنة وكان العشبُ داكن الخضرة حيث جُثّ بالمِحشّة . أما الغار فكان يبدو أكثر تألقًا إلى حد ما . وظهرت العمة سيسى فوق قمة درج المظلة حيث صاحت تسأل إيڤيت إن كانت تريد قدحاً من الشاى فى تلك الساعة المبكرة . ولكن إيڤيت لم تسمع ما قالته العمة سيسى لأن النهر كان يتدفق تحت قدميها تمامًا ولكنها تكهنت بذلك وهزّتْ رأسها . أتدخل الدار لتأخذ قدحًا من الشاى فى هذه الساعة المبكرة والشمس ما زالت مشرقة ؟ لا . شكراً !

كانت تحسّ برَجُلها الغجرى وهى جالسة فى ضوء الشمس مستغرقة فى تأملاتها . وقد ألِفَتْ روحُها أن تفارقَها فى قليل من

الألم والراحة لتهيم بعيداً فى مكان ما حيث يوجد من شَغَل عليها خيالها . فى بعض الأحيـــان تكون مع أسرة فريملى مع أنها لم تذهب إليهم . وفى أحيانٍ أخرى تقيم روحُها مع أسرة إيستوود ولا تفارقها أبداً . أما يومذاك فكانت مع الغجر . كانت معهم فى مخيَّمهم عند المحجر حيث تراءى لها الرجل وهو يطرقُ النحاس رافعاً رأسه لينظر إلى الطريق، فى حين أخذ الأطفال يلعبون فى حظيرة الخيول . أما المرأتان وهما زوجةُ الغجرى والمرأة النَّصف القوية ؛ فقد كانتا فى طريقهما إلى المخيَّم تحملان الصُّرر فى صُحبة الرجل الكهل . وانتابها فى هذا الأصيل إحساسٌ عنيف بأنها هناك فى بيتها حيث مُخيَّم الغجر والنار . والمقعد الخفيض . والرجل ذو المطرقة والمرأة العجوز .

وكانت هذه النوباتُ من الحنين إلى مكان تعرفه تُكوِّنُ جزءاً من طبيعتها ، حنينها لأن تكون فى مكان ما مع شخص ما تتمثَّل فيه بيتها . وكان هذا المكانُ يومئذ هو مُخيَّم الغجر وقد جعل منه الرجل ذو الصدير الأخضر بيتاً لها . فحيثما تُوجد معه يوجد بيتُها . فكانت عربات القافلة والأطفال والنساء الأخريات وكل شىء طبيعيّاً فى نظرها ، فهو بيتها وكأنه مسقط رأسها . وتساءلت عما إذا كان الغجرى يُحس بها ، وعما إذا كان يمكنه أن يراها جالسةً على المقعد الخفيض بالقرب من النار ، وعما إذا كان يرفعُ رأسَه ليرنو إليها وهى تنهض ناظرة إليه بطَرْفها الفاتر نظرةً ذات معنى ، ثم تتجه بعد ذلك صوْب درج عربته . هل كان يعلم ؟ هل كان يعلم ؟

وتطلَّعَتْ ببصرها فى غموض إلى مُرتفَع أشجار الشربين القائمة فى الجهة الشمالية من الدار حيث يعلو الطريق مختفياً عن الأنظار متجها إلى « الهيـــد » ولكنها لم تر شيئًا هناك فخفَضَتْ بصرها مرة أخرى . كان النهر ينحدف أسفل المُنحدر مرتطمًا بالصخور الواطئة القائمة عَبْر النهر فيرتدُّ فى عنف مُنذرٍ بالشؤم ثم يتدفَّق فيما وراء الحديقة نحو الجسر . كان زاخراً بالماء على صورة غير طبيعية كثيفًا غليظًا مُحمَّلاً بالطمى الأبيض . وحدَّثتْ نفسها قائلةً : « تنبَّهى لصوت الماء ولكنه لا داعىَ لذلك إن كان صوته معناه الضوضاء ! » .

ثم عادتْ فنظرت إلى النهر الزاخر وهو يتكسَّر فى غضب عند انحرافه حول المنحنى . ومن فوقه تعلَّقَتْ حديقةُ المطبخ التى بدت سوداء اللون حيث نمَتْ أشجار الفاكهة بطبيعتها القاسية . كان كل شىء على المُنحدر يواجه الجنوب والجنوب الغربى من أجل الشمس . وفيما وراء ذلك تعلَّقتْ فوق الدار وفوق حديقة المطبخ غابةٌ صغيرة شديدة الانحدار من أشجار الشربين كان يبدو عليها الذبول . وهناك فى أعلى كان البستانى يعمل فى حديقة المطبخ بالقرب من حافة الغابة .

وسَمِعَتْ نداءً . كانت العمة سيسى والعمة نل تسيران فى الممر وهما تلوِّحان لها مودِّعتين . فلوَّحتْ لهما إيثيت . وهتفت العمة سيسى رافعةً صوتها فوق صوت الماء :ــ «لن يطول غيابى . ولا تنسَى أن الجدة وحدها!» فصرخت إيثيت قائلةً بصوتٍ ضعيف إلى حد ما : ــ « حسنًا ! »

وجلست على مقعدها تراقب المرأتين غير الوقورتين بسترتيهما الطويلتين وهما تسيران فى بطء فوق الجسر ، ثم تأخذان طريقهما فى المنحنى الصاعد إلى أعلى المنحدر المواجه . وكانت العمة نل تحمل حقيبةً أحضرتْ فيها إلى الجدة بعض السلع ثم عادت تحمل فيها بعض الخضراوات أو شيئاً من ثمار الحديقة أو مئونة الأبرشية . وأخذ الشبحان يتضاءلان رويداً فى الطريق الأبيض المنحنى إلى أعلى وهما تتجهان فى بُطء ومشقّة نحو قرية پاپلويك . فقد كانت العمة سيسى ذاهبةً إلى القرية لقضاء حاجة ما .

وكانت الشمس تميل صفراء نحو الغروب . وا أسفاه ! وا أسفاه ! فقد أشرف اليوم المُشمس على نهايته وكان عليها أن تدخل الدار حيث تلك الغُرَف البغيضة وحيث الجدّة ! ولكن العمة سيسى لن تلبث أن تعود . فقد جاوزت الساعة الخامسة . أما الباقون فلن يلبثوا أن يعودوا من المدينة بعد السادسة بقليل وهم يشعرون بشىء من الضجر والإعياء .

وبينما كانت تنظر حولها فى قلق إذ بها تسمع عبر المياه المتدفقة ضوضاء حادة لحصان وعربة يُجلجلان فى الطريق المختفى بين أشجار الشربين . وكان البستانى أيضاً يتطلّع ببصره إلى مصدر الصوت . وعادت إيڤيت فاستدارت ثم مشت متوانيةً بضع خطوات فى تجوالها بالقرب من النهر الزاخر مُحْجِمةً عن دخول الدار وهى تتطلّع ببصرها إلى الطريق لترى ما إذا كانت العمة سيسى قادمةً حتى إذا ما وقع عليها

بصرُها دلَفتْ إلى الداخل .

وسمعت شخصاً يصيح فنظرت حولها . فإذا بالغجرى يعدو فى الممر خلال أشجار الشربين . وإذا بالبستانى أيضا يركُضُ من بعيد . وفى نفس اللحظة أحسَّتْ بزئير هائل تضاعف دويُّه حتى صار يُصمُّ الآذان قبل أن تستطيع حراكًا . كان الغجرى يأتى حركاتٍ بيديه . فنظرت خلفها .

ولشدَّ ما كان رعبها ودهشتُها عندما رأتْ عند منحنى النهر جبهةً من الأمواج الخشنة الغزيرة السمراء تتقدم نحوها كحائط من السباع . وكان الصوتُ الراعد يكتسح كل شىء أمامه . فانهارت قواها لهول ما استحوذ عليها من الدهشة والعجب . وأرادت أن تراها .

وقبل أن تتمكَّن من معاودة التفكير كانت الموجـــةُ تدنو منها كصخرة من المياه الهادرة . فأوشكتْ على الإغماء من الرعب . وسمعت صرخة الغجرى فرفعت بصرها لتراه وهو يثب نحوها وقد جحَظَتْ عيناه السوداوان فى رأسه .

صرخ قائلاً وهو يمسك بذراعها : — « اركضى ! » .

وفى نفس اللحظة كانت أولى الموجات تجرُفُ قدميها من تحتها وهى تدور فى دوَّامة وسط هذا الصخب الجنونى الذى بدا فجأةً كالسكون لسبب ما ؛ فى حين جرف الفيضان حديقة الدار . إنه الماء فى حصاده الرهيب .

وأخذ الغجرى يجرُّها فى صعوبة وهما يترنَّحان تارة ويغوصان فى

الماء تارة أخرى ولكنهما ظلا يخطُوان فى ثبات متَّجهيْن إلى صوب الدار . كانت لا تكاد تعى شيئًا وكأن الفيضان يغمر روحها .

ولم يكن بالحديقة سوى مُرتفع واحدٍ من الأرض تحيط به الحشائش بالقرب من الممر المحيط بالدار . فتسلق الغجرى بمخالبه هذا المرتقى ليبلغ أرض الممر الجافة وهو يجرُّها خلفه ثم قفز بها إلى درج المظلة أمام النوافذ . ولكن ثمة موجةً جديدة هائلةً كانت تجتثُّ كل شىء فى طريقها حتى الأشجار داهمتهما فأطاحت بهما .

وأحسَّتْ إيفيت بنفسها مدفوعةً فى هدَّارٍ مؤلم من الماء المتجمِّد لم تفتأ تدور فيه دون أن تحتمى بشىء سوى قبضة الغجرى المخيفة على رُسغها . وسقط كلاهما فى الماء ثم جرفهما التيار . وأحسَّتْ بكدمة كليلة فى مكان ما من جسدها أصابتها بدُوار .

ثم جذبها إلى أعلى . كان واقفًا ينبثق الماءُ من فيه وقد تشبَّث بجذع شجرة ويستيريا سامقة كانت تنمو بجانب الحائط فى حين أنه انهال عليه الماء يسحقه سحقًا على الجدار . كان رأسُها يطفو فوق سطح الماء وهو ممسكٌ بذراعها حتى خيل لها أنه خُلِعَ من مِفْصَله ولكنها لم تَقْوَ على الوقوف على قدميها فأخذت تناضل وتناضل فى سَقَمٍ رهيب كالحُلم ولكنها لم تستطع الوقوف على قدميها . ولم يَحْمِها سوى يده التى أطبقَتْ على رُسغها .

أخذ يجرُّها قريباً منه حتى أمسكتْ يدُها الأخرى بساقه . فأوشك

على السقوط فى الماء مرة أخرى . ولكنه تشبَّثَ بشجرة الويستيريا التى حمتْه من السقوط ثم جذبها نحوه إلى أعلى . فأنشبتْ فيه مخالبها على صورة رهيبة حتى وقفت على قدميها فى حين أنه ظل مُعلَّقًا على جذع الشجرة كرجل مشطور إلى نصفين .

وارتفع الماء إلى ما فوق ركبتيها . ونظر كل منهما فى وجـــه الآخر ؛ فكان كلاهما مخيفًا يتصبَّب منه الماء .

صرخ فيها قائلا : — « اذهبى إلى الدرج ! » .

كان الدرج عند زاوية الدار . على بُعد أربع خطوات ! فنظرت إليه . كان لا يمكنها ذلك . فحدَّقتْ فيها عيناه كعينى النَّمِر ودفعها بعيداً عنه . فتشبَّثتْ بالحائط وبدا أن الماء قد هدأ قليلا . ولكنها ترنَّحتْ عند الزاوية وأحستْ بالدُّوار فاستندتْ إلى حافة السور المُقام على درج المظلة ومشى الرجل فى أثرها .

وما إن بلغا الدرج حتى سمعا زئيراً آخر فى وسط الهدير واهتزَّ جدار المنزل . وارتفع الماء حتى أحاط بسيقانهما مرة أخرى ولكن الغجرى كان قد فتح باب الردهة فاندفعا مع الماء إلى داخل الدار حيث ترنَّحا متجهين إلى الدرج الداخلى . وبينما هما يفعلان ذلك وقع بصرُهما على الجدة التى بدت عند ظهورها فى الردهة بعيداً عن باب غرفة الطعام كالكتلة القصيرة الغريبة . وما أن التفتْ أولى موجات المياه بساقيها

حتى رفعت يديها وتقلّصَتْ أصابعُها وفغرت فاها كالتابوت فى صرخة جشّاء .

وكُفَّ بصرُ إيڤيت عن كل شىء سوى الدرج — كُفَّ بصرُها وغاب وعيُها عن كل شىء سوى الدرج الذى يرتفع بعيداً عن الماء فارتقته على أربع كالهِرَّة وهى مبتلّةٌ ترتجف وقد غاب وعيُها . ولم تُحس بالغجرى المبلّل بالماء عند قمة الدرج وقد تولّته نوباتُ السعال واختفت قلنسوتُه وسقط شعره الأسود على عينيه فأخذ يُحدّق من خلاله إلى اندفاع المياه المروع فى ردهة الدار فى أسفل — لم تُحس به إلى أن بلغتْ بسطةَ الدرج يقطُرُ منها الماء وتنتابها القُشَعْريرة حتى إنها لم تستطع أن تنصِبَ قامتها وهى تتشبّث بسور الدرج فى حين راح البيتُ يهتزُّ والماء يعوى فى أسفل . ونظرت إيڤيت أيضا وهى فى شبه إغماءة فرأت الجدّة تعلو فوق الماء كالطوف الغريب وقد احمر وجهُها بلون القِرمز وجحظتْ عيناها الزرقاوان المكفوفتان وأخذ فمُها ينفُثُ الزَّبَد . وامتدّت يدُها العجفاء القِرمزية لتقبض على سياج السور بمخالبها فتشبّثتْ به لحظة حيث لمع خاتمُ الزواج فى إحدى أصابعها .

وقال الغجرى بعد أن هدأ سعاله وأبعد شعرَه إلى الخلف مخاطبًا وجهها الرهيب الشبيه بالطَّوْف فى أسفل قائلاً : — « ما أبشعه ! ما أبشعه ! » .

وارتطم المنزل بالماء من جديد فى هَدَّةٍ خفيضة كالرعد فاهتزّت

أرجاءُ الدار ثم سُمِعَتْ ضوضاء تصدُّع غريب يُدوِّى مقعقعًا . وارتفع الماء كالبحر . واختفت يدُ الجدة وتلاشتْ معالم كل شىء فيما عدا ذلك اللُّجّ المندفع المرتفع .

واستدارتْ إيثيت فى جنونٍ أعمى فاقدةً الوعى ثم اتجهت مترنِّحةً كالقط المبتلّ نحو الدرج الأعلى وتسلَّقتْه مسرعةً . ولم تتوقف إلا عند باب غرفتها حيث أشلَّ حركتَها هديدُ انهيارٍ مُروِّع ممزِّق ارتجَّتْ له أركان الدار .

فصرخ وجه الغجرى الأخضر الشاحب فى وجهها قائلاً : — « المنزل ينهار ! » .

ثم حدّقَ فى وجهها المخبول قائلاً : — « أين المدخنة ؟ المدخنة الخلفيَّة ؟ — فى أية غرفة هى ؟ فإنها ستصمُد . . . »

حدَّق فى وجهها بشراسة غريبة وهو يُرغمها على الإدراك . فأومأتْ بحركة غريبة مخبولة من رأسها . أو مأت فى هدوء تام قائلة : — « ها هنا ! ها هنا ! إنه مكان أمين » .

فدخلا غرفتها التى كانت مزوَّدةً بمدفأة صغيرة — كانت غُرفةً خلفية تُطلُّ منها نافذتان كلٌّ منهما على أحد جانبى أنبوبة المدخنة الضخمة . واتجه الغجرى ليستطلع من النافذة وهو يسعلُ فى عُنفٍ وقد انتابته الرَّجْفة فى جميع أطرافه .

كان يندفع فى أسفل فيما بين الدار ومرقى التل الوَعْر هدَّارٌ جنونىٌّ

من الماء يحمل معه النفايات بما فى ذلك بيت الكلب روفر الأخضر . وأخذ الغجرى يسعُلُ ويسعُلُ وهو يحملق نحو أسفل فى شرود . وراحت الأشجار تتهاوى إحداها بعد الأخرى أمام قوة المياه الكاسحة وكان لا يقلُّ عمقُها عن عشر أقدام .

واستدار الغجرى نحو إيفيت وهو يرتجفُ ضاغطًا بذراعيه المبتلَّتين على صدره المبتلِّ وقد ارتسمتْ على وجهه الأزرق نظرةُ استسلام . وإذا بدَوِىٍّ مخيفٍ عنيفٍ يُمزِّق الدار ثم أعقبه انفجارٌ مائىّ عميق . كان صوت انهيار شىء ما . إنه جزءٌ من الدار . وتموَّجَتْ الأرض ومادت من تحت أقدامهما . وظل كلاهما بضعَ لحظاتٍ مروَّعاً مشدوهًا ؛ ثم أفاق قائلا : — « ما أبشع هذا ! أترين! هذه المدخنة ! إنها كالبرج . نعم ! فلتطمئنِّى ! اخلعى ملابسك واذهبى إلى الفراش وإلا مُتّ من البرد » .

فقالت له وهى تجلس على مقعد متطلِّعة إلى مُحيَّاه بوجهها الأبيض الصغير المخبول وقد التصقَ الشعرُ من حوله : — « أنا بخير — أنا بخير تمامًا ! » .

فصاح قائلاً : — « كلا ! كلا ! اخلعى ملابسك وسأجفّفُك بهذه المنشفة كما أجفّف نفسى . فإذا ما انهارت الدار متْنا فى دِفْءٍ وإلا كُتِبَتْ لنا الحياةُ ولم نهلكْ بالالتهاب الرئوىّ » .

ثم جذب سُترته إلى أعلى وهو يسعل ويرتجف فى عُنف وأخذ

يجاهد بكل قوته المرتجفة التى حطَّمها البرد ليخلع سترته المبتلَّة المُحكمة .

صاح قائلاً وقد كُمَّ وجهُه بالسُّترة : — « أعينيني ! » .

فأمسكت بطرف السترة ممتثلةً لأمره وجذبتها بكل قوتها . فانتزعت السترة من فوق رأسه ووقف فى سراويله تشدُّها حمَّالتُه .

أمرها قائلاً فى شراسة وقد بدت عليه وحشية الحرب : — « اخلعى ملابسك ! وَجفِّفى جسدَك بهذه المِنْشفة ! » ثم نزع سرواله كمن تقمَّصَتْه روحٌ شريرة وتخلَّص من قميصه الملتصق المبتلّ فظهر جسده النحيل الأزرق وقد تولَّته الرَّجفة فى جميع أنسجته من البرد والصدمة .

ثم أمسك بِمنْشَفة وأخذ يُجفّف جسده بسرعة فى حين أنه لم تفتأ أسنانه تصطك كصلصلة الصحاف بعضُها ببعض . ورأت إيڤيت فى غموض أنه كان حكيمًا فى ذلك . فحاولت أن تتخلَّص من ثوبها . فنزع عنها ذلك الثوب الرهيب المميت المبتل ثم اتجه نحو الباب فوق الأرض المبتلَّة على أطراف أصابعه وهو يواصل تجفيفَ بدنه .

وهناك وقف عاريًا متصلِّبًا والمِنْشَفَةُ فى يده . نظر نحو الغرب حيث كانت تقوم نافذة البسطة العُليا ثم راح يتطلَّع إلى الشمس الغاربة فوق بحرٍ مسعور من الأمواه تغطيه الأشجار المجثثة والنفاية . كما تلاشتْ ناصية الدار القصية حيث كانت تقوم المِظلَّة ودرجاتُ

السلم . فقد انهار الجدار كاشفًا عن الطوابق فوقفت بارزةً فى الهواء . كما اختفى الدرج .

وقف يرقُبُ الماء فى سكون . وهبَّتْ عليه ريحٌ باردة . فأطبق على أسنانه المصطكة بمجهود هائل من إرادته ثم استدار إلى داخل الغرفة مرة أخرى مُغلقًا الباب من خلفه .

كانت إيڤيت تُحاول أن تُجفّف جسدها وهى عارية ترتجف رَجْفةً شديدة أصابتها بالغثيان .

صاح قائلاً :— «أبشِرى! أبْشِرى! فالماءُ لم يعُدْ يرتفع! أبْشِرى!»

وبدأ يُجفّف جسدها بمنشفته وهو ينتفض فى جميع أجزاء بدنه ولكنه ظل قابضا على كتفها وهو يُجفّف جسدها الرقيق فى بُطْء وحذر ، كما حاول أن يُجفّف إلى حد ما شَعْر رأسها الصغير الذى كان يثير الرثاء .

وفجأة توقّف .

ثم أمرها قائلاً : — « يحسُنُ بك أن ترقدى فى الفراش . فإنى أريد أن أجفِّف نفسى » .

كانت أسنانُه تصطك وتصطكُّ وتصطك فى قضقضة هائلة تقطع عليه كلماته . وزحفت إيڤيت وهى تنتفض فى شبه غيبوبة إلى داخل فراشها . أما هو فظل يبذل جهوداً مُضنية ليحتفظ بثباته ويُدفئ نفسه بالتجفيف ثم اتجه مرة أخرى إلى النافذة الشمالية ليتطلع إلى الخارج .

كان الماء قد ارتفع قليلاً . ومالت الشمسُ للمغيب فرأى فى الأفق وَهَجًا يميل إلى الحمرة . أخذ يجفف شعره حتى صنع منه عقدة سوداء مبتلَّة ثم توقف قليلاً ليلتقط أنفاسه ، وقد سَرَتْ فى بدنه انتفاضةٌ فُجائية . وتطلَّع مرة أخرى إلى الخارج وهو يمسح صدره من جديد وعاوده السُّعال بسبب الماء الذى ابتلعه . كانت منشفته قد احمرَّ لونها . لقد جُرِحَ فى مكان ما ولكنه لم يشعر بشىء .

كانت لا تزال هناك ضوضاء الماء الغريبة المُدوِّية ، وذلك الهديدُ الرهيب لارتطام الأشياء بالجدران . وبدأت الريح تهبُّ مع غروب الشمس باردةً قاسية. وراح المنزل يرتج بهدَّاتٍ متفجِّرة فى حين لم تفتأ تتصاعد جَلَبَةٌ غريبة ، غريبة مخيفة .

وأخذ الرعب يغشى روحه فعاد مرة أخرى إلى الباب . وما إن فتحه حتى هبَّتْ الريح إلى الداخل مُدوِّيةً بهدير المياه . ومن خلال الثغرة الرهيبة فى البناء رأى العالم أمام عينيه ؛ الأمواه . فوضى الأمواه الرهيبة وضوءَ الشَّفَق والقمرَ الرائع الوليد يلوح عاليًا فوق الشمس الغاربة وقد خبا سناه، والسحب السوداء تتدافع فى السماء على مَتْن ريحٍ باردة عاصفة .

ثم عاد إلى داخل الغرفة مغلقًا الباب وقد أطبقَ على أسنانه مرة أخرى وفى روحه مزيجٌ من الخوف والاستسلام أو القدرية ثم التقط مِنْشَفَتَها ليرى ما إذا كانت أكثر جفافًا من منشفته وأقل تلوُّثًا

بالدماء . وعاد يجفف رأسه متجهاً إلى النافذة .

ثم استدار بعيداً وقد عجز عن التحكم فى نوبات القشعريرة التى لم تفتأ تسرى فى بدنه . كانت إيقيت قد اختفتْ تماماً تحت مُلاء الفراش ولم يعُدْ يبدو منها شيءٌ سوى أكمَة مرتعشة تحت الملاءة البيضاء . فوضع يده على هذه الرابية المرتجفة وكأنه يريد أن يؤنس وحدته ولكنها ظلت تنتفض .

قال : — « أبْشِرى ! أبْشِرى ! فالماء يهبط ! » .

وفجأةً كشفتْ عن رأسها وتفرَّسَتْ فيه بوجهها الأبيض . تفرَّسَتْ فى وجهه المائل إلى الخضرة وقد اكتسى بهدوء غريب وغيبوبة نصفية ولم تفتأ أسنانه تصطك دون أن يُعيرها اهتماماً وهو يحملق فيها فى حين أنه لم تزل عيناه السوداوان تتألقان بسعير الحياة وهدوء الشريد الذى أضفاه عليه استسلامه القدرى .

وتأوَّهَتْ قائلةً بأسنان مصطكَّة : — « أدفِئْنى ! أدْفِئْنى ! وإلا متُّ من الرجفة » .

وَسرَتْ فى بدنها الأبيض المتقلِّص قُشعَريرةٌ رهيبةٌ خليقةٌ بلا شك أن تُمزِّقَها وتُودى بحياتها .

فأومأ الغجرى برأسه وضمَّها بين ذراعيه فى عناق قوى مُحكَم كالمِشَدّ اللولبى ليُهدّئ من قشعريرته . فقد كان هو نفسه يرتجف من أثر الصدمة على صورة مخيفة وهو فى شبه غيبوبة .

ولم يكن فى وعْيها سوى نقطة ثابتة وحيدة هى عناقه إياها فى قوة وكأنه مِشَدٌّ لولبى . ولشدَّ ما أشعرها ذلك بالراحة فى قلبها بعد ما كاد ينفجر من شدة التوتُّر . وعلى الرغم من القُشَعْريرة التى لم يفتأ يموجُ بها جسده كالتيار الكهربى وهو يحتضنها غريبًا قويًّا لدْنًا كالمجَسّ فقد هدَّأ من رُوعِهما توتُّر عضلاتهما فى تصلُّب ذلك التوتُّر الذى تسبَّب فى تقلُّص بدنها . ثم أخذ عُنفُ القُشَعْريرة المُمِضّ من أثر الصدمة يهدأ رويداً فى بدنه أولاً ثم فى بدنها بعد ذلك وانبعثَ بينهما الدفءُ فغابَ عن الوعى عقلاهما وقد أمضَّتهما الغيبوبة النصفية ثم استغرقا فى النوم .

* * *

١٠

كانت الشمس تُشرِقُ فى كبد السماء قبل أن يتمكَّن الرجال من عبور نهر بابل فوق السلالم الخشبية . فقد اختفى الجسر ولكن الفيضان قد انحسر . وعندئذ أضحى المنزل المائل إلى الأمام وكأنه ينحنى فى تصلُّب احترامًا للنهر ، أضحى قائمًا وسط الأوحال والحطام وقد تكدَّسَتْ كومةٌ كبيرة من الأنقاض والنفايات فى الناحية الجنوبية الغربية منه ولشدَّ ما كانت أفواه الغرف الفاغرة رهيبةً مخيفة .

أما فى داخله فلم يكن هناك أثرٌ للحياة . ولكن البستانى جاء

عبر النهر ليتعرَّف على المكان كما ظهرت الطاهية يهزُّها الفضول . وكانت قد هربت من الباب الخلفى واخترقت غابة الشربين حتى بلغت الطريق الرئيسى عندما رأت الغجرى يعدو أمام الدار فظنَّتْ أنه قادمٌ لا غتيال شخص ما . وقد وجدتْ عربته واقفةً عند البوابة الأمامية الصغيرة . وعندما جَنَّ الليل اقتاد البستانى الحصان إلى مربط « الردلايون » فى دارلى .

وأخيراً علم بهذا أهل بابلوك عندما عبروا النهر فوق السلالم الخشبية واتجهوا إلى مؤخَّر الدار . وقد اضطربت أعصابُهم خشيةَ أن ينهار البنيان الذى تقوَّضَتْ واجهتُه بأسرها وسُدَّ مؤخَّره تماماً . أخذوا يحملقون فى رعب فى تلك الرفوف الصامتة التى تحمل كتب القس فى غرفة مكتبته وقد مُزِّق عنها ستار الجدران كما أخذوا يحملقون فى ذلك المضجع النحاسى الكبير القائم فى غرفة الجدة ولشدَّ ما كان عميقاً وثيراً، ولكن إحدى قوائمه النحاسية تدلَّتْ فى الفضاء الممزق على صورة تجريبية كما وقع بصرُهم على حُطام غرفة الخادم فى الطابق العُلوىّ . وانخرطَتْ الخادم والطاهية فى البكاء . ثم تسلَّل رجلٌ فى حَذَر من خلال نافذة المطبخ المُهشَّمة إلى داخل الطابق الأرضى الذى كان أشبه بغابة مليئة بالمستنقعات . وما إن وجد جثة العجوز أو على الأقل رأى قدمها فى خُفِّها الأسود المسطَّح وقد برزت موحِّلةً من أحد أكداس النفاية المخلوطة بالطين حتى لاذ بالفرار .

وأكّد البستانى أن الآنسة إيڤيت لم تكن بالمنزل فقد رآها وقد جرفها الماء هى والغجرى . ولكن الشرطى أصرَّ عل تفتيش المكان . وأخيراً اندفع أبناءُ عائلة فريملى مُهَروِلين بعد أن أوثقت السلالم الخشبية بالحبال. ثم ارتفعت صيحةٌ مدوِّية من الجماعة بأسرها . ولكنها لم تلقَ صدًى من الداخل .

فثُبِّتَ سُلَّمٌ خشبىٌّ على الحائط وتسلَّقه بوب فريملى ثم هشَّم إحدى النوافذ وتسلَّل من خلالها إلى غرفة العمة سيسى . ولشدَّ ما أفزعه كالأشباح ما كان عليه كلُّ شىء من ألفةٍ منزلية تامة . فقد كان المنزل معرضًا للانهيار فى أية لحظة .

وما إن وُضِعَ سُلَّمٌ خشبى يصل إلى الطابق العلوى حتى هُرِع إلى المكان نَفَرٌ من دارلى وقرَّروا أن الغجرى المُسن قصد إلى مربط « الردلايون » ليأخذ الحصان والعربة قائلاً : إن ابنه شاهد إيڤيت فى أعلى المنزل . ولكن الشرطى كان عندئذ يُهَشِّم نافذة غرفة إيڤيت .

وفَزِعَتْ إيڤيت التى كانت مستسلمةً لنوم عميق، فزعت صارخة من تحت أغطية الفراش على صوت تهشيم الزجاج . وتشبَّثَتْ بالمُلاءة لتستُرَ عُرْيَها . فأطلق الشرطى صرخة مفزوعة حوّلها إلى نداء هاتفاً:

« « مس إيڤيت ! مس إيڤيت !! »

واستدار على السلم الخشبى ثم صاح فى وجوه الواقفين فى أسفل قائلاً :

— « مس إيڤيت فى فراشها ! — فى فراشها ! »

لبث هناك على السلم وكان رجلاعزباً حيث ظل متشبثاً بالنافذة فى خطر من السقوط وهو لا يدرى ماذا يفعل .

واستوتْ إيڤيت على فراشها وقد تكتّل شعرُها فى عقيصة متشابكة وراحت تحملق بعينين مخبولتين وهى متشبّثةٌ بملاء الفراش تستترُ بها صدرها العارى . لشدّ ما كانت مستغرقةً فى النوم حتى إنها لم تزل غائبة عن الوعى .

تسلّل الشرطى الذى أفزعه السُّلّم المهتز إلى داخل الغرفة قائلاً :

ــ « لا تخافى يا آنستى ! ولا يقلقك شىءٌ بعد ذلك . فأنت الآن فى أمان » .

وخُيِّل لإيڤيت التى استبدّ بها الذهول أنه يقصد الغجرى . أين هو ؟ كان هذا هو أول ما خطر لها . أين كان رجلها الغجرىّ الذى قضى معها تلك الليلة الليلاء .

لقد اختفى ! اختفى ! وفى الغرفة شرطى ! شرطى ! ومسحت بيدها على جبهتها المذهولة .

ــ « لو ارتديتِ ملابسك يا آنسة أمكننا أن نهبط بك سالمةً إلى الأرض . فالمنزل ينذِر بالسقوط . ولا أعتقد أن هناك أحداً فى الغرف الأخرى ؟ » .

ثم خطا بحذر فى الممر وحملق مفزوعاً خلال الطرف المقوّض من

المنزل حيث رأى القس على مسافة بعيدة قادماً فى سيارة فوق التل الذى أضاءته الشمس .

ونهضَتْ إيڤيت مُسرعةً وقد تخدَّر وجهها مُعبِّراً عن خيبة الأمل وهى تضمُّ من حولها مُلاءة الفراش . نظرت إلى نفسها فى المرآة لحظةً ثم فتحت الأدراج بحثًا عن ملابسها . فارتدتْ ثيابها ثم تطلَّعَتْ إلى المرآة حيث رأت فى رعب شعرها المعقود . ولكنها لم تُبالِ بذلك . فقد اختفى الغجرى على أية حال .

كانت ملابسُها ملقاةً على الأرض فى كومة مبتلَّة . وظهرت على السجادة بقعةٌ كبيرةٌ من البلل حيث كانت ملابسُه هو . كما رأت منشفتين قذرتين ملوَّثتين بالدماء .

وفيما عدا ذلك فلا أثر له .

كانت إيڤيت تُمشِّط شعرها عندما طَرَقَ بابها الشرطى . فدعته إلى الدخول . وارتاح لرؤيتها مرتديةً ملابسها وقد ثابت إلى رشدها .

فردَّد قائلاً : — « يحسُنُ بنا أن نُسرع قدر إمكاننا بمغادرة المنزل يا آنستى فربما انهار فى أية لحظة » .

فقالت إيڤيت فى هدوء : — « حقًّا ! أبلَغَ الأمرُ هذا الحد ؟ » .

وتردَّدَتْ صيحاتٌ عالية مما اضطرها للاتجاه إلى النافذة حيث رأت القس فى أسفل فاتحًا ذراعيه والدموع تنهمر من عينيه .

قالت فى هدوء مشاعرها المتناقضة : — « أنا بخير يا أبتاه ! »

وقررت أن تكتُمَ عنه قصة الغجرى . وفى نفس الوقت تحدَّرَ الدمع على وجهها .

فقال الشرطى : — « لا تبكى يا آنستى . لا تبكى ! لقد فقد القسُّ أمه ولكنه يحمَدُ السماء على إنقاذ ابنته . لقد خُيِّل لنا جميعًا أنك مفقودةٌ أيضا . . . نعم . خُيِّل لنا هذا ! » .

فقالت إيڤيت : — « هل غَرِقَتْ جدَّتى ؟ »

فقال الشرطى فى وجوم : — « يؤسفنى ذلك . لهفى عليها ! »

وبكت إيڤيت فى منديلها الذى كان عليها أن تأتى به من أحد الأدراج .

وقال الشرطى — « أتجرؤين يا آنستى على هبوط هذا السلم ؟ »

فنظرت إيڤيت إلى ارتفاع السلم المائل وحدَّثت نفسها فى الحال قائلة : — « لا ! لن أفعل ذلك ! » ولكنها عندئذٍ تذكَّرَتْ قول المرأة الغجرية : « تذرَّعى بمزيد من الشجاعة فى جسدك » .

فقالت وهى تبكى ملتفتةً إلى الشرطى : — « هل تفقَّدْتَ الغرف الأخرى جميعًا ؟ » .

— « نعم يا آنستى ! ولكننا لم نجد سواك فى المنزل كماتعلمين عدا السيدة العجوز . فقد هرَبَتْ الطاهية فى الوقت المناسب . أما إليزابيث فكانت عند والدتها . فإننا لم نقلق إلا على مصيرك أنت والسيدة العجوز المسكينة . أتجرؤين على هبوط هذا السُّلَّم الخشبى ؟ »

فقالت إيڤيت فى غير مبالاة : — « بالطبع ! »

فقد اختفى الغجرىُّ على أية حال .

عندئذ أخذ القسُّ فى عذاب يرقُب ابنته بقامتها الطويل النحيلة وهى تخطو إلى الخلف فى بُطء هابطةَ السُلَّم المائل بينما كان الشرطى يُمعن النظر فى بطولة من خلال النافذة المهشمة ممسكًا بالطرف العلوى للسُّلَّم .

وما إن بلغت إيڤيت نهاية السلم حتى أغمى عليها كما يليق بها بين ذراعى والدها . ومن ثَمَّ حملهما بوب معًا فى السيارة وصحبهما إلى منزل أسرة فريملى . وهناك أجهشَتْ لوسيل المسكينة بالبكاء فى ارتياح التى كانت كالشبح حتى عَرَتْها نوبةٌ من الهستيريا . كما صاحت العمة سيسى قائلة وهى تبكى : — « ليذهبْ المُسنُّون وليبقَ الشباب ! فلا يمكننى الآن أن أبكى " الأم " بعد نجاة إيڤيت من الموت » .

وهَمَتْ عيناها بالدمع الهَتون .

وتبيَّن أن انفجاراً فجائيًّا فى خزان المياه الكبير المقام فى پاپل هايديل على بعد خمسة أميال من الأبرشية كان قد تسبَّبَ فى ذلك الفيضان . واكتُشِفَ بعد ذلك أن نَفَقًا قديمًا لأحد المناجم ربما كان يرجع تاريخه إلى عهد الرومان ولم يشتبه فيه أحد أو يحلمُ به تحت سد الخزان قد انهار مُقوِّضًا السد بأسره . وهذا هو السر فى أن نهر پاپل

كان فى ذلك اليوم الأخير زاخراً بالماء على صورة غريبة مخيفة . ثم انفجر السدّ .

وبَقِىَ القس والفتاتان فى منزل أسرة فريملى حتى يمكن العثور على مسكنٍ جديد . ولم تحضر إيفيت جنازة الجدة بل مكثت فى فراشها .

وكانت إيفيت عندما تروى قصتها تكتفى بأن تذكر كيف أن الغجرى قد حملها إلى داخل المظلة ثم تزعُم أنها زحفت فى الماء حتى بلغت الدرج . وعُرِفَ أنه لاذ بالفرار . فهكذا قال الغجرى الشيخ عندما ذهب إلى مربط « الردلايون » ليأخُذَ الحصان والعربة .

ولم تستطع إيفيت أن تُسهِبَ فى حديثها . فقد كانت غامضة مرتبكةً وبدت أنها لا تكاد تذكُرُ شيئًا . ولكن ذلك كان يطابق طبيعتها تمامًا .

وكان بوب فريملى هو الذى اقترح قائلاً : « أتعلمون ؟ إنى أعتقد أن هذا الغجرى يستحقُّ وسامًا » .

فأعجِبَتْ الأسرة كلُّها بهذا الاقتراح .

وصاحت لوسيل قائلةً : — « ينبغى أن نشكره ! »

وذهب القسُّ بنفسه مع بوب فى السيارة . ولكن المحجر كان خاويًا . فقد شَدَّ الغجرُ رِحالهم إلى مكان مجهول .

وأخذت إيفيت تئنُّ من أعماقها وهى راقــدةٌ فى فراشها قائلة :

« آه إنى أحبه ! أحبه ! أحبه » ولشدّ ما أفقدها قواها حزنُها عليه . ولكنها فى الواقع كادت توافقه على اختفائه . فلقد أدركتْ بروحها الغضة الحكمة فى ذلك .

ولكنها بعد جنازة الجدة تلقّتْ رسالة صغيرة مؤرَّخة من مكان مجهول .

« آنستى العزيزة . عَلِمتُ من الجريدة أنك بخير بعد ما خُضْتِ من غمار الماء كما هى الحال معى . آملُ أن ألقاك مرة أخرى فى يوم من الأيام . وربما التقينا فى سوق الماشية فى « تايد زول » أو ربما عُدْنا من نفس الطريق مرة أخرى . كنت يومئذٍ ذاهبًا لوداعك . ولكننى لم أحْظَ بذلك . فإن غمرة الماء لم تتِح لى الفرصة . ولكننى أحيا بالأمل.

خادمك المُطيع . چوبوزول »

وعندئذ فقط أدركتْ أنه يحمل اسمًا .

« انتهت »

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

١

كان يُخيَّل لها أن هذا الزواج — دون الزيجات جميعًا — مغامرةٌ مثيرة ، ولم يكن ذلك لأن الرجل فى ذاته كان ذا سحر معين فى نظرها فإنه كان شخصًا ضئيلاً مفتولاً يكبرها بعشرين سنة ذا عينين عسليتين وشعر وخطّه المشيب . وقد هاجر من هولندا إلى أمريكا صبيًّا ضالا تافهًا ضئيلا لا يصلُح لشىء، فقذفت به المقادير من منطقة مناجم الذهب فى الغرب إلى المكسيك فى الجنوب حيث صار الآن على جانب لا بأس به من الثراء ، يمتلك مناجمَ للفضة فى برارى (سيرامادرى) . . وهكذا كان من الواضح أن المغامرة لم تكن تتمثَّل فى شخصه بقدر ما كانت تتمثَّل فى ظروفه . ولكنه برغم كل ما مرّ به من أحداث كان لا يزال كتلة صغيرة من النشاط والحيوية ، وقد حقَّق ما حقَّقه وحده دون مساعدة من أحد . إنها إحدى عجائب الحياة التى لا تجد تفسيراً .

وما إن وقع بصرُها فعلاً على ما حقَّقه الرجل من أعمال حتى وَهَنَ قلبُها . فقد رأت سلسلةً متصلةً من التلال الجبلية الهائلة التى تكسوها الخضرة ، وكانت ترتفع فى وسط تلك العزلة المقفرة أكمةٌ حادة تميل إلى الحُمرة وقوامُها الطينُ المجفّف الذى لفظه مصنعُ الفضة . وفى أسفل هذا المصنع العارى كان يقوم منزل من طابق واحد مبنىٌّ باللَّبِن ومُسوَّرٌ بجدار يضمُّ بين جنباته حديقةً وشرفة داخلية عميقة تحُفُّ

بها من الجانبين نباتاتٌ استوائية متسلّقة . ولا تكاد تتطلّع ببصرك من الفناء الداخلى المُزهِر المُسوَّر حتى ترى مخروطًا ضخمًا أحمر قوامُه نفايةُ رواسب الفضة . وقد ارتفعت إلى أعلى نحو السماء آلاتُ مصنع التعدين . ولا شىء غير هذا .

وكثيراً ما كانت الأبواب الخشبية الكبيرة بالطبع تُترك مفتوحة . وعندئذ كانت تقف فى الخارج ، حيث العالمُ الفسيح المكشوف ، فترى التلال الضخمة الجوفاء المكسُوَّة بالأشجار وقد توالى بعضُها خلف بعض لا تُعرف لها بداية أو نهاية . وكانت تكسوها الخضرة فى فصل الخريف . أما فى بقية أيام السنة فإنها كانت تميل إلى الحُمرة والجفاف الشديد والعزلة المتجرِّدة .

وكان زوجُها يصحبها فى سيارته الفورد المُهشَّمة إلى البلدة الأسبانية الصغيرة المنسيَّة وسط الجبال وقد خلَتْ من الحياة ، خلَتْ تمامًا من الحياة حيث تقوم الكنيسة الكبيرة الموحشة التى لفحتْها الشمس ، والبوابات المقفرة ، وساحة السوق المسقوفة التى لا تبشّر بشىء . وهناك وقع بصرُها فى أول زيارة لها على جثة كلب ميت وقد تمدَّدتْ على الأرض بين محال اللحم ومعروضات الخضر وكأنها راقدةٌ هناك إلى الأبد ، ولم يُكلّف أحدٌ نفسه مشقّة إلقائها بعيداً . مَواتٌ فى مَوات .

كان الجميع يتحدثون عن الفضة فى صوت واهنٍ ضعيف ويتداولون فيما بينهم قِطعًا من خامة الفضة . ولكن السوق كانت

تعانى ركوداً . فقد نشبت الحربُ العظمى وانتهت فماتت سوق الفضة . وأغلقَتْ مناجمُ زوجها أبوابها . ولكنهما واصلا الحياة فى منزلهما المبنى باللَّبنِ أسفل المصنع وسط الزهور التى لم تكن فى نظرها نَضِرةً قط .

وقد رُزِقَتْ بطفلين : غلام وصبيَّة وكان ابنها البِكْر ، قد ناهز العاشرة من عمره قبل أن تفيق هى من سباتها الذى فرضته عليها دهشتُها المقهورة . وكانت عندئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها : امرأةً ضخمة مذهولة ، زرقاء العينين ، يميل جسدها إلى الترهُّل . أما زوجها الضئيل القوى المفتول ذو العينين العسليتين فكان فى الثالثة والخمسين من عمره رجلا صلبًا مشدوداً كالأسلاك لا يزال ممتلئًا بالحيوية ولكن ثمةَ غشاوةً من الحزن كانت تكسو إشراقته لركود سوق الفضة . ولإحساسه بمناعة غريبة من جانب زوجته .

كان رجلا ذا مبادئ وزوجًا صالحًا . وقد أغرم بها على صورة ما . فلم يتمالك نفسه قط من الشعور نحوها بإعجاب مبهور . ولكنه فى جوهره كان لا يزال عَزَبًا . فقد قُذِفَ به إلى العالم عَزَبًا صغيراً فى العاشرة من عمره . وعندما تزوج كان قد تجاوز الأربعين من العمر وجمع من المال ما يكفيه لحياته الزوجية . ولكن رأس ماله بأسره كان ملكاً له وهو عَزَب . فقد أدار بنفسه مصنعه الخاص الذى كان زواجه يُشكل آخر قطعة فيه وأقربَها إلى نفسه .

ولشدَّ ما أفرط فى إعجابه بزوجته حتى حطَّمها وأطفأ جَذْوتَها .

كان معجباً بجسدها وبجميع نواحى شخصيتها . وكانت فى نظره دائماً فتاة باركلى الكاليفورنية الباهرة التى عرفها لأول مرة . كما كان كأى زوج مسيطر، يسهر على حراستها وسط جبال (تشيهواهوا) . فكانت غَيْرتُه عليها أشبهَ بغَيْرتِه على منجم الفضة . ولكن هذا إسرافٌ فى القول .

كانت وهى فى الثالثة والثلاثين من عمرها ، لا تزال بحق فتاة باركلى من كل الوجوه عدا الناحية الجسمانية . فبزواجها توقّف هذا النمو الواعى على صورة غامضة توقفا تامًّا . فإنها لم تتحقق قط من وجود زوجها سواءٌ من الناحية العقلية أو الجسدية . إذ أنه على الرغم من هُيامه المتأخر بها لم يَعْنِ فى نظرها شيئًا قط من الناحية الجسمانية . ولكنه كان من الناحية المعنوية فقط يهزُّ كيانها هزًّا . ويُذِلُّها ولا يفتأ يستعبدها على صورة لا سبيل إلى التغلّب عليها .

وهكذا مرّتْ السنون فى ذلك المنزل اللَّبِنيّ المقام حول الفناء المشمس يعلوه مصنع الفضة . ولكن زوجها كان لا يعرف الخمول مطلقًا فعندما رَكَدَتْ سوقُ الفضة تولى إدارة مؤسسة للحيوانات تقع على مسافة عشرين ميلا تقريبًا حيث قام بتربية ذكور الخنازير الأصيلة الخصيّة . ولشدّ ما كانت جميلة رائعة ! ولكنه كان فى الوقت نفسه يكره الخنازير . فقد كان مُشَرَّداً مثاليًا أنِفَ النفس . كما أنه لشدّ ما كان يُبغِض الجانب الفيزيقى من الحياة . ولكنه كان مغرمًا بالعمل ، العمل ، العمل وصنع الأشياء . فقد صَنَعَ زواجَه وطفليه

اللذين كانا يشكّلان جزءاً من عمله ولكنهما يدرّان عليه دخلا عاطفيًّا فحسب .

وأخذ توازنُ أعصابها يختلُّ تدريجيًّا . فكان لا بد لها من مغادرة الدار ، لا بد من مغادرة الدار . فصَحِبَها إلى « إلپاسو » حيث أقاما شهوراً ثلاثة وحَسْبُها على الأقل أنها كانت فى الولايات المتحدة .

ولكنه ظل مهيمنًا عليها بسحره حتى انتهت الشهور الثلاثة دون أن يطرأ عليها تغيُّرٌ ما ، ثم عادت إلى بيتها اللَّبنىّ بين التلال الأزلية التى كانت تكسوها الخضرة حينًا ، والحُمرة الداكنة أحيانًا ، وكانت جوفاء خاوية خواءَ المجهول حيث أخذت تُعلِّم طفليها وتُشرف على الصبية المكسيكيين الذين كانوا يسهرون على خدمتها . وكان زوجُها أحيانًا يصحب معه الزائرين من الأسبان أو المكسيكيين أو يصحب معه من وقت لآخر الرجال البيض .

ولشدّ ما كان يروقه أن يستضيف فى منزله الرجال البيض . ولكنه كان أثناء وجودهم هناك لا يتمتع بلحظة من الهدوء أو الطمأنينة كما لو كانت زوجته عِرْقًا خفيًّا غريبًا من المعدن الحام فى مناجمه لا يجب أن يعلم به أحدٌ سواه . ولقد فُتِنَتْ بالشبان المهذَّبين من مهندسى التعدين الذين كان يستضيفهم زوجُها فى بعض الأحيان ، كما كان هو أيضا مفتونًا بهم . ولكنه كان مُعدًّا من أبناء الجيل الماضى وكانت له زوجةٌ لا يكاد ينظر إليها أحد السادة حتى يُحِسَّ وكأن

أحد مناجمه يتعرَّض للسلب وأن أسراره نهبٌ للتجسُّس .

وقد أوْحى إليها بالفكرة أحدُ أولئك السادة الشبان . فقد كانوا جميعًا واقفين خارج أبواب الفناء الخشبية الكبيرة وهم يتطلَّعون إلى العالم الخارجى حيث اكتستْ بالخضرة جميعُ التلال الأزلية الساكنة وذلك فى شهر سبتمبر عقب سقوط الأمطار . ولم يكن هناك أثرٌ يدلُّ على شىء عدا ذلك المنجم المهجور والمصنع المُقفر وعدد من منازل عمال التعدين التى كادت تقفر من أهلها .

قال الشاب : — « إنى لأعجَبُ ماذا يوجد هناك خلف هذه التلال الشامخة الخاوية » .

فقال لدرمان : — « مزيدٌ من التلال . لا شىء فى هذا الطريق سوى " سونورا " والساحل . فمن حيث جئت توجَدُ الصحراء وفى الطريق الآخر تقوم التلال والجبال » .

— « نعم . ولكن ماذا يسكن التلال والجبال ؟ لا ريب أن هناك شيئًا رائعًا ؟ فإن هذه البقعة تبدو وكأنها منقطعةُ النظير على الأرض : كما لو كانت فوق سطح القمر » .

— « هناك حيوانات كثيرة إن شئت الصيد كما يسكنها الهنود إن كانوا فى نظرك يتَّصفون بالروعة » .

— « هل هم همجيُّون ؟ »

— « للغاية » .

— « ولكنهم مسالمون ، أليسوا كذلك ؟ » .

— « هذا أمر يتوقف على الظروف . فبعضهم همجيٌّ للغاية ولا يسمح لأحد بالاقتراب حتى إنهم يقتلون المبشّرين لأول وهلة . ولا سبيل إلى الوصول إلى حيث يعيا المُبشّرون » .

— « وما رأيُ الحكومة فى ذلك ؟ » .

— « تتركهم لشأنهم لبُعدهم عن كل مكان . كما أنهم مراوغون فعندما يرون أنهم فى خطر يرسلون وفداً إلى " تشيهواهوا " ليقدّم فروض الطاعة الشكلية . ويسُرُّ الحكومة أن تترك الأمر عند هذا الحد » .

— « وهل يعيشون فى همجية مطلقة بعاداتهم وعقائدهم الهمجية ؟» .

— « طبعًا . فهم لا يستخدمون من أنواع الأسلحة سوى النبال وقد شاهدتُهم فى ساحة المدينة وهم يرتدون قبعات غريبة مضحكة تحيط بها الزهور ويمسك كلٌّ منهم بقوسٍ فى يده وقد تجرَّد تمامًا من ملابسه حتى فى الطقس البارد إلا من ثوب يشبه الملْحفة . . . رأيتهم يتجولون هنا وهناك بسيقانهم العارية كالإنسان الأول » .

— « ولكن ألا تعتقد أن الحياة رائعةٌ هناك فى قراهم الخفيّة ؟ » .

— « كلا . وما الروعة فيها ؟ فالهمج هم الهمج . والهمجيون جميعًا لا يختلف سلوكهم تقريبًا ، فهم يتصفون بالانحطاط إلى حد ما ، والقذارة والبُعد عن الوسائل الصحية وبعض الحيل الماكرة ، كما أنهم

يكافحون فى سبيل لقمة العيش » .

— « ولكنهم يؤمنون بلا شك بعقائد وأسرار قديمة . . . قديمة . وما من شك فى أن ذلك شىءٌ رائعٌ حقًّا » .

— « لا عِلْمَ لى بأسرارهم ... طقوس وثنية صارخة . . . وشائنة إلى حد ما . كلا . إنى لا أرى روعةً فى هذه الأشياء . وإنى لأعجبُ كيف ترى أنت ذلك وقد عِشْتَ فى لندن وپاريس ونيويورك . . . » .

فقال الشاب وكأنه يُحاجّه : — « ولكن الناس جميعًا يعيشون فى لندن أو باريس أو نيويورك . . . » .

وكان لهذا الحماس الغامض بالذات إزاء الهنود المجهولين صدًى عميقٌ فى قلب المرأة . فقد تولاها شعورٌ رومانسىٌّ أحمق أكثر خيالاً من شعور الفتاة الصغيرة . فأحسَّتْ أنه مقدَّرٌ لها أن تطوف بتلك الأماكن الخفية التى يسكنها هنود الجبال الأزليون الغامضون المدهشون .

وتكتَّمَتْ الأمر . وكان المُزْمَع أن يرحل الشاب فى صحبة زوجها إلى « توريون » لإنجاز بعض الأعمال وبذلك فيتغيَّب عن الدار بضعة أيام . ولكنها قبل الرحيل استدرجَتْ زوجَها ليُحدِّثها عن الهنود : عن قبائل الرُّحَّل الذين يشبهون « الناڤاچو » وكانوا لا يزالون يتجوَّلون فى حرية ، « والياكى» من أهل « سونورا » والجماعات المختلفة فى شتى وديان ولاية تشهواهوا .

وكان المعتقد أن من بين جميع قبائل الهنود ، قبيلة واحدةً مقدسة ،

تعيش فى وادٍ مرتفع نحو الجنوب وهى قبيلة الشيلشوى . وما زال يعيش بينهم قومٌ من سلالة مونتزوما وملوك آزتك أو توتوناك القُدامى . وما زال شيوخ الكهنة يؤدون شعائر الدين القديم ويقدِّمون القرابين الآدمية . . . هكذا قيل . وقد زار بعضُ العلماء بلاد الشيلشوى ثم عادوا منها شاحبى الوجوه وقد أرهقهم الجوع والحرمان المرير حاملين معهم أوثانًا بربرية غريبة مختلفة ، ولكنهم لم يروا شيئًا خارجًا عن المألوف فى قرية الهمجيين الجائعة العنيدة .

ومع أن لدرمان تحدث إليها بتلك الطريقة المرتجلة فقد كان من الواضح أنه أحسَّ بشىء من الاستثارة المبتذلة عندما فكر فى الهمجيين القدامى الغامضين .

فسألته قائلة : — « وكم تبلغ المسافة بيننا وبينهم ؟ » .

— « ثلاثة أيام على ظهر الحصان — ويمر المسافر إليها بكوتشيتى وبحيرة صغيرة تقع هناك » .

ورحل زوجُها مع الشاب . فوضعت المرأة خُطَّتها الجنونية : وكانت منذ عهد قريب تلحُّ على زوجها ليسمح لها من وقت لآخر بالركوب معه على ظهر الحصان حتى تُغيِّر من حياتها الرتيبة . ولكنه لم يسمح لها قط بالخروج وحدها . فإن المنطقة لم تكن مأمونة حقًّا كما كانت خارجة عن القانون وبعيدة عن الحضارة .

ولكنها كانت تملك حصانها الخاص وكانت تحلم بالحرية التى تمتعت بها فى صباها بين تلال كاليفورنيا .

وكانت ابنتُها البالغة من العمر تسع سنوات تعيش الآن فى دير صغير فى مدينة التعدين الأسبانية الصغيرة التى تكاد تكون مقفرة والتى تقع على مسافة خمسة أميال من مسكنهم . . فقالت المرأة لخادمها : « مانويل . إنى ذاهبةٌ إلى الدير على صهوة جوادى لأرى مارجريتا ولأحمل إليها بعض الحاجيات . وربما أمضيت الليل هناك . فعليك أن ترعى فريدى وأن تطمئن إلى كل شىء حتى أعود » .

فسألها الخادم قائلاً : — « وهل أرافقك على حصان سيدى أم يذهب چوان فى صحبتك ؟ » .

— « لن يرافقنى أحد . بل سأذهب أنا وحدى » .

فنظر الشاب فى عينيها محتجًّا . فمن المحال تمامًا أن تذهب المرأة وحدها ! فردَّدَتْ المرأةُ العبْهَرَ ذاتُ البشرة الجميلة والهدوء الظاهرى قولها فى تأكيد غريبٍ غلاَّب قائلةً : « سأذهب وحدى » .

فأذعن الرجل فى صمت وحزن .

وسألها ابنُها وهى تُعِدُّ طرود الطعام قائلا : « لماذا تذهبين وحدك يا أماه ؟ » فصاحت المرأةُ قائلةً فى انفجار حيوىّ مفاجئ : — « ألا تتركونى وحدى أبداً ؟ لحظة واحدة فى حياتى ؟ » .

فلاذ الطفل بالصمت كما فعل الخادم .

وانطلقت المرأة فى طريقها — بلا وازع من ضميرها — ممتطيةً صهوةَ جوادها أسمر اللون ومرتديةً حُلَّةَ ركوب الخيل المصنوعة من الكتان الخشن ،

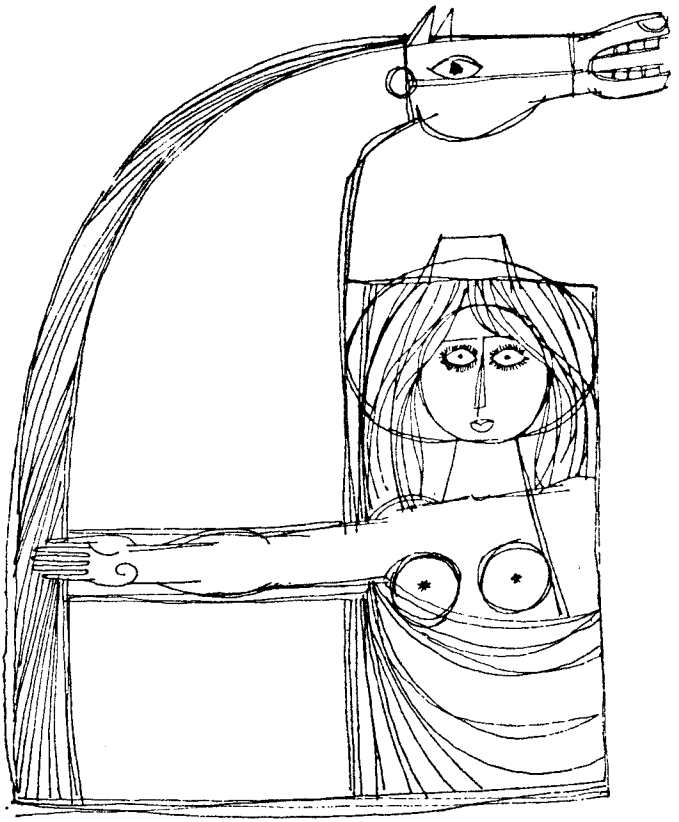

وقد تدلّى فوق سراويلها الكتانية إزارٌ خاص بركوب الخيل وفوق قميصها الأبيض رباط عنق أحمر كما وضعت على رأسها قبعة سوداء من اللبّاد . وقد وضعت الطعام فى الخُرج وملأت « الزمزمية » بالماء . وحزمت خلف السرج « بطانية » كبيرة محلّية . ثم انطلقت من منزلها وهى تنظر بعيداً على مدى البصر . وقد وقف مانويل والصبى الصغير فى البوابة يراقبان رحيلَها . ولكنها لم تَستدِرْ حتى لتُلوِّح لهما مودِّعةً .

ولكنها بعد أن قطعت مسافة ميل تقريباً تركت الطريق الموحش وانحرفت فى طريق صغير إلى اليمين كان يؤدى إلى وادٍ آخر عَبْر بقاع وعرة تحفُّ بها أشجار سامقة وخلال مقر آخر مهجور للتعدين وكان ذلك فى شهر سبتمبر والماء يترقرق منطلقاً فى الجدول الصغير الذى يُغذّى المنجم المهجور . فترجّلتْ لتشرب ولتُتيح لحصانها أيضًا أن يشرب .

وهناك فى أعلى المنحدر رأتْ بعض المواطنين قادمين نحوها خلال الأشجار . كانوا قد رأوها فأخذوا يراقبونها عن كَثَب كما أخذت تراقبهم هى بدورها . وكان المواطنون الثلاثة وهم امرأتان وشاب يقومون بدورة واسعة حتى لا يقتربوا منها . ولكنها لم تكترث لذلك . بل امتطتْ حصانها وراحت تسير به على مَهَلٍ إلى الأمام عَبْر الوادى الساكن فيما وراء مصنع الفضة بعيداً عن كل أثرٍ للتعدين . وكان لايزال أمامها لتبلغ الوادى البعيد طريقٌ وعرٌ مملوءٌ بالصخور والأحجار

المبعثرة هنا وهناك . وقد سلكت هذا الطريق من قبل مع زوجها . وكانت تعلم أنها لا بد أن تتجه جنوبًا فيما وراء تلك المنطقة .

والغريب أنها كانت لا تشعر بالخوف ، برغم أنها منطقة مرهوبة بمنحدراتها الجبلية الساكنة التى تبدو مشئومة مهلكة وبمواطنيها المريبين المراوغين الذين كانوا يظهرون لها عن بُعد بين الأشجار من حين إلى حين وطيورها الجوارح الكبيرة التى كانت كالذباب الضخم تحوم بعيداً من وقت لآخر فوق جيفةٍ ما أو مقرٍّ لتربية الحيوانات أو مجموعةٍ من الأكواخ .

وكلما ارتقت المنحدر ، قلَّتْ كثافة الأشجار ، وتخلَّل الطريقُ دُغلاً من النباتات الشائكة يعلوها نباتٌ « أزرق مُلتفٌّ ونباتٌ أحمر مُتسلّق» كان يظهر بين الحين والحين . ثم اجتازت منطقة الزهور وأخذت تدنو رويداً من أشجار الصنوبر .

كانت تعتلى قمة الجبل وعندما تجاوز النهار الظهيرة وقد امتدّ أمامها وادٍ آخر يَلُفُّه الصمتُ والخواء وتكسوه الخضرة . واتجه حصانها إلى مجرى صغير من الماء حيث ترجَّلتْ لتتناول وجبة الغداء . ثم جلست فى صمت وهى تنظر جنوبًا إلى الوادى الساكن الموحش وإلى التلال بقممها الحادة التى ترتفع نحو الصخر وأشجار الصنوبر . واستراحت ساعتين فى حرارة النهار فى حين أنه أخذ حصانها يرعى الكلأ من حولها .

والغريب أنها لم تشعر بالخوف أو الوحدة . فلا شك أن الوحدة فى نظرها كانت أشبه بجرعة الماء البارد فى نظر الظمآن الذى اشتدَّتْ

عليه وطأة الظمأ . وكانت تشدُّ من أزرها فى أعماق نفسها فرحةٌ غريبة .

ثم واصلت السفر . وفى الليل أقامت خيمتها إلى جانب جدول فى أحد الوديان حيث تكاثفت الشجيرات . لقد رأت ما شيةً وعبرت جُرُراً كثيرة . فلا يب أن هناك مقرًّا لتربية الحيوانات غير بعيد من مُخيَّمها كما سمعت صرخةً غريبةً نائحة لأسد جبلى فنبحت الكلابُ مجيبةً النداء . ولكنها جلست فى مكان خفىٍّ مُجوَّف بالقرب من نار المخيَّم الواهنة حيث كانت لا تشعر حقًّا بالخوف . بل لم تفتأ ترفع من روحها المعنوية فى داخل نفسها فرحة غريبةٌ ظلت تفور فى فقاعات .

ولشدَّ ما برد الجو قبيل الفجر . فرقدت ملتحفةً « ببطانيتها » تتطلَّع إلى النجوم . وتنصت إلى حصانها وهو يرتجف فى حين أنه لم يفتأ يخالجها شعور المرأة التى ماتت ومضت بعيداً إلى ما وراء الكون . وساورها الشك فيما إذا كانت قد سمعت أثناء الليل صوتَ انهيارٍ شديد فى مركز نفسها هو صوت حَشْرجَتها . أو ربما كان انهياراً ذا دلالةً خطيرة غامضة فى مركز الأرض .

وما أن انبثق أولُ بصيصٍ من الضوء حتى نهضت وقد تخدَّرتْ أطرافُها من البرد فأشعلت ناراً . ثم تناولت طعامها على عَجَل وقدَّمَتْ لحصانهـــا بعضَ قطع الكُسْب ، ثم انطلقت مـــرة أخرى . وقد تجنَّبتْ اللقاء بأحد ، وكان من الواضح أن الأهالى بدورهم كانوا

يتحاشون لقاءها لأنها لم تلتق بأحد منهم . وأخيراً لاحت لها قرية « كوتشيتى » بمنازلها السوداء التى مالت سقوفها إلى الحمرة وقد بدت متجمعةً فى كآبة ووحشة أسفل منجم آخر ساكن مهجور منذ أمد بعيد ؛ وظهر فيما وراءها سفحُ جبلٍ ممتد هائل كان يرتفع أخضر زاهياً صوْبَ أشجار الصنوبر بخضرتها القاتمة الكثيفة . وفيما وراءها امتدَّتْ مساحاتٌ من الصخر العارى منعكسةً على صفحة السماء وكانت تعتورها عندئذ خطوطٌ بيضاء من الثلج . فقد أخذ الثلج الجديد يتساقط فى أعلى .

وعندئذ أخذت تشعرُ بالغموض وتخونُها شجاعتُها وهى تقترب من وجهتِها رويداً رويدا . لقد مـرَّتْ بالبحيرة الصغيرة المحاطة بأشجار الحور الضاربة إلى الصفرة وقد استدارت جذوعُها البيضاء الرقيقة وكأنها أذْرُعُ نسوية بيضاء مستديرة . ما أروعَ هذا المكان! ولو كانت فى كاليفورنيا لهَـذَتْ به وهى فى بُحْران . أما هنا فكانت تنظر إليه وترى جماله ولكنها لا تكترث له . كانت مُتعبةً منهوكةَ القُوى على أثر ليلتين قضتهما فى العراء وكانت تخشى الليلة التالية . لم تكن تدرى إلى أين تقصد وماذا تبغى . وكان جوادُها يكِدُّ فى سيره حزينـًا خائرَ النفس فى طريقٍ حجرىٍّ ولو كانت لديها بقيةٌ من إرادة لاستدارتْ عائدةً إلى القرية لتحتمى بها إلى حين إرسالها إلى بيتها وزوجها .

ولكنها كانت مسلوبة الإرادة . وأخذ حصانُها يخوضُ جدولاً صغيراً ثم انحرف متجهاً نحو وادٍ تعلوه أشجار التنُّوب السامقة الضاربة

إلى الصفرة . كانت على ارتفاعٍ لا يقلُّ بحالٍ عن تسعة آلاف قدم تقريباً فوق مستوى سطح البحر . وأصابها الدوارُ من شدة الارتفاع والإعياء . وأمكنها أن ترى فيما وراء الأشجار جوانبَ المنحدرات الجبلية الوعرة التى تُحدِقُ بها فتعزلها عن العالم وقد كَسَتْها أشجارُ الحور المتعانقة بأوراقها الحادة . ومن فوقها ظهر شجَرُ التنُّوب الفضى المُدبَّب وشجر الصنوبر . وكان جوادُها يواصل سيره بطريقة آلية . فلا مناصَ فى هذا الوادى الضيق وعلى ذلك الطريق الصغير من السير قُدُمًا فى صعود .

وفجأة وثب حصانُها فقد ظهر أمامها فى الطريق ثلاثة جال يتدثَّرون بعُباءاتٍ سوداء .

وجاءت التحيةٌ بالصوت الهندى الممتلئ المتحفظ : — « آديوس ! »

فردَّتْ بصوتِ المرأة الأمريكية ذى النبرات الثابتة قائلةً : « آديوس ! » .

ثم جاء السؤال الهادئ باللغة الأسبانية : — « إلى أين تذهبين ؟ » .

كان الرجال ذوو العباءات السوداء قد اقتربوا منها وهم يتطلَّعون إليها.

فردَّتْ فى فتورٍ بلغتها الأسبانية السكسونية الغامضة قائلةً : « إلى الأمام » . كان هؤلاء فى نظرها مواطنين فحسب . . . رجالاً سُمر الوجوه أقوياء البنية يرتدون عُباءات سوداء وقبعات من القش . ولولا شعورهم الطويلة السوداء المسترسلة على أكتافهم على صورةٍ غريبة ،

لما اختلفوا عن أولئك الذين يعملون فى خدمة زوجها . فقد لاحظت هذا الشعر الأسود الطويل بشىء من النفور . فلا شك أن هؤلاء هم الهنود الهمجيون الذين جاءت لتراهم .

وسألها الرجل نفسه قائلا : — « من أين جئت ؟ » كان المتكلم دائماً هو ذلك الشاب ذو العينين اليقظتين النجلاوين البراقتين اللتين ترمقانها بنظرات جانبية . وقد علا وجهه الأسمر شاربٌ أسود رقيق ولحية صغيرة متفرقة تتألّف من بضع شعرات مسترخية على ذقنه . وكان شعره الأسود الطويل الممتلئ حياةً يتدلّى على كتفيه فى جُموح . وعلى الرغم من سُمْرته فقد بدا عليه أنه لم يغتسل منذ عهد قريب .

وكان رفيقاه على شاكلته ولكنهما قويان صامتان يكبرانه سنّاً ، أحدهما ذو شارب رقيق كالخط الأسود ولكنه لم يكن ملتحياً . والآخر ذو وجنتين ناعمتين وقد نَبَتَ له شعرٌ أسود متفرّق ، يُحدّد معالم ذقنه فى لحية تميز بها الهنود .

فراوغَتْه قائلةً فى مُزاح إلى حد ما : — « من بعيد » .

فتلقّوا جوابها فى صمت .

ثم سألها الشاب قائلاً بإصراره الهادئ : — « ولكن أين تقيمين ؟ »

فردّتْ قائلةً فى مرح : — « فى الشمال » .

وعاد الصمتُ لحظة . . . ثم تحدث الشاب فى هدوء إلى رفيقيه بالهندية . وفجأةً سألها قائلاً فى تحدٍّ وسَطْوة مشيراً بسرعة إلى الطريق :

« إلى أين تقصدين فى هذا الطريق ؟ » .

فأجابت المرأةُ قائلةً فى إيجاز : — « إلى هنود الشيلشوى » .

فنظر إليها الشاب . وكانت عيناه سوداوين يقظتين قاسيتين . فرأى على وجهها الهادئ النضر الكبير إلى حد ما فى ضوء المساء القوى شبحَ ابتسامةٍ خفيفة تُنبئ بالثقة . كما ظهرت أسفل عينيها النجلاوين الزرقاوين خطوطُ العناء الماثلة إلى الزُّرقة وقد ارتسمت فى عينيها وهى تَخفضُ بصرها نحوه ثقة بقوة أنوثتها كانت مزيجًا من الطفولة والعُنْجُهيَّة . ولكن ثمة غيبوبةً غريبةً كانت تبدو أيضًا فى عينيها .

ثم سألها الهندى قائلا : — « أوستد إس سنيورا ؟ هل أنت سيدة ؟ »

فردَّتْ قائلةً فى رضا : — « نعم . سيدة » .

— « ولك أسرة ؟ »

فقالت : — « أسرة تتألَّف من زوج وطفلين : غلام وصبية » .

فالتفت الهندىُّ إلى رفيقه وترجم له ما قالته مُحدِّثًا إياه فى غمغمة أشبه برقرقة الماء الخفىّ . كان من الواضح أنهم فى حَيرةٍ من أمرها .

وسألها الشاب قائلاً : — « وأين زوجك » ؟

فردَّت قائلة فى مرح : — « من يدرى ؟ لقد سافر فى عمل لمدة أسبوع » .

كانت عيناه السوداوان تُقابلانها فى دَهاء . فإذا بها على الرغم من كل تَعَبها تبتسم ابتسامةً خفيفة فى فَخْرٍ بمغامرتها وثقةٍ بأنوثتها وسحر الجنون

الذى سيطر عليها .

وسألها الهندى قائلا : — « وماذا تنشُدين ؟ » .

فردَّتْ قائلةً : — « أنشُدُ زيارة هنود الشلشوى — لأرى بيوتهم وأتعرَّف على آلهتهم » .

فاستدار الشابُّ وأسرع بترجمة ما قالته ثم ساد صمتٌ يكادُ يشُوبُه الفزع . وكان الرجلان المتجهِّمان المتقدِّمان فى العمر يرمُقانها بنظراتٍ جانبيَّة غريبة من تحت قُبَّعتيهما المزيَّنتين ؛ ثم قالا شيئًا للشاب بنبراتٍ عميقة .

ولكن هذا الأخير ظل متردِّداً . ثم استدار نحو المرأة قائلاً :

— « حسنًا ! فلنذهب . ولكنا لن نستطيع الوصول قبل غد . فعلينا أن نبيتَ الليلةَ فى الطريق » .

فقالت : — « حسنًا ! فليكُنْ ذلك » .

وسُرعان ما انطلقوا فى الطريق الحجرىّ دون مزيد من اللَّغَط . وأخذ الشاب يجرى محاذيًا رأس حصانها بينما كان الآخران يركضان من خلفها . وتناول أحدُهما عصًا غليظة أخذ يضرب بها حصانها من وقت لآخر ضربةً مُدوّية على عَجُزِه ليحُثَّه على السير قُدُمًا ؛ فيثبُ الحصانُ ويُطيح بها إلى الخلف فى سَرْجه مما كان يُثيرُ غضبَها على الرغم من إعيائها .

فصاحَتْ قائلةً وهى تستدير فى غضبٍ نحو ذلك الرجل : —

« كُفَّ عن هذا ! » .

فالتقتْ عيناها بعينيه السوداوين النجلاوين البرّاقتين ولأول مرة انهارت شجاعتُها حقًّا . فلم تكن عينا الرجل فى نظرها آدميتين ولم تنظرا إليها كامرأة جميلة بيضاء . بل التمعتا بنظرة سوداء « لا إنسانية » كانت لا ترى فيها امرأةً قط بل كأنما كانت فى نظره شيئًا غريبًا لا تفسير له مستغلقًا على إدراكه ولكنه عدائىٌّ فى نفس الوقت . فجلست فى السرج متعجِّبةً وقد عاودها إحساسُها بأنها ماتت . ثم عاد فضرب حصانها الذي هزَّها هِزَّةً قوية .

فتأجَّج فى صدرها غضبُ المرأة البيضاء المُدلَّلة بكل ما فيه من عُنف . فجذبَتْ عِنانَ جوادها وأوقفته ثم التفتت بعينين تتقدان غضبًا إلى الرجل الواقف عند الشكيمة وصاحت قائلةً : — « قُلْ لهذا الشخص ألا يلمسَ حصانى مرة أخرى » . فالتقت عيناها بعينى الشاب فرأت فى غموضهما الأسود المتألّق شرراً دقيقًا من السخرية كذلك الذى يبدو فى عَيْن الحيَّة . فتحدث إلى رفيقه فى المؤخّرة فى نبرات هندية خفيضة . وأنصت الرجلُ ذو العصا دون أن ينظر إليه . ثم أطلقَ صيحةً غريبة خفيضة للحصان وضربه على مؤخَّره مرةً أخرى فوثب إلى الأمام فى الطريق الحجرى بحركة تشنُّجيَّة مُبَعثراً الأحجار رافعًا المرأة المتعبّة فى مقعدها .

فطار الغضبُ إلى عينيها كالجنون وابيضَّ منْخراها . وجذبَتْ

عِنانَ جوادها فى شراسة . ولكنها ما كادت تستدير نحوه حتى كان الشابُّ الهندى قد أمسك بعنان جوادها أسفل عنقه وجذبه إلى الأمام وهو يعدو مُسرِعًا . فأسقطَ فى يدها . وإذا بها تراود ها إلى جانب غضبها العارم هِزَّةٌ خفيفة من الابتهاج . فقد أدركت أنها ماتت .

كانت الشمسُ تميلُ إلى الغروب وقد فاضت أشجار الحور الأخيرة بضوءٍ أصفرَ وهّاج كان ينعكس على جذوع أشجار الصنوبر فتبدو أشواكُه منتصبةً لامعة وقد امتدّت إلى الخارج فى بهاء قاتم كما تألّقت الصخورُ ببريق خارق . وخلال ذلك الضياء أخذ الهندى المحاذى لرأس الحصان يواصل عَدْوَه فى غير عناء بينما تتأرجح عباءته السوداء وتتوهّج فى الضوء القوىّ ساقاه العاريتان بحُمرةٍ غريبة وتتألّقُ فى زَهْوٍ قبّعتُه المصنوعةمن القش بكل ما ازدانَتْ به من ريش وزهور فوق نهر شعره الأسود الطويل فبدت سخيفةً إلى حدما . وكان يُطلقُ أحيانًا صيحةً خفيضةً للحصان ثم يهوى الهندىُّ الآخر من الخلف على الحيوان بضَرْبةٍ من عصاه .

وتلاشى رويداً ذلك الضوءُ العجيب فوق الجبال وبدأ الظلام يُرخى سدوله . وهبّتْ عليهم نسمةٌ باردة وأخذ هلالُ السماء يقاوم وَهَجَ الشمس فى الغرب . وعلى الأرض سقطَتْ ظلالٌ ضخمة من المنحدرات الصخرية الوَعْرة . وكان الماء يندفع . ولكن المرأة لم تُحِس بشىء من ذلك سوى ما حلّ بها من إعياء ، إعياء لا يُوصف ،

كما أحسَّتْ بالريح الباردة التى أخذت تَهبّ عليها من المرتفعات . لم ترَ كيف حلَّ ضوءُ القمر محلَّ ضوء النهار . فقد حدث ذلك أثناء سفرها وقد أفقدها الإرهاقُ وَعْيَها .

واصلوا السفر بضع ساعات على ضوء القمر . ثم توقفوا فجأة . وتحادث الرجال لحظة فى نبرات خفيضة .

فقال الشاب : — « سنُخيِّم هنا الليلة » .

فانتظرت أن يُعينَها على النزول . ولكنه وقف مُمسكًا بعِنان الحصان فحسب . فأوشكَتْ أن تسقُط من فوق السرج من شدة الإعياء .

ووقع اختيارُهم على مكان أسفل الصخور التى كانت لا تزال تبعث شيئًا من دِفْء الشمس . فقام أحدهم بقَطْع أغصان الصنوبر وأقام الآخر حواجِزَ صغيرة من فروع الشجر على الصخور لحمايتهم ، ووضع على الأرض أغصانَ البلسم الصنوبرية ليفترشوها كمضاجعَ لهم . أما الثالث فقد أشعل ناراً صغيرة لتسخين كَعْك الذرة . وكان ثلاثتُهم يعملون فى صمت .

وشَرِبت المرأةُ بعض الماء . ولكنها لم تشأ أن تأكل . . . بل أرادت فقط أن تضطجع .

فسألتهم قائلةً : — « أين أنام ؟ »

فأشار الشاب إلى أحد المضاجع . فزحفت إلى الداخل حيث رقدت بلا حراك . ولم تعبأ بما قد يحدث لها فلشدَّ ما كانت مُتعَبةً ، ولشدَّ ما نأى

بها ذلك عن كل اعتبار . ورأت الرجال الثلاثة من خلال أغصان التنُّوب وقد أقْعَوا حول النا وهم يمضُغون كَعْك الذرة الذى كانوا يلتقطونه من الرماد بأصابعهم السوداء ، ويشربون الماء من « قَرعة » وأخذوا يتحدثون فى نبرات خفيضة متمتمة تتخلَّل أحاديثَهم فترات طويلة من الصمت . وقد وُضعَ سرجُها وخُرجُها على الأرض غيرَ بعيد من النار دون أن يفتحهما أو يمسَّهما أحد . فلم يكترث الرجال لها أو لممتلكاتها . بل جلسوا القُرفُصاء هناك تعلو رءوسَهم القبعات وهم يأكلون ويأكلون فى آلية كالحيوانات وقد سقطَتْ عَباءاتُهم السوداء ، بحواشيها على الأرض من خلف ومن قُدَّام ، وتعرَّتْ سيقانُهم السوداء القوية متربِّعةً كسيقان الحيوانات وظهرت قمصانُهم البيضاء القذرة ومآزرُهم التى لم يكن يسترهم شيء سواها . أما عن اهتمامِهم بها فلم يكن يزيد على ما يبدونه نحو قطعة من لحم الغزال عادوا بها من رحلة صيد وعلقوها داخل المأوى .

ثم ما لبثوا أن أطفأوا النار بعناية ودلفوا إلى الداخل . وأحسَّتْ لحظةً بالخوف والقلق وهى تراقبهم من خلال ستار الأغصان عندما رأت أشباحَهم السوداء تعبر المدخل وتمضى فى هدوء . تُرى هل يُهاجمونها الآن ؟

ولكن لا ! لقد بدوا وكأنهم قد سَهَوا عنها . كان حصانُها مقيَّداً . وأمكنها أن تسمعه وهو يحجل فى إعياء . وساد السكون ، سكونٌ جبلىٌّ

باردٌ ميِّت . فنامت ثم استيقظت ؛ ثم نامت دون أن تغيبَ عن وعيها تماماً في خدَرٍ من البرد والإعياء وكانت ليلةً ليلاء ، طويلةً للغاية باردةً كالثَّلج وأبدية . ولم يفتأ يُخالجها شعورٌ بأنها ماتت .

٢

ولكنها ما إن أحسَّتْ بحركة وسمعت صَلْصَلة الصوَّان والصُّلب ورأتْ شبحَ رجل جاثم كالكلب فوق نار حمراء تصيتُ في غمغمة وهسيس حتى أدركتْ أنه مطلع النهار . عندئذٍ بدا لها أن الليل قد مضى مُسْرِعاً للغاية .

وعندما تأجَّجَت النار خرجت من مأواها تراودها رغبةٌ واحدةٌ حقيقية في تناول قدح من القهوة هي كل ما تبقَّى لها من رغبات. وكان الرجال يُدْفِئون مزيداً من كعْك الذرة .

فسألتهم قائلةً : — « هل يمكن أن نُعِدَّ قدحاً من القهوة ؟ »

فنظر إليها الشاب وخُيِّل لها أنها ترى في عينيه ذلك الشرر الدقيق الساخر . وهزَّ رأسه قائلاً : — « نحن لا نشربها . وليس لدينا وقتٌ لذلك » .

وتطلَّع إليها الرجلان المتقدِّمان في السن وهما جالسان القُرفُصاء على عَجُزيهما في ذلك الفجر الشاحب المخيف وقد خلَتْ عيونُهما

حتى من السخرية . خلت إلا من ذلك البريق اللاإنساني الحاد البعيد الذى لشدّ ما كان يخيفها . كان الرجلان بعيدى المنال لا يسعهما مطلقاً أن ينظرا إليها كامرأة . وكأنها ليست امرأة . أو وكأن بياض بشرتها ربما ذهب بكل أنوثتها وتركها كأنثى النمل بيضاء عملاقة . هكذا بدت لهما ولا شيء غير ذلك .

واعتلت السرج مرة أخرى قبل بزوغ الشمس ثم راحوا يصعدون المنحدر الوعر فى الهواء المثلج . وأشرقت الشمس فلم تلبث أن أحست بالحرارة الشديدة لتعرضها للضوء القوى العنيف فى أماكن عارية مكشوفة. وبدا لها أنهم يصعدون إلى سقف العالم . وهناك فى منأى عن العالم بدت لهم خطوط من الثلج منعكسة على صفحة السماء .

وخلال ساعات الصباح بلغوا مكاناً عجز فيه الحصان عن التقدم. حيث استراحوا قليلاً وكان يواجههم صخر حى بمسطحه الهائل المائل وقد بدا لامعاً مصقولا كصدر وحش من وحوش الأرض. كان عليهم أن يجتازوا ذلك الصخر خلال شق مقلقل . فبدا لها أنها ظلت تزحف معذبة على يديها وركبتيها ساعات بطولها وهى تنتقل من شق إلى فجوة عبر السطح المنحدر لذلك الجبل الذى قد من الصخر الخالص . ومن أمامها ومن خلفها سار هنديان بخطى وئيدة وقد انتصبت قامتاهما وارتدى كلاهما نعلاً من الجلد المجدول . ولكنها لم تجسر على الوقوف منتصبة القامة وهى تنتعل حذاء الركوب .

ولكنها لم تفتأ تتساءل طيلة الوقت عما يدعوها إلى الإصرار على الزحف عَبْر تلك المسطَّحات الصخرية والتشبُّث بها وكان طولُها يبلغ أحياناً ميلاً كاملاً . لِمَ لاتُلقى بنفسها وتنتهى من كل شىء ؟ ! فقد كانت تُشرِفُ على العالم بأسره .

وعندما أشرفوا فى النهاية على مُنحدَرٍ حجرىٍّ نظرت خلفها فرأت الهندىَّ الثالث قادماً يحمل على ظهره خُرْجَها وسَرْجَها كلاهما معلَّقٌ فى حزامٍ أحاط بجبهته وبيده قبعة وهو يخطو فى بُطْءٍ خَطْو الهنود الهادئ الوئيد الثقيل دون أن يتمايل فى شقوق الصخر وكأنه يسير عَبْر خدشٍ فى دِرْع الجبل الحديدىّ .

وكان المنحدَرُ الحجرى يؤدى إلى أسفل . فبدا الهنود وكأنهم قد استثارهم ذلك . فجرى أحدُهم قُدُماً فى عَدْوٍ بطىء مختفياً عند المنحنى الحجرىّ . وكان الطريق بعد انحنائه يتجه إلى أسفل حيث طالَعهم أخيراً فى وَهَج الضُّحى تحت أبصارهم وادٍ تحيطُ به جدرانٌ من الصخر وكأنه خندقٌ واسعٌ محفور فى الجبال . كان وادياً أخضر به نهرٌ وأشجار ومجموعاتٌ من المنازل الخفيضة المستوية المتألِّقة . وهو صغيرَ الحجم رائعُ الجمال على مَهْوى ثلاثة آلاف قدمٍ تقريباً . حتى الجسر المستوى فوق النهر والساحة التى تحفُّ بها المنازلُ والمبانى الكبيرة المكدَّسة على طرفيها المتقابلين والأشجارُ السامقة والمراعى ومساحات الذرة الصفراء الجافة وقطعانُ الغنم والماعز ذات اللون البُنِّىِّ التى تُرى عن بعد

فوق المنحدرات، والحظائرُ المسوّرة بجانب النهر كانت... كلها تبدو صغيرةً ساحرةً رائعةَ الجمال كما يبدو كل شيء من فوق الجبال المُطِلَّة عليه . والغريبُ أن البيوتَ الخفيضة كانت تتلألأ بيضاءَ بطلائها الأبيض حتى بدتْ كبلّوراتٍ من المِلْح أو الفضة . فهالها ذلك .

وشرعوا فى هبوطهم الحَلَزونى الطويل عند قمة المنحدر وهم يتابعون الجدول الذى كان يندفع هاوياً إلى أسفل . وفى البداية وكانت المنطقة صخريّة ، ثم ظهرت بعد ذلك أشجارُ الصنوبر التى ما لبثت أن حلّتْ محلّها أشجارُ الحور بأغصانها الفِضّية. أما زهورُ الخريف ومنها مايُشبِهُ الأُقْحُوان ومنها الزهورُ البيضاء والعديدُ من الزهور الصفراء فكانت تنبُتُ بوفرة . ولكنها لشدّ ما نال منها الإعياء فاضطُرّتْ إلى الجلوس لتستريح . ورأت الزهور النضرة المتألقة فى غموض وكأنها أطيافٌ شاحبة تهتزُّ من حولها كما تبدو بلا شك لعينى الميِّت .

وأخيراً بلغوا منطقةَ الحشائش والمراعى المنحدرة يحفُّ بها خليط من أشجار الحور والصنوبر . وثمة راعٍ عارٍ إلا من قبعته ومئزره القطنىّ كان يسوقُ غنمه البُنّى بعيداً فى ضوء الشمس . وجلست هى والهندى الشاب فى غَيْضةٍ من الأشجار ينتظران . أما الهندىُّ حاملُ السرج فقد سبقهما إلى الأمامِ أيضاً .

وسمعا صوت أناسٍ يتجهون نحوهما . فإذا بهم ثلاثةُ رجالٍ يرتدون عُباءاتٍ جميلةٍ اختلطتْ فيها الألوانُ الحمراء والبرتقالية

والصفراء والسوداء وتعلو رؤوسَهم أكاليلُ زاهية من الريش . أما كبيرُهم فقد جُدِل شعرُه بالفِراء واكتستْ عُباءتُه التى اختلطتْ فيها الألوان الحمراء والصفراء والبرتقالية بعلامات سوداء غريبة مما جعلها أشبه بجلد الفهد . وأما الآخران فلم يَخِط المشيبُ شعرهما ولكنهما كانا متقدمين فى السن أيضًا ، وقد تخطَّطت عُباءتاهما ولكن إكليليهما لم يبلُغا درجة كبيرة من الإتقان .

وتحدَّثَ الهندى الشاب إلى هؤلاء الكبار بكلمات قليلة هادئة . فأنصتوا إليه دون أن يُحيروا جوابًا ودون أن ينظروا إليه أو إلى المرأة بل أشاحوا بوجوههم بعيداً وخفضوا أبصارهم إلى الأرض وأخيراً استداروا نحو المرأة ونظروا إليها .

وكان الزعيم المُسنّ — أو رجل الطب كائنًا من كان — ذا وجه برونزىّ أسود تعتوره الغضون وتخطه التجاعيد وقد أحاطتْ بفمه بعضُ شعرات رمادية متفرقة . كما تدلتْ على كتفيه جديلتان طويلتان رماديتان ضُفِرتا بالفراء والريش المُلوَّن .

ومع ذلك فلم يكن فيه ما يلفت النظر سوى عينيه السوداوين فقد كانت تنبعث منهما قوةٌ نفَّاذة خارقة ولم يكن يتطرق إليه الشك فى قُدرتهما الشيطانية التى لاتعرف الخوف . نظر فى عينى المرأة البيضاء نظرةً طويلة نفَّاذة باحثًا عن شىء لا يدرى كُنْهَه . فاستجمعتْ كل قواها لتلتقى بعينيه وتأخُذ حذَرها . ولكن ذلك لم يُجْدِها نفعًا . فإنه لم ينظر إليها

نظرة مخلوقٍ بشريٍ إلى آخر .ولم يلحظ قط مقاومتها أو تحدّيها بل كان يتجاوزهما بنظرته إلى شيء لاتدرى كُنْهَه .

وأدركت أنه لا أمل فى الوصول إلى تفاهم بشرى مع ذلك الكائن المُسن . ثم استدار وقال بضع كلمات للشاب الهندى . فقال الشاب باللغة الإسپانية : — « إنه يسألك عما تنشُدين هنا ؟ » .

— « أنا ؟ لاشيء ! جئتُ لأرى الحياة هنا فحسب » .

فترجم له ذلك أيضاً . ثم أدار الرجل المُسنُّ عينيه نحوها مرة أخرى . وتحدث إلى الشاب الهندى بلهجته الخفيضة المتمتمة .

وقال لها الشاب : — « إنه يقول ولماذا تهجُرُ بيتَها حيث تُعاشِرُ الرجالَ البيض ؟هل تريد أن تحمل إلـهَ الرجل الأبيض إلى الشيلشوى؟ » .

فأجابت قائلةً فى تهوُّر :— « كلا . بل لقد هجرتُ إلـهَ الرجل الأبيض وجئتُ لأنشُدَ إلـهَ الشيلشوى » .

وما إن تُرجِم له ذلك حتى ساد صمتٌ عميق . ثم تحدَّث الرجل المسنُّ مرةً أخرى فى صوتٍ ضعيف كما لو كان مُتعباً .

وجاء السؤال : — « وهلَّ تنشُدُ المرأةُ البيضاء آلهَة الشيلشوى لأنها سئِمَتْ إلهَها ؟ » .

فردَّتْ قائلة :— « نعم ..... لقد سئِمْتُ إلـهَ الرجلَ الأبيض » .

وخُيِّل لها أن ذلك هو ما يريدون لها أن تقول . . . . . إنها تبغى أن تكون فى خدمة آلهة الشيلشوى .

وما إن تُرجم جوابُها حتى ساد صمتٌ متوتِّر أحسَّتْ خلاله أن الهنود قد سَرَتْ بينهم هِزَّةٌ من النصر والابتهاج . ثم نظر إليها الجميعُ بعيون سوداء نفَّاذة تألقتْ بنيَّة قاسية طَموع استغلقتْ على مداركها . ومما زاد فى حَيرتها أن نظرتهم خَلَتْ من الشهوة والجنس . بل لمَعَتْ بطُهْرٍ مُخيف يفوقُ إدراكَها . وانتابها الخوفُ الذى كان يمكن أن يُشِلَّ قواها لولا أن شيئًا ما كان قد مات فى داخل نفسها فلم تعُدْ تملكُ سوى العَجَب البارد اليقظ .

وتحادث الرجلان المتقدِّمان فى السن قليلاً ثم انصرفا وتركاها فى صُحبة الشاب والزعيم المُسنّ . عندئذٍ نظر إليها الرجل المُسِنُّ فى شىء من القلق .

وسألها الشاب قائلاً : — « إنه يسألك إن كنت متعبةً ؟ »

فقالت : — « متعبةٌ للغاية » .

فقال الشاب الهندىّ : — « سيجيئُك الرجال بعربة » .

وعندما جاءت العربة تبيَّن أنها محفَّةٌ تتألف من فراش صُنعَ من نسيج صوفى أسود شُدَّ على عمود . وقد حَمل العمودَ على كتفهما هنديان استرسل شعرهما . وبُسِط الفراشُ الصوفى على الأرض فجلست عليه ورفع الرجُلان العمود إلى كتفيهما ثم حملاها وهى تتأرجح كأنها فى جوال إلى خارج الغيضة فى إثر الزعيم المُسِنّ الذى كانت عباءتُه المرقَّطة كجلد الفهد تتحرك على صورة غريبة فى ضوء الشمس .

وأشرفوا على رأس الوادى حيث امتدَّتْ أمامهم تماماً حقولُ الذرة التى نضَجتْ فيها الكيزان. أما أعوادُ القمح فلم تكن على ذلك الارتفاع الشاهق بالغة الطول . ومن خلال حقول القمح امتدّ الممرُّ الذى طالما وطئَه الناس ولكنها لم تستطع أن ترى سوى هيكل الزعيم المُسنّ وقد انتصبتْ قامتُه فى عَباءته التى اختلط فيها السواد بلون اللهيب . وكان يخطو فى هدوء وسرعة وقوة ، وقد مال رأسُه إلى الأمام لاينظر يميناً أو يساراً بينما يتبعه حاملاها وهما يخطُوان خَطْواً موقَّعاً . وكان الرجل الذى يسير فى المقدمة قد تهدَّل شعره على كتفيه العاريتين . أسود لامعاً ضارباً إلى الزرقة ومسترسلاً كالنهر .

وعبروا حقول الذرة حتى بلغوا حائطاً كبيراً أو سَدّاً مبنياً من التراب والطوب اللَّبن . وقد فتحت أبوابُه الخشبية . وما إن دلفوا إلى الداخل حتى وجدوا أنفسهم فى شبكة من الحدائق الصغيرة المملوءة بالزهور والأعشاب وأشجار الفاكهة وكانت كل حديقة ترويها قناةٌ صغيرة من الماء الجارى . ويقوم بين كل مجموعة من الأشجار والأزهار بيتٌ صغير أبيض متلألئ خال من النوافذ وقد أُوصِدَ بابُه . وكان المكان يتألَّف من شبكةٍ من الممرات والجداول والجسور الصغيرة وسط حدائق مربَّعة مُزهِرة .

فساروا فى أوسع الممرات . . . . . وكان طريقاً ضيقاً لينا بين الأوراق والحشائش مهَّدتْه أجيالٌ وأجيالٌ من أقدام البشر ، ولكنه

لم يتعرَّضْ لعوامل التشويه من عجلات أو سنابك الخيل حتى بلغوا النهرَ الصغير الذى يتدفَّق ماؤه سريعًا متألِّقًا وعبروه فوق جسر صُنع من الكتل الخشبية . وقد ران السكون على كل شيء . . . . فلم يكن هناك مخلوقٌ بشرىٌّ واحد . وكان الطريق يمتدُّ فى ظل أشجار رائعة بديعة . ثم انتهى بهم فجأة إلى خارج الساحة المركزية أو ساحة القرية .

وكانت تلك الساحة على شكل مستطيل طويل من المنازل البيضاء الخفيضة ذوات السقوف المستوية كما كان هناك مبنيان كبيران على طرفى المستطيل يواجه كلاهما الآخر بانحراف ويتألَّف كلٌّ منهما من أكواخ مربَّعة طويلة تكدَّستْ فوقها أكواخٌ أخرى صغيرة أقل منها حجمًا . وكانت المنازل الصغيرة باهرة البياض فيما عدا أطراف الدعامات الخشبية الكبيرة المستديرة التى برزت من تحت أفاريز الأسطح المستوية وكذلك الأسطح المستوية ذاتها . وكان يُحيطُ بكُل من المبنيين الكبيرين من خارج الساحة سورٌ كأسوار الحظائر يضمُّ فى داخله حديقةً بها أشجار وأزهار ومنازل صغيرة متنوعة .

لم يَرَ أحدٌ هناك . فمروا فى صمت بين المنازل حتى بلغوا الساحة المركزية التى لشدَّ ما كانت عاريةً مُجدِبة وقد مهَّدَتْ الأرضَ أجيالٌ لاحصْرَ لها من أقدام المارَّة الذين كانوا يعبرونها من منزل إلى منزل . وكانت جميعُ أبواب المنازل الخالية من النوافذ تُشرِفُ على تلك الساحة العارية ولكنها كانت جميعُها مغلقة . وقد وُضِعَتْ أكداسُ الحطب

على مقربة من عتبات الدور كما كانت الأفران المبنية من الطين لايزال ينبعث منها الدخان ولكن المكان خلا من كل أثر للحركة أو الحياة .

وسار الرجل المُسِنّ رأساً عَبْر الساحة نحو المنزل الكبير القائم فى الطرف حيث كان الطابقان العلويان يصغُرُ كل منهما عن الطابق الذى فى أسفله شأن منازل الدمى التى يبنيها الأطفال . وثمة درجٌ حجريٌّ فى الخارج كان يؤدى إلى سطح الطابق الأول .

وعند أسفل ذلك الدرج توقف حاملا المحفة وأنزلا المرأة إلى الأرض. وقال الشاب الهندى الذى يتكلم الإسپانية : — « هيا اصعدى » .

فصعدت الدرج الحجرىَّ حتى بلغت سطح المنزل الأول المبنى بالطين وكان يصنع إفريزاً حول جدار الطابق الثانى . فسارت فى أثَر الهندى حول ذلك الإفريز حتى بلغتْ مؤخرة المنزل الكبير حيث هبطوا مرة أخرى إلى الحديقة الخلفية .

لم يلقَوا أحداً فى طريقهم حتى تلك اللحظة . ولكن ظهر عندئذ رجلان عاريا الرأس وقد استرسل شعرهما المجدول وارتدى كل منهما قميصاً أبيض تجمَّع فى مئزر . وانضمّ هذان الرجلان إلى الثلاثة القادمين عَبْر الحديقة حيث كانت أكمام الزهور الحمراء والصفراء تتفتح مشرقة. ثم أخذوا سبيلَهم إلى منزل طويل أبيض خفيض . وهناك دلفوا إلى الداخل دون أن يطرقوا الباب .

وساد الظلام فى الداخل حتى سُمعَتْ تمتمة أصوات الرجال

الخفيضة . وكان هناك رجال كثيرون بدت فى الظلام قمصانُهم البيضاء بينما اختفت وجوههم السوداء . كانوا يجاسون على كتلة كبيرة من الخشب القديم الأملس امتدَّتْ بمحاذاة الحائط البعيد . وفيما عدا تلك الكتلة الخشبية بدت الغرفة خاوية . ولكن لا . فقد ظهرت عند طرف الغرفة فى الظلام أريكةٌ على شكل فِراش اضطجعَ عليها شخصٌ ما ملتحِفاً بالفراء .

عندئذ كان الهندىُّ المسنُّ ذو العباءة المرقَّطة الذى رافق المرأة قد خلع قبعته وعَباءتَه ونعليه ثم نحَّاها جانباً ، واقترب من الأريكة حيث تحدث فى صوت خفيض . ولم يُسمع جوابٌ ما مدة لحظات . وإذا بشيخ ابيضَّ شعرُه وتدلى حول وجهه الذى بدا غامضاً فى الظلام ينهض كالرؤيا من رَقْدته ويتكئ على أحد مرفقيه ثم ينظر فى غموض إلى الجماعة التى سادها الصمتُ المتوتِّر .

ثم تكلم الهندى ذو الشعر الرمادى مرةً أخرى وعندئذ أمسك الهندىُّ الشاب بيد المرأة وقادها إلى الأمام . فوقفت هناك فى زىّ ركوب الخيل وحذائها الأسود وقُبَّعتها ورباطِ عُنُقِها الأحمر الصغير المثير للشفقة . وقفتْ بجانب الفراش المغطَّى بالفراء حيث كان الشيخ الطاعنُ فى السن يستوى منتصباً وقد اتكأ على أحد مَرفقيه غامضاً كالشبح كما استرسل شعرُه الأبيضُ فى فوضى وكاد وجهُه أن يكون أسودَ اللون، ولكنه كان مركَّزاً على هدفٍ بعيد لايمتُّ إلى هذا العالم بصلة . وقد مال إلى الأمام لينظر إليها .

كان وجهُه طاعنًا فى السن حتى صار كالزجاج الأسود وكانت الشعراتُ القليلة البيضاء المجعَّدة النابتة على ذقنه وحول شفتيه لايمكن أن تُصدقَ العينُ وجودها . وقد تهدلت خصلاتُ شعره الطويلة البيضاء شعثاء بلا ضفائر على جانبي وجهه الزجاجىّ الأسود . وكانت عينا الزعيم الشيخ السوداوان أسفل حاجبيهما اللذين كانا فى لون المسحوق الأبيض الباهت تنظران إليها وكأنهما ترمقانها من بُعدٍ بعيد بين الموتى وقد أبصرتا شيئًا لاتراه عين أخرى .

وأخيراً فاه ببضع كلمات عميقة جوفاء وكأنه يخاطب الهواء المظلم . وترجم لها الشاب الهندى كلامه قائلاً : — « إنه يسألك إن كنت تحملين قلبك لإله الشيلشوى ؟ »

فقالت بطريقة تلقائية : — « قُلْ له نعم » .

فساد الصمتُ فترة . ثم عاد الهندىُّ الشيخ يتكلم وكأنه يخاطب الهواء . وانصرف أحدُ الحاضرين . وساد صمتٌ كصمت الأبدية فى الغرفة المعتمة التى لم يتسلَّل إليها الضوء إلا من خلال الباب المفتوح .

ونظرت المرأة حولها . فرأت أربعة رجال مُسنين جالسين على كتلة الخشب بالقرب من الحائط فى مواجهة الباب . كما كان يقف بالقرب من الباب رجلان آخران قويان لايبدو عليهما انفعالٌ ما . وكانوا جميعًا ذوى شعور طويلة يرتدون القمصان البيضاء التى تجمَّعَتْ

فى مآزرهم وقد تعرّتْ سيقانهم القوية السوداء وساد صمتٌ كصمت الأبدية .

وأخيراً عاد الرجل يحمل على ذراعه ملابس بيضاء وسوداء . فتناولها الهندىُّ الشاب ثم قدّمها للمرأة قائلاً :

— « يجب أن تخلعى ملابسك وترتدى هذه » .

فقالت : — « إذا خرج الرجالُ جميعًا » .

فقال فى هدوء : — « لن يُؤذِيَكَ أحدٌ » .

فقالت : — « لن أخلع ملابسى مادُمْتم هنا أيها الرجال » .

فنظر إلى الرجلين الواقفين بالباب . فتقدّما بسرعة وأمسكا فجأةً بذراعيها فى قوة هائلة ولكن دون أن يُلحِقا بها أذى . ثم أقبلَ رجلان مُسنّان وشقّا حذاءها فى مهارة غريبة بمُدًى حادة ونزعا النعلين من قدميها ثم شقّا ملابسها فسقطت عن جسدها . وما هى إلا لحظات قليلة حتى كانت تقف هناك بيضاء عارية . وتكلم الشيخ الجالس على الفراش فأداروها نحوه ليراها ؛ وتكلم مرة أخرى فنزعَ الهندىُّ الشاب المشابك والمشط من شعرها الأشقر الذى تهدّل على كتفيها فى خُصلاتٍ متشابكة كالعناقيد .

ثم تكلم الشيخُ مرة أخرى . فقادها الهندى إلى جانب الفراش . فإذا بالشيخ ذى الشعر الأبيض والوجه الزجاجىّ الأسود يُبلل أنامله بفمه ويلمُس ثدييها وجسدَها ثم طَهَّرَها برقة متناهية . وكانت تنتفض

على صورة غريبة كلما انسحبتْ أنامله على بدنها وكأن الموتَ نفسَه هو الذى يلمُسها .

وتعجَّبتْ فيما يُشبه الحزن لعدم إحساسها بالخجل وهى عارية . فإنها لم تشعر إلا بالحزن والضياع . لأن أحداً لم يُحِسَّ بالخجل . بل إن الكهول جميعًا قد توتَّرتْ وجوهُهم السوداء بعاطفة أخرى عميقة حزينة استغلقَتْ على إدراكها وحالتْ دون إحساسها بالاضطراب فى حين عَلَت النشوةُ وجه الهندىّ الشاب . أما هى فلم تشعر إلا بالغُربة المطلقة ويفُقْدان السيطرة على نفسها وكأنها لاتملك جسدها .

وأعطُوها الملابَس الجديدة وتتألف من قميصٍ أبيض طويل يبلغ الركبتين،ثوبٍ من قماشٍ صوفىٍّ أزرق سميك مُطرَّز بزهورٍ بعضُها قرمزىّ وبعضُها أخضرُ اللون . وكان الثوبُ مُثبَّتًا على كتف واحدة فقط ومحزومًا بوشاح مجدول من الصوف ذى اللونين الأسود والقرمزىّ .

وعندما تزيَّتْ على تلك الصورة اقتادوها بعيداً وهى عاريةُ القدمين إلى منزل صغير فى الحديقة المسوّرة حيث أخبرها الهندىُّ الشاب بأنه يُمكنها أن تطلب ما تشاء . فطَلبتْ ماءً لتغتسل . فأحضره لها فى جَرّة كما أحضر وعاء خشبيًّا طويلاً . ثم أوْصدَ بابَ منزلها وتركها سجينةً فيه . ولكن من خلال قضبان بوابة منزلها أمكنها أن ترى الزهورَ الحمراء فى الحديقة وطائراً مغرداً . ثم بلغ سمعها من سطح المنزل الكبير صوتٌ طويل كئيب لقَرْع الطبول . كان نداؤها خارقًا مخيفًا . كما سمعت

صوتًا مرتفعًا يهتف من فوق قمة المنزل بلغة غريبة فى ترنيم بعيد خال من العاطفة وهو يُلقى خُطبة ما أو يُبلغُ رسالة . فأنصتتْ إليه وكأنها بين الموتى .

ولكنها لشدَّ ما كانت مُتعبَةً . فرقدتْ على مضجع من الجلود وجذبت فوقها « بطَّانية » من الصوف الأسود ثم نامت فى استسلامٍ تام .

وعندما استيقظت كان ذلك عند الغروب حين دخل عليها الشاب حاملاً صينيّةً كالسلَّة تحوى طعامًا يتألَّفُ من كعك الذرة والزُّبْد المزوَّد بقِطَعٍ من اللحم ولعله لحم الضأن ، ومشروبًا يتكوَّن من العسل وبعض ثمار البرقوق الطازجة . كما أحضر لها إكليلاً طويلاً للرأس يتألف من زهور حمراء وصفراء وينتهى عند الطرف بمجموعاتٍ من البراعم الزرقاء . ثم رشَّ الإكليل بالماء من إحدى الجرار وقدَّمه إليها بابتسامة . ولشدَّ ما بدا رقيقًا مُنصفًا وقد ارتسمت على وجهه وعينيه السوداوين نظرةٌ غريبة هى مزيجٌ من النصر والنشوة فبعث ذلك فى نفسها شيئًا من الخوف واختفى البريقُ من عينيه السوداوين بأهدابهما السوداء المقوَّسة . وراح ينظر إليها وقد بدت عليه وَقْدةُ النشوة الغريبة الرقيقة التى لم تكن إنسانية تمامًا بل كانت لاشخصية على صورة مخيفة أشعرتها بالقلق .

قال فى صوته الخفيض البطىء الرخيم الذى كان لايفتأ يبدو متحفظًا وكأنه فى حديث جانبى مع شخص آخر أو كأنه يَضِنُّ بصوته أن يخرج إليها :

— « أتطلبين شيئاً ؟ »

فسألته قائلة : — « هل سأظل سجينةً هنا ؟ »

فقال فى هدوء :— « كلا . بل يمكنك غداً أن تتنزَّهى فى الحديقة ».

كان لايفارقه قط جَزَعُه الغريبُ عليها واهتمامُه بها .

قال وهو يُقدِّمُ إليها قدحاً صغيراً من الخزف : —« أيُعجبُك هذا المشروب ؟ إنه منعشٌ للغاية » .

فأخذتْ ترشِفُ الشراب فى فضول . وكان مصنوعاً من الأعشاب ومُحلًّى بالعسل وقد تميَّز بنكهة غريبة باقية . وكان الشاب يُراقبها فى سرور .

قالت : — « إنه غريبُ المَذاق » .

فردَّ عليها قائلاً دون أن تُفارقَ عينيه السوداوين المركَّزتين عليها دائماً نظرةُ النشوة الراضية :— « إنه منعشٌ للغاية » . ثم انصرف وما لبثَتْ أن انتابها الغثيان وأخذت تَقيءُ فى عُنف وكأنها فقدت السيطرة على نفسها .

وبعد ذلك أحسَّتْ بخَدَرٍ شديدٍ مُهدِّئ يتسلَّل إليها وأحسَّتْ بقوة فى أطرافها المسترخية التى أثقلها الخَدَر . ورقدَتْ على مضجعها تُنصتُ إلى أصوات القرية وترقُبُ السماء الضاريةَ إلى الصُّفرة وتشمُّ رائحة الأرز أو الصنوبر وهو يحترق . ولشدَّ ما وَضُح لسَمْعها نباحُ الجراء وزحفُ أقدامٍ بعيدة وتمتمةُ أصوات . ولشدَّ ما تكشَّفتْ لها رائحة الدخان والزهور والمساء ، ولشدَّ ما وضح لها عن بُعدٍ لانهائىّ ذلك النَّجْم الوحيد الساطع وهو يتحرك فوق الشمس الغاربة فشعرت وكأن

حواسَّها جميعًا قد انتشرتْ فى الهواء مما جعلها تتبيَّنُ صوتَ زهور المساء وهى تتفتح والصوت الحقيقى الجهير للسماوات عندما تتسابقُ أحزمةُ النطاق الجوى المترامية الأطراف وكأن المطر يُدَوِّى فى الكون كالقيثارة أثناء صعوده وهبوطه .

كانت رهينةَ المَحْبِسين : المنزل والحديقة المسوَّرة ولكنها لم تكنْ تُبالى بذلك . ولم تُدرك أنها لم تَرَ امرأةً قط إلا بعد مُضِىِّ أيام . فلم تكن ترى سوى الرجال من كهول المنزل الكبير الذى خُيِّل لها أنه لابد أن يكون معبداً وأن الرجالَ كَهَنَةٌ فيه. فقد كانوا يتزيَّنون دائمًا بالألوان الحمراء والبرتقالية والصفراء والسوداء ولا يفتأ يتَّسمُ سلوكُهم بطابع الجَهَامة والشرود .

وكان يأتى لزيارتها فى منزلها أحيانًا رجلٌ مُسن يجلسُ معها فى غرفتها فى صمْتٍ مُطْبِقٍ فجميعُهم فيما عدا ذلك الشاب، لايتكلمون سوى الهندية . وكان الشيوخُ يبتسمون لها ويجلسون معها ساعات بطولها ويبتسمون لها أحيانًا عندما تتكلم بالإسپانية ولكنهم لا يجيبونها مطلقًا إلا بتلك الابتسامة البطيئة التى تُنبئ بالأريحيَّة والخير كما كانوا يُوحون لها بشعورٍ من الجَزَع يكاد يكون أبويًّا . ولكنها كانت تلمح فى عيونهم السوداء التى تتأمَّلها بريقًا شَرِسًا رهيبًا لايعرف الرحمة منزويًا فى أعماقها . غير أنهم ما إن يُحسُّوا بنظراتها حتى يُخْفوه فى الحال خلف ابتساماتهم . ولكنها لمحته .

وكان لايفتأ يحدُوهم فى معاملتهم إياها ما يخالج الكبار فى معاملتهم للأطفال من جزعٍ غريبٍ ورقةٍ بالغةٍ لاينبُعان من أشخاصهم . ولكنها كانت تُحِسُّ بشىء ما تحت ذلك القناع ، شىء مخيف . حتى إنها كانت عندما ينصرف زائرُها المُسنّ بطريقته الأبوية الصامتة المتسلسلة تُحسُّ بصدمة من الخوف رغم أنها لم تكن تدرى مصدرَ ذلك الخوف .

وكان الهندىُّ الشاب يجلس إليها متحدثًا فى حرية وكأنه يتوخَّى الصراحة التامة . ولكنها أحسَّتْ أنه هو أيضًا كان يُخفى عنها الحقيقة . وربما كان لايمكنه التعبير عنها . كان يرمقُها بعينيه السوداوين النجلاوين فيما يُشبِهُ الإعزاز تخالِطُه مسحةٌ من النشوة وكان صوتُه العَذْب الخَدِر البطىء يتعثَّر فى إسپانيتِّه البسيطة التى لاتلتزم القواعد . أخبرها بأنه حفيدُ ذلك الشيخ المُسنّ وأنه نجلُ الرجل ذي العباءة المرقَّطة وأنهما من الزعماء السياسيين الذين كانوا قبل مجىء الإسپان ملوكًا فى قديم الزمان . أما هو نفسه فقد أقام فى (مكسيكو سيتى) وفى الولايات المتحدة أيضًا . واشتغل ببناء الطرق فى لوس انجياوس . بل إنه سافر حتى شيكاغو .

فسألته قائلةً : — « ألا تتكلم الإنجليزية إذن ؟ »

فرمقها بنظرة غريبة اختلط فيها الخداع بما فى نفسه من صراع . ثم هزَّ رأسه دون أن يتكلم .

فسألته قائلةً : — « وماذا فعلتَ بشعرك الطويل عندما كنت فى الولايات المتحدة ؟ هل قصَصْتَه ؟ »

فهزَّ رأسه مرة أخرى وقد ارتسمت فى عينيه نظرةُ العذاب النفسى . وقال فى صوتٍ هادئٍ خفيض : — « كلا . بل كنت أرتدى قبعةً وأعصبُ رأسى بمنديل » .

ثم لاذ بالصمت وكأنها ذكرياتٌ مؤلمة .

وسألته قائلة : — « ألم يذهب غيرك من أبناء عشيرتك إلى الولايات المتحدة ؟ » .

— « كلا ؛ فلم يغترب سواىِ عن بلده زمنًا طويلا . أما الآخرون فكانت إقامتُهم هناك لا تتجاوز أسبوعًا واحداً . فهم لا يغتربون عن بلدهم لأن الشيوخ لا يسمحون لهم بذلك » .

— « ولماذا ذهبتَ أنت ؟ »

— « هذه مشيئتُهم — لأننى سأكون زعيمًا سياسيًا » .

كان حديثُه لاتُفارقه السذاجةُ التى تكاد تُشبِه صراحةَ الأطفال . ولكنها أحسَّتْ أن ذلك ربما كان من تأثير لغته الإسپانية . أ و لعلَّ الكلام كله فى نظره لا حقيقة فيه . وعلى أية حال فقد أحسَّتْ أنه يُخفى عنها الحقيقة بأسرها .

كان يأتى ويجلس إليها طويلا — بل كان يُثقِلُ عليها أحيانًا — وكأنه يريد أن يكون على مقرُبةٍ منها . وسألته إن كان متزوجًا . فأجاب

بالإيجاب . . . وأن له طفلين .

قالت : — « أحب أن أرى طفليك » .

ولكنه لم يُجِبْ إلا بتلك الابتسامة الحُلوة التى تكاد تكون نَشْوى من تحت عينيه اللتين لا يكاد يتغيَّر شرودُهما المُلْغِز .

والغريب أنه كان يجلس إليها ساعات بطولها دون أن يبعث فى نفسها قط إحساساً بالذات أو إحساساً بالجنس حتى بدا لها أنه عديمُ الجنس وهو جالس هناك غايةً فى الرقة والهدوء وقد حنى رأسه قليلاً إلى الأمام فى خضوع واضح فى حين تدفَّق نهر شعره الأسود اللامع فى عَذْرِيَّةٍ على كتفيه .

ولكنها ما إن تُعيد النظر إليه وترى مَنكبيه العريضين القويين وحاجبيه الأسودين المستويين وأهدابَه القصيرة السوداء العنيدة المقوَّسة التى تعلو عينيه المنكَّستين وخطَّ شاربه الفرائى الصغير فوق شفتيه الغليظتين السوداوين وذَقنه القوى حتى تُدرك أنه ذو ذكورة قوية مُبْهِمة على صورة أخرى غامضة وما إن يُحِس هو بأنها تراقبه حتى يرفع إليها بصره بسرعة وفى عينيه نظرةٌ منزوية غامضة لا يلبث أن يحجبُها بابتسامة حزينة إلى حد ما .

ومرَّتْ الأيام والأسابيع فى نوع من الرضا الغامض . ولكنها كانت تقلق أحياناً يُراودُها شعورٌ بأنها فقدَت السيطرة على نفسها وبأنها لم تعُدْ تملكُ زِمام نفسها . بل كانت تحت سحر سيطرة أخرى . وكانت

تمرُّ بها أحياناً لحظاتٌ من الرعب والفزع ولكن هؤلاء الهنود ، كانوا عندئذٍ يأتون إليها ، ويجلسون معها ، ويفرضون عليها من سحرهم الذى يتسلَّل إليها دون أن تُحِسَّ بوجودهم الصامت ، وجودهم الفيزيقى القوى الصامت الخالى من الجنس . وكان يبدو لها أثناء جلوسهم هناك أنهم يُجرّدونها من إرادتها ويتركونها مسلوبة الإرادة نهباً لعدم اكتراثها. ويحمل إليها الشاب مشروبها المُحلّى الذى غالباً ما يكون ذلك المشروب المُقَيّىء ولكنه أحياناً كان يحمل إليها أنواعاً أخرى فإذا بأطرافها الثقيلة مليئةٌ بالخَدَر وإذا بحواسّها تبدو كأنها تطفو فى الهواء مُنصتةً صاغية . وأحضروا لها كلبةً صغيرة أسمتها «فلورا» . وخُيِّل لها ذات مرة وقد تخدَّرَتْ حواسُّها أنها تسمع كلبتها وهى تحمِل فى رَحِمها الدقيق حيث أخذت تتكون أجنَّتها . وفى يوم آخر أمكنها أن تسمع قعقعة الأرض فى دوارنها فبدا ذلك الصوتُ وكأنه دَوِىُّ وَترٍ هائلٍ عند انطلاق السهم .

ولكنها ما إن شَعَرت بالبرد عندما صارت الأيامُ قصيرة باردة حتى أخذ يراودها أحياناً انتعاشٌ فجائى فى إرادتها تحدوها الرغبة فى الخروج وفى الرحيل . وألحَّتْ على الشاب فى طلب الخروج .

فسمحوا لها ذات يوم بالصعود إلى أعلى سطحٍ فى المنزل الكبير الذى كانت تُقيم فيه حيث أطلَّتْ على الساحة. وكان يوم الرقصة الكبرى ، ولكن الجميع لم يشتركوا فى الرقص . فقد وقفت النساء فى مداخل

الدُّور يُراقبن الرقص وقد حملن أطفالهن بين أيديهن . ووقف فى الجهة المقابلة عند الطرف الآخر من الساحة أمام المنزل الكبير حَشْدٌ من الناس كما وقفتْ جماعةٌ صغيرة متألقة على إفريز السطح فى أعلى الطابق الأول أمام أبواب الطابق العلوى التى فُتِحَتْ على مصاريعها . ومن خلال تلك الأبواب المفتوحة على سَعَتِها أمكنها أن ترى النار تلمع فى الظلام وأن ترى الكهنة وهم يتحركون هنا وهناك بأكاليلهم التى اختلط فيها الريشُ الأسود والأصفر والقرمزىّ وعَباءاتهم الشبيهة بالأردية التى تألَّقَتْ ألوانها السوداء والحمراء والصفراء وطالتْ حواشيها الخضراء . وثمة طبلةٌ كبيرة كانت تُقرعُ فى بطء وانتظام وسط السكون الهندى الكثيف . فى حين وقف الحشدُ فى أسفل منتظراً .

ثم بدأ يرتفع قَرْعُ الطبول وعندئذ انطلقَتْ أصواتُ الرجال قويةً عميقةً وهم يُنشدون لحنًا همجيًّا ثقيلا كزئير الريح فى غابة أزليَّة . وكان المنشدون عدداً كبيراً من الراشدين وقد أخذوا يُغَنون فى نَفَسٍ واحد كالريح وخرجت من تحت المنزل الكبير صفوفٌ طويلة من الراقصين ، وقد تعرَّتْ أجسادُهم البرونزية المذهَّبة ، وتدفَّقَتْ شعورُهم السوداء ، وعَلَتْ سواعدَهم خصلاتٌ من الريش الأحمر والأصفر ، وارتدوا مآزرَ بيضاء خشنة ، وأحاطوا خصورَهم بأحزمة عريضة مطرَّزة بالحمرة والخُضرة والسواد . كانوا يميلون قليلاً إلى الأمام وهم يضربون الأرض بأقدامهم على إيقاع رَقْصِهم الرتيب الذى استغرقوا فيه . وقد تدلى من أحزمتهم

فى الخلف فراءُ الثعلب الجميل مُعلَّقًا من أنفه وهو يتأرجح موحياً بالترف والرفاهية فى حين أخذ طرفُ ذنبه يتلوَّى فوق أعقاب الراقصين . وكان كل رجل ترقص خلفه امرأة وضعت على رأسها إكليلاً غريبًا متقنًا من الريش ومحار البحر وتزيت بثوبٍ أسود قصير . وكانت المرأة تتحرك منتصبة القامة ممسكةً بخُصلات من الريش فى كلتا يديها وهى تهزُّ معْصميها بحركة موقَّعة وتضربُ الأرض فى رقّة بقدميها العاريتين .

وهكذا أخذ صفٌّ الراقصين الطويل ينتشر قادمًا من المنزل الكبير المواجه لها . ومن أسفل منزلها الكبير انبعثتْ رائحةُ البخور الغريبة وساد صمتٌ غريبٌ متوتّرٌ ثم انطلقت فجأة عقائر الرجال مجيبةً الغناء فى صوتٍ لا إنسانى وانبثَّ صفٌّ آخر طويل من الراقصين .

واستمرَّ الحالُ على هذا المنوال طيلة النهار فالطبول تُلحُّ فى قَرْعِها وغناء الرجال الكهنى الزائرُ العاصف لا ينقطع وجلودُ الثعالب لا تفتأ تهتزّ خلف سيقان الرجال القوية البرونزية المذهّبة وهى تضرب الأرض وشمس الخريف فى سمائها الزرقاء الصافية تصُبُّ أشعتها على أنهارٍ من الشعر الأسود والوادى بأسره يرينُ عليه السكون ، وفيما وراءه جدران الصخر والجبل بضخامته الهائلة الرهيبة وقد انعكس على صفحة السماء الصافية وفى أعلاه يفور الثلج ببياضه الناصع .

ظلت تراقب ذلك المنظر ساعات وساعات مأخوذةً به وكأنها مخدّرة . وأخيراً بدا لها أثناء قَرْع الطبول المَلحّ على تلك الصورة المخيفة والغناء

البدائىّ العميق المتدافع والوقع اللانهائى لأقدام الراقصين من الرجال بأذنابهم الثعلبية وخطْو النساء الثقيل بقاماتهن المنتصبة كالطيور وثيابهن السوداء ، بدا لها أنها تُحِسّ بموتها وتلاشيها . وكأنها لا بد أن تُمحى من حقل الحياة مرةً أخرى . كما بدا لها أنها تقرأ من جديد فى تلك الرموز الغريبة الشامخة فوق رءوس النساء اللائى لا يتغيرن وقد استغرقن فى الرقص mene mene tehcl Upharsin أما أنوثتُها التى لشدّ ما كانت فردية شخصية فكان لا بد لها من أن تُمحى مرةً أخرى ، وأن ترتفع من جديد تلك الرموزُ البدائية العظيمة ، فوق استقلال المرأة الفردىّ المنهار . كان لابد من القضاء مرة أخرى على الحساسية المرهفة عند المرأة البيضاء الراقية ووعيها العصبى المختلج . كان لا بد أن يُلقى بالأنوثة مرة أخرى فى ذلك التيار الهائل الكبير الذى يتدفقُ باللاشخصية فى الجنس والحب . ومن الغريب أنها رأت أنهم يُعِدُّون العُدَّةَ للقيام بتلك التضحية الضخمة وكأنها أوتيَتْ بصيرةً نفّاذة . ثم عادت إلى منزلها الصغير وهى فى غيبوبة النَّزْع الأخير .

ومنذ ذلك اليوم كانت لا تفتأ نُحِسُّ بحشرجة الموت كلما سمعت قرعَ الطبول فى المساء وصوتَ الرجال الهمجىّ الغريب المرتفع وهم يغنون حول الطبول وكأنهم مخلوقاتٌ متوحشة تعوى فى دُعاء لآلهة القمر الخفية والشمس المتلاشية . كان فى غنائهم شىءٌ من صيحة الذئب الأمريكىّ

الضاحكة الباكية ، وشيء من ضُباح الثعلب المتهلّل وعُواء الذئب عن بُعْد فى نشوة حزينة جامحة وصرخة البيوما[١] الأليمة المُعذّبة ، وإصرار الذكر البشرى القديم فى همجيّته بما يُميّزه من لحظات الضعف ووحشيته الباقية .

وكانت أحياناً تصعد إلى السطح المرتفع بعد هبوط الليل وتُنصت إلى جماعة من الشبان التفّوا فى ظلمة المساء حول طبلة فوق الجسر فيما وراء الساحة تماماً حيث يواصلون الغناء ساعات بطولها . وأحياناً ترى ناراً مشتعلة وفى وهَجِها يرقص الرجال كالأشباح بقمصانهم البيضاء أو عرايا إلا من مآزرهم وهم يضربون الأرض بأقدامهم ساعةً بعد أخرى فى الهواء البارد المُعتِم داخل وهج النار حيث لا يفتؤون يرقصون ويضربون الأرض كدجاج الهند . أو يسقطون على الأرض جالسين القُرفصاء بالقرب من النار طلباً للراحة وقد ألقوا عَباءاتهم من حولهم .

وسألتْ الهندىَّ الشاب قائلةً : — « لماذا ترتدون جميعاً نفس الألوان ؟ . . . . لماذا تضعون جميعاً الألوان الحمراء والصفراء والسوداء على قمصانكم البيضاء ؟ ولماذا ترتدى النساءُ القمصانَ السوداء ؟ » .

فنظر فى عينيها فى فضول وقد عَلَتْ وجهَه تلك الابتسامة الخفيفة المراوغة . ولكنها كانت تخفى وراءها خبثاً رقيقاً غريباً .

---

(١) البيوما : حيوان أمريكى من فصيلة الفهد .

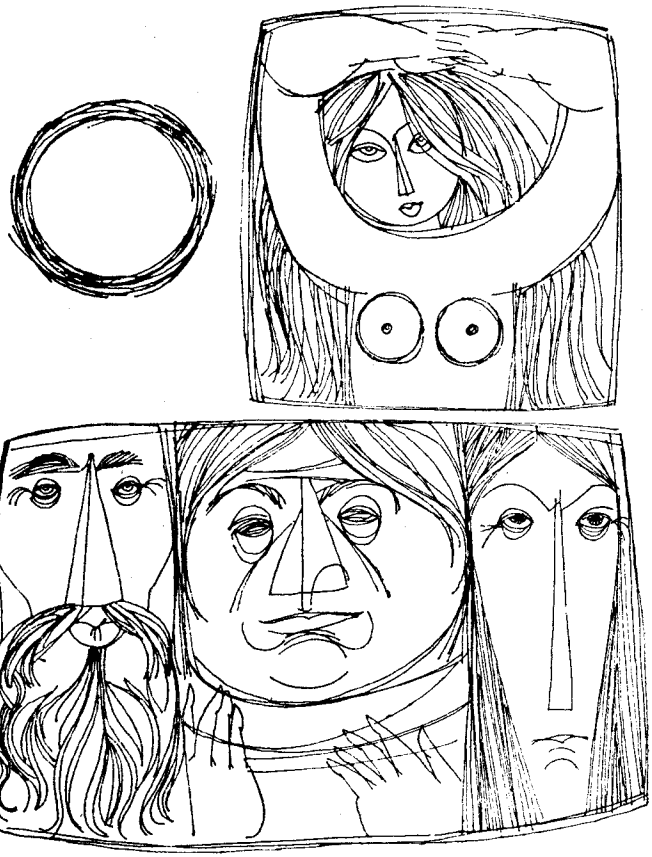

ثم قال : — « لأن رجالنا يمثلون النار والنهار . والنساء يمثلن ما بين نجوم الليل من فراغات » .

فقالت : — « ألا تُمثّل النساءُ حتى النجوم ؟ » .

— « كلا . فنحن نعتقد أن النساء يُمثلن الفراغات التى تفصل بين النجوم » .

ثم رماها بنظرة غريبة ولمعت فى عينيه مِسْحةُ الهُزْء والسخرية .

قال : — « إن الجنس الأبيض لا يعرف شيئًا . فهم كالأطفال لا تفارقهم اللُّعَب . أما نحن فنعرف الشمس والقمر . كما نعتقد أن آلهتنا عندما تُضَحّى المرأة البيضاء بنفسها من أجلها تأخذُ فى خَلْق العالم من جديد وتتحطّم آلهةُ الرجل الأبيض » .

فأسرعَتْ تسأله قائلة : — « وكيف تُضحّى بنفسها ؟ » .

واستدركَ هو نفسه بسرعة واستخفى بابتسامة ماكرة .

ثم قال مهدِّئًا من روعها : — « تُضَحّى بآلهتها وتلوذُ بآلهتنا . هذا هو ما أعنيه » .

ولكنها لم تطمئن . فأحسَّتْ فى قلبها بألمٍ مُثلَج من الخوف واليقين .

واستطرد قائلاً :— « إن الشمس تُقيم فى أحد طرفى السماء وفى طرفها الآخر يقيم القمر . ومن واجب الرجل أن يجعل الشمس طيلة الوقت سعيدة فى مقرها من السماء، ومن واجب المرأة أن تجعل القمر هادئًا فى مُستقرّه

منها . عليها أن تعمل دواماً على تحقيق ذلك الهدف . ولا يمكن مطلقاً أن تدخلَ الشمس بيت القمر فى السماء . وكذلك لا يمكن أبداً أن يدخلَ القمر بيتَ الشمس . ولذا فإن المرأة تطلب إلى القمر أن يدخل كهفها فى جوفها . كما أن الرجل لا يفتأ يجذب الشمس إلى أسفل حتى تصيرَ له قوةُ الشمس . ولهذا تدخلُ الشمسُ كهفَ القمر عندما ينال الرجل امرأةً وهكذا يبدأ كل شىء فى الوجود . . . » .

أنصتتْ إليه وهى تراقبه عن كَثَب كما تراقب عدواً ينطوى كلامه على معنى مزدوج .

ثم قالت : — « إذن فلم لا تكون لكم أيها الهنود السيادة على الجنس الأبيض » ؟

فقال : — « لأن الرجل الهندى قد ضعف وتخاذل وفقد سيطرته على الشمس فسرقها منه الرجل الأبيض . ولكنه لا يمكنه أن يحتفظ بها . . . فهو لا يعرف السبيلَ إلى ذلك . لقد فاز بها ولكنه لا يدرى ماذا يفعل بها ؛ كالصبى الذى يُمسكُ بدُبٍّ سنجابىٍّ كبيرٍ ولكنه لا يقوى على قتله أو الفرارِ منه . فالرجال البيض لا يدرون ماذا يفعلون بالشمس ، والنساء البيضاوات لا يدرين ماذا يفعلن بالقمر . فيغضب القمر على النساء البيضاوات كما تغضب البيوما عندما يقتلُ أحدٌ صِغارَها . ويَعَضّ القمر النساء البيضاوات — هنا فى جوفهن » . ثم ضغط على حد جنبيه

وأردف قائلاً : — « فالقمر غاضبٌ فى كهف المرأة البيضاء . والهندى يمكنه أن يرى ذلك » . ثم استطرد قائلاً : — « ولن تلبث الهنديات أن يستَعِدْن القمر ويحتفظن به هادئًا فى مأواهن . ويستولى الهنودُ على الشمس فيفرضون سلطانَهم على العالم أجمع . إن الرجال البيض لا يعرفون كُنْهَ الشمس . ولن يعرفوا ذلك أبداً » .

ثم استغرق فى صمتٍ غريبٍ متهلّل .

وتلعثمَتْ قائلة :— « ولكن لِمَ تمقُتوننا على هذه الصورة ؟ لماذا تكرهنى ؟ » .

فرفع بصره فجأة وقد أشرق وجهُه بالنور واندلع منه لهيبُ ابتسامةٍ مُفزعة . ثم قال فى رقة وهو ينظر فى وجهها ببريقٍ غريب : —

— « كلا . نحن لا نكره أحداً » .

فقالت حزينة يائسة : — « بل تكرهون » .

وبعد لحظة من الصمت نهض وانصرف .

٣

عندئذ حلّ الشتاءُ فى الوادى المرتفع وتساقط معه الثلج الذى كان يذوب فى شمس النهار وأقبلت ليالى الزمهرير . وواصلت المرأة حياتها فى نوعٍ من الذهول يخالجها إحساسٌ بأن قواها تفارقها رويداً رويداً

وكأن إرادتها تبارحها . كان لا يفتأ يراودها شعورٌ بالاسترخاء والارتباك والتضحية ما لم يُخدِّرْ عقلَها ذلك المشروبُ المحلَّى من عصير الأعشاب ويُطلِقْ العنانَ لحواسِّها فى حِدَّة روحانية فتُحِسّ بأنها تنتشر فى لذَّة داخل الإطار الكونى المنسجم . وفى النهاية لم تعُدْ تتعرَّف على نفسها حقًّا إلا وهى فى تلك الحالة من الوعى عندما يراودها ذلك الإحساس اللذيذ بأنها تنزف دمًا داخل إطار الجمال والانسجام الكونى الأعلى . عندئذ كان يمكنها فعلاً أن تسمع من خلال الباب نجوى الكواكب العديدة التى تراها منثورةً فى السماء وهى تخاطب الكون بلغة الكمال أثناء حركتها ولمعانها وتطأ أديم السماء كالأجراس فى تموجات رائعة يسابق بعضُها البعض ، ثم تتجمَّع فى رقصة أزليَّة تفصلها فراغات من الظلام . كما كان يمكنها أن تسمع صوتَ الثلج فى يومٍ باردٍ مُلبَّد بالغيوم وهو يُغرِّد ويُصفر بصوت خافت فى السماء كالطيور التى تتجمَّع وتطير بعيداً فى الخريف ، ثم يرفع عقيرته فجأةً مودعًا القمر الخفى وينسلُّ مبارحًا السهول الهوائية فيشيعُ فيها الدفء والطمأنينة . كانت هى نفسها تدعو الثلج المعلَّق فى طبقات الهواء العليا أن يتساقط وتدعو القمر الخفىّ أن تهدأ ثائرتُه وأن يعقد الصُّلحَ من جديد مع الشمس الخفية كما تصفو المرأة فى بيتها . بل كانت تشمُّ عبيرَ القمر وهو يسترخى نحو الشمس فى سماء الشتاء عندما يتساقط الثلج فى رفق واهنٍ باردٍ مُعطَّر بينما يعود الصفاءُ بين الشمس والقمر ويمتزجان فى تآلُفٍ وانسجام .

كانت تُحِسُّ بتلك الكآبة التى تغشى هنود الوادى — ذلك الحزن العميق الزاهد المتقشف الذى يكاد يكون دينيًّا فى مَنْبِتِه .

قال لها الهندىُّ الشاب وهو ينظر فى عينيها نظرةً ذاتَ مغزًى بعيد :

— «لقد فقدنا سيطرتنا على الشمس ونحن نحاول أن نستردَّها . ولكنها ثائرةٌ علينا مستنفرةٌ كالحصان الجامح . فعلينا أن نُعانى كثيراً » .

فردَّتْ قائلة وكأنها مسحورة : — « آمل أن تستردُّوها » .

فلاحتْ على وجهه ابتسامةُ النصر .

وقال : — « هل تأملين ذلك ؟ » .

فأجابت قائلةً كالقَدَر المحتوم : — « نعم » .

فقال : — « إذن حسنًا — فهى لنا » .

وانصرف متهلّلاً مسروراً .

أحسَّتْ أنها منساقة نحو غايةٍ مرموقة لا قُدرةَ لها على تجنبها ولكنها بدت لها فى النهاية ثقيلة مخيفة .

كان ذلك بلا ريب قُرابةَ شهر ديسمبر فقد كانت الأيام قصيرة عندما اقتادوها مرة أخرى لتقف أمام الشيخ عاريةً من ملابسها لتلمُسها أناملُه الحَرِمة .

نظر الزعيم الشيخ فى عينيها وقد تركَّزتْ فى عينيه نظرةٌ منعزلة بعيدة سوداء ثم تمتم لها بشىء ما .

وترجم لها الشاب عبارته مُبيِّنًا لها الحركة التى يجب أن تأتيها قائلا :

— « إنه يريدك أن ترسمى علامة السلام والوداع » .

وقد سحرتها عينا الزعيم الشيخ السوداوان الزجاجيتّان المركّزتان اللتان كانتا تراقبانها فى ثبات كعينى ملك الأفاعى فتقهران إرادتها . كما رأت فى أعماقها أيضاً حنانًا أبويًّا واستعطافًا . وضعت يدها أمام وجهها بالطريقة المطلوبة ورسمت علامة السلام والوداع . فردّ عليها مرة أخرى برسم علامة السلام ثم غاص بين وسائده الفرائية وخُيّل لها أنه سيموت وأنه يعلم ذلك .

وأعقب ذلك يومُ احتفال فأُخْرِجَتْ أمام الناس جميعًا فى عَبَاءة زرقاء ذات حاشية بيضاء ممسكةً بين يديها بريش أزرق . وتطيَّبَتْ بالبخور أمام الهيكل فى أحد المنزلين ورُشَّتْ بالرماد . كما عاد فأطلقَ عليها البخورَ أمام الهيكل فى المنزل المواجه كهنةٌ مخيفون فى ملابسِ زاهية تختلط فيها الألوان الصفراء والقرمزية والسوداء وقد اصطبغت وجوههم بطلاءٍ أحمر قرمزى، ثم ألقوا عليها الماء . وفى تلك الأثناء كانت تحس إحساسًا غامضاً بالنار التى تعلو الهيكل وبقَرْع الطبول الكئيب الثقيل ، وبصوت الرجال الحزين وقد رفعوا عقيرتهم بالغناء فى قوة وعمق ووحشية وبالوجوه الحاشدة فى الساحة فى أسفل وهى تتمايل وبتشكيلات الرقصة المقدّسة .

ولكن وعيها العادى عندئذ كان مخدّراً فكانت تُحِسّ بكل ما يحيط بها مباشرةً وكأنه أطياف تكاد تخلو من المادة ، غير أنها

استطاعت بحواسها التى لشدّ ما أرهقتْ أن تسمع صوت الأرض وهى طائرةٌ فى رحلتها كالسهم المنطلق وحفيفَ الهواء فى تموجات وطنينَ الوتر الهائل الكبير . وخُيّل لها أن فى طبقات الجو العليا سلطتين عظميين إحداهما ذهبية تجاه الشمس والأخرى فضية غير مرئية . تتجه الأولى كالمطر الصاعد إلى الوجود الذهبى نحو الشمس وتتجه الثانية كالمطر الهابط بلونه الفضى على سُلّم الفضاء نحو السحب المُحلِّقة فى تحفز فوق قمة الجبل الثلجية . ويقوم بينهما وجودٌ آخر ينتظر أن ينفُض عن نفسه البللَ والثلجَ الأبيضَ الثقيل الذى تجمّع حوله فى غموض . وفى الصيف ينتظر كالنسر المسمُوع ليتخلص من عبء أشعة الشمس الثقيلة . وكان فى لون النار . وهو لا يفتأ ينفُضُ عن نفسه الثلج أو الحرارة الثقيلة كالنسر الذى يهزُّ نفسه فى نشاط .

وثمة وجودٌ آخر غريب يقف مراقبًا عن بُعْد فى الفضاء الأزرق حيث لا يفتأ يراقب . وكان أحيانًا يرتطم بالريح أو يتألّق فى موجات الحرارة . فى حين تبدو الريحُ الزرقاء نفسُها وكأنها تندفع من خلال الثقوب إلى جوف السماء. ثم تندفع هابطة من السماء إلى الأرض. إنها الريح الزرقاء وهى تقوم بدور الوسيط والشبح الخفىّ الذى ينتمى إلى عالمين ويعبَثُ بأوتار المطر الصاعدة والهابطة .

كان وعيُها العادى الشخصى لا يفتأ يزايلها رويداً رويداً ولا تفتأ تدخل فى ذلك الوعى الكونىّ العاطفى الآخذ كما لو كانت مُخدَّرة . فقد أخضعها الهنود لرؤاهم بطبائعهم الدينية المسرفة .

ولكنها سألتْ الهندى الشاب سؤالا شخصيًّا واحداً قائلة :

— « لم لا يرتدى اللونُ الأزرق أحد سواى ؟ ».

— « إنه لون الريح . لون الشيء الذى يُولّى بعيداً ولن يعود . ولكنه لا يفتأ يقيم هنا بيننا دائمًا كالموت . إنه لون الموتى كما أنه يقف بعيداً حيث ينظر إلينا من بُعْد ولا يستطيع الاقتراب منا . ولا نكاد نقترب منه حتى يبتعد . فلا يمكنه أن يكون قريبًا . أما نحن جميعًا فلوناننا الأصفر والبنى . وشعرنا أسود وأسناننا بيضاء ودَمُنا أحمر . فنحن الباقون هنا . أما أنتم ذوو العيون الزرقاء فإنكم الرسل القادمة من بعيد . ولا يمكنكم البقاء هنا . وقد حان الوقت لعودتكم » .

فسألته قائلة : — « إلى أين ؟ »

— « إلى الأشياء البعيدة كالشمس وأم المطر الزرقاء لتخبروها بأننا الشعب الذى سوف يسود العالم مرة أخرى وأننا نستطيع أن نحمل الشمس إلى القمر مرة أخرى كما نحمل الجواد الأحمر إلى الفرسة الزرقاء إننا ذلك الشعب . فقد أبعدَتْ النساء البيضاوات القمر فى السماء ولم يسمحن له بالاقتراب من الشمس . ولذلك فإن الشمس غاضبة . والهندى مُطالَبٌ بأن يهب القمر للشمس » .

فقالت : — « وكيف ؟ » .

— « إن المرأة البيضاء لا بد أن تموت وتذهب كالريح إلى الشمس لتخبرها بأن الهنود سوف يفتحون لها الباب . وأن الهنديات سيفتحن

الباب للقمر . فالنساء البيضاوات لا يسمحن للقمر بالهبوط من مُرجانه الأزرق . فى حين أنه كان يهبط بين الهنديات كالشاة البيضاء بين الزهور والشمسُ تبغى أن تهبط بين الهنود كما يهوى النسرُ على أشجار الصنوبر . ولكنها محتجبةٌ خلف الرجل الأبيض كما احتجب القمرُ خلف المرأة البيضاء ولا يمكنهُما الهرب . فاستبدَّ بهما الغضب كما غَضِبَ كلُّ شىء فى الوجود . ويقول الهندى إنه سيَهَبُ المرأةَ البيضاءَ للشمس فتثب الشمس من فوق الرجل الأبيض عائدةً إلى الهندى . أما القمر فستنتابه الدهشة عندما يرى الباب مفتوحًا ولن يدرى أين يذهب . ولكن المرأة الهندية سوف تدعوه قائلة : — « أقْبِل ! أقْبِل ! عُدْ إلى أرضى الخضراء . فلن تستطيع المرأةُ البيضاءُ الخبيثةُ أن تعود إلى إيذائك » . ثم تطلُّ الشمسُ من فوق رءوس الرجال البيض وترى القمر فى مراعى نسائنا وقد وقف من من حوله « الهنودُ الحُمر » كأشجار الصنوبر . عندئذ تثبُ الشمس من فوق رءوس الرجال البيض فترى القمر وتخِفُّ مسرعة إلى الهنود من خلال أشجار التنُّوب . وهكذا تكون الشمس عن يميننا والقمرُ عن يسارنا نحن الباقين هنا ذوى الألوان الحمراء والسوداء والصفراء . فيمكننا أن نُسقِطَ المطر من المراعى الزرقاء ونرفعه إلى أعلى من المراعى السوداء . كما يمكننا أن ندعُوَ الريح لتأمر القمح بالنمو عندما نطلب إليها ذلك . وبأمْرِنا ينشق السحاب وتضعُ الشاةُ توأمين . ونمتلئ قوةً كأيام الربيع . أما الشعبُ الأبيض فإنه سيكون شتاء قاسيًا بلا ثلج . . » .

فقالت المرأة البيضاء : —« ولكننى لا أحجُبُ القمر — فكيف يمكننى ذلك ؟ » .

فقال : — « نعم فأنت تُغلقين الباب دونه ثم تضحكين وتعتقدين أن كلّ شىء رَهْنٌ بمشيئتك » .

ولم تستطع قط أن تفهم نظرته إليها . فلشدّ ما كان رفيقًا بها دائمًا على صورة غريبة ولشدّ ما رقّتْ ابتسامتُه . ولكن ثمة بريقًا خاطفًا أخذ يتلألأ فى عينيه . ونَضَحَتْ كلماته بكراهيةٍ لا تلين ، كراهيةٍ غريبة عميقة غير نابعة من شخصه . فقد وثِقَتْ أنه كانَ يُحِبُّها شخصيًّا ، لحدْبه عليها وانجذابه إليها على صورة غريبة رقيقة هادئة . ولكن كراهيته إياها لم تكن شخصية بل روحانية — فكان يبتسم لها فى إغراء — ولكنها لو التفتت إليه فى اللحظة التالية على حين غرة لرأت فى عينيه وميضَ الكراهية الخالصة .

سألته قائلة : — « هل يجب أن أموت وأُقدّم قربانًا للشمس ؟ »

فقال ، وهو يضحك مراوغًا : — « فى وقتٍ ما . فى وقتٍ ما كلُّنا سنموت » .

كانوا يعاملونها برقة . ولشدّ ما كانوا يحافظون على شعورها . والغريب أن الكهنة المسنين والزعيم الشاب كانوا على السواء كالنساء يسهرون على راحتها ويشملونها بعطفهم . فقد كان إدراكهم الرقيق الماكر يتميّز بطابَع نِسْوِىٍّ إلى حد ما . أما عيونهم ببريقها الغريب وأفواههم المظلمة

المطبقة التى إذا مافتحت كشفت عن فكّ عريض وأسنان صغيرة قوية بيضاء فلشد ما كانت تتميّز برجولة بدائية وقسوة فطرية .

وفى أحد أيام الشتاء وكان الثلج يتساقط ، اقتادوها إلى غرفة فسيحة مظلمة فى المنزل الكبير وكانت النار مشتعلةً فى إحدى زواياها على منصة مرتفعة أسفل مظلة من اللّبِن . فرأت فى وهج النار أجسادَ الكهنة أنصافَ العراة كما رأت على سقف الغرفة وجدرانها رموزاً غريبة . وكانت الغرفة خالية من الأبواب والنوافذ فقد هبطوا إليها عن طريق سُلّم من السطح . وكانت نار الخشب العزيزىّ لا تفتأ ترقص كاشفةً عن جدران مطليّة برموز غريبة استغلقت على إدراكها وسقف من الأعمدة كان يتكوّن منها زخرفٌ غريبٌ يتألف من الألوان السوداء والحمراء والصفراء . وتجاويف على شكل مشكاة أودِعَتْ فيها أشياء غريبة لم تستطع أن تتبيّنها .

وكان شيوخُ الكهنة بالقرب من النار يؤدُّون بعض الطقوس فى صمت هندى عميق . وقد جلست هى فى مواجهة النار على بروز منخفض فى الحائط وبجانبها رجلان ما لبثا أن قدّما لها مشروباً فى قدح تناولته فى سرور لأنها توقعت أن يجعلها فى شبه غيبوبة .

ولشدّ ما أحسّتْ بكل مايحدث لها وهى غارقة فى الظلام والصمت ؛ كيف نزعوا عنها ملابسها وأوقفوها أمام رمز ضخم غريب نُقِشَ على الحائط بالألوان الزرقاء والبيضاء والسوداء ، وكيف غسلوا جسدها كله

بالماء ومنقوع « الآمول amole » بل غسلوا شعرها أيضًا فى رفق وعناية ثم جففوه بأقمشة بيضاء حتى صار لينًا لامعًا . وكيف أرقدوها على مضجع أسفل صورة كبيرة لا سبيل إلى حل رموزها مُلوَّنة بالحمرة والصُّفرة والسواد ثم ضمَّخوا جسدها كله بزيت طيِّب الرائحة ودلكوا جميع أطرافها وظهرها وجنبيها دَلْكًا طويلاً غريبًا منوّمًا . فقد أوتيتْ أيديهم السمراء قوةً خارقة، ولانت فى نفس الوقت كالماء على صورة لم تستطع إدراكها . ورأت أن الوجوه السمراء المائلة إلى الأمام بالقرب من جسدها الأبيض قد اشتدَّت قتامتُها بصبغة حمراء وخطوط صفراء حول الوجنتين كما تألَّقتْ العيونُ السوداء فى استغراق بينما لم تفتأ الأيدى تعمل فى الجسد الأبيض الرقيق .

لشد ما ارتفعوا عن أشخاصهم واستغرقوا فيما وراء وجودها . فقد أمكنها أن تتبيَّن أنها لم تكن فى نظرهم امرأة قط بل رمزاً روحانيًّا ووسيلةً لنقل عواطفَ لا يصل إليها إدراكُها . وكانت وهى فى حال من الغيبوبة تُراقبُ وجوهَهم السمراء المنحنية فوقها وقد لمعتْ على صورة غريبة بطلائها الأحمر الشفاف واكتستْ بخطوط صفراء . وفى وسط ذلك القناع الحىّ الغريب الأسمر المضىء شَخَصَتْ عيونهم وانبعث منها وميضٌ ثابتٌ لا يتغير ، وانطبقَتْ شفاهُهم المصبوغةُ بالحُمرة فى جهامة شاملة حزينة مشئومة . وأمكنها أن تقرأ فى وجوههم حزنًا هائلاً عميقًا وجهامةَ التصميم المطلق وثبوت النيَّة

على الانتقام والفرحة الوليدة التى تخالج السائرين على طريق النصر . رأت فى وجوههم تلك الإحساسات كلها وهى راقدة تدلُكُها أيديهم السمراء الغريبة الغامضة فتُضفى عليها تألقاً مبهماً . وخيل لها فى النهاية أن أطرافها ولحمها بل حتى عظامها تنتشر فى ضباب وردىّ حلَّقَ فيه وعيُها كوميض الشمس فى سحابة حمراء .

كانت تعلم أن الوميض لن يلبث أن يخبو ، وأن السحابة لن تلبث أن تتحوّل إلى الشّهية . ولكنها الآن لا تُصدِّق ذلك . كانت تعلم أنها ضحية : وأنهم بكل ذلك العمل المتقن إنما يعدونها للتضحية . غير أنها لم تُبال بذلك بل تلك كانت بغيتها .

وبعد ذلك ألبسوها ثوباً قصيراً أزرق واقتادوها إلى الشرفة العليا حيث قدَّموها إلى الناس . فرأت الساحة فى أسفل وقد احتشدت بالوجوه السوداء والعيون اللامعة التى خلَتْ من كل أثر للشفقة بل تهلَّلتْ بفرحة غريبة فحسب . وما إن رأوها حتى أطلقوا صيحةً خافتة اقشعرَّ لها بدنُها . ولكنها لم تكد تعبأ بها . ولم يتبقَّ سوى اليوم التالى . فنامت فى إحدى غرف المنزل الكبير . وعند الفجر ألبسوها عباءةً كبيرةً زرقاء مُهدَّبة الحاشية ثم اقتادوها إلى الساحة فى الخارج بين الجُموع الصامتة التى اتشحَتْ بالعَباءات السوداء وقد تناثر على الأرض الثلجُ الأبيضُ الناصعُ . وبدا الناس بوجوههم السوداء وعباءاتهم البُنِّية القاتمة وكأنهم سكانُ عالم آخر .

وثمة طبلةٌ ضخمةٌ كانت تقرع فى بطء . فى حين أنه استغرق كاهنٌ مُسِنٌّ فى إلقاء خطبة منبرية من فوق أحد المنازل . ولكن المحفة لم تصل إلا عند الظهيرة حين أطلق الناس تلك الصيحة الحيوانية الخافتة التى لشدّ ما تأثّرتْ لها . وكان الزعيم الشيخ يجلس فى المحفة الشبيهة بالجوال وقد ضُفِر شعرُه الأبيضُ بجديلة سوداء رُصِّعَتْ بأحجار الفيروز الكبيرة . وكان وجهه أشبهَ بقطعة منَ الزجاج الأسود . رفع يده مشيراً فتوقفتْ المحفة أمامها . ثم ركّزَ عليها عينيه الهرمتين وخاطبها بصوته الأجوف بضع لحظات . ولكن أحداً لم يترجم لها ما قال .

ثم جاءت محفّةٌ أخرى وُضِعَتْ فيها . وتقدّمها أربعةٌ من الكهنة بملابسهم الصفراء والسوداء والقرمزية وأكاليلهم المصنوعة من الريش وتَبِعَتْها محفّةُ الزعيم الشيخ . ثم بدأ قَرْعُ الطبول الخفيفة . وانطلقت جماعتان من المُنشدين يُغَنُّون معاً إحدى أغانيهم . بصوت ذكَرِىّ هَمَجِىّ ، وأخذ الرجالُ أشباهُ العرايا ذوو البشرة الذهبية الحمراء يكوّنون صفَّين ويخطون خطوات الرقص وهم فى مآزرهم يُزيّنهم ريشُ الطقوس وقد تدفّقَتْ على ظهورهم أنهار شعورهم السوداء . وهكذا خرجوا من الساحة المغطاة بالثلج فى صفَّين طويلين باذخين من الذهب الأحمر القانى والسواد والفراء وهم يتمايلون فى صلصَلة خافتة يُحدثُها اهتزاز القواقع وشظايا الصوّان الصغيرة ويتلوّنَ فوق الثلج فى جماعتين من الرجال كسِرْبين من النحل لا ينقطع غناؤهما حول الطبول .

أخذوا يتحركون فى بطء إلى خارج الساحة تتبعهم محفّتُها بحاشيتها الراقصة من الكهنة المريّشين الملونين على صورة مخيفة . كان الجميع يرقصون حتى حَمَلَة المحفّة الذين أخذوا يخطون خطوات الرقص فى رفق ومهارة . وغادروا الساحة مارّين فى طريقهم بأفران كان يتصاعد منها الدخان وهم يتجهون فى بطء نحو أشجار التُّنوب الفضية السامقة التى انعكست كالدنتلا الفضية الرمادية فى عُرْيٍ وروعة على السماء الزرقاء فوق الثلج . وكان النهرُ المنخفضُ يندفع بين أنياب الجليد . وقد غطى الثلج جميع مربّعات الحدائق داخل الأسوار ؛ أما المنازل البيضاء فكانت تبدو عندئذ ضاربةً إلى الصُّفرة .

كان الوادى بأسره حتى جدران الصخر القاتم يتلألأ بالثلج الخالص على مدى البصر على صورة تفوق الاحتمال . فى حين أنه لم يفتأ يتلوّى صفٌّ طويل من الراقصين وهو يهتزُّ فى بطء ويذخ بحركة برتقالية سوداء عَبْر المَهْد المستوى لحوض الثلج . ودوّى قرعُ الطبول مسرعاً فى دقّاته بينما حمل الهواء البللورى المتجمد زئيرَ الهَمَج المرتفع وهم يُنشدون أغنيتهم أشبه ما يكون بالكابوس المقيم .

جلست تطلُّ من محفّتها بعينين زرقاوين واسعتين شاخصتين فى ذهول وفى أسفلهما هالتان ممتقعتان من أثر إعيائها المُخدَّر . كانت تعلم أنها ذاهبةٌ إلى حَتْفها وسط الثلج المتألّق على أيدى هؤلاء الهمج المترفين . وبينما كانت تُحملق فى بريق السماء الزرقاء فوق الجبل الكئيب المخطّط بالثلج حدّثتْ نفسها قائلةً :

ـ « لقد مِتُّ بالفعل . فأىُّ فرق هناك بين موت أعانيه وموت أدانيه بعد قليل. ولكنها أحسَّتْ بالغثيان فى روحها وبالإعياء فى جسدها.

واصل ذلك الموكبُ الغريبُ الحرّار طريقه فى رقص لا ينقطع وهو يتحرك رويداً عَبْر السهل وقد كساه الثلج ثم دَلَفَ إلى المراقى التى تحف بهـا أشجار الصنوبر . كانت ترى الرجـالَ ذوى البشرة النحاسية القاتمة وهم يخطون قُدُمًا خَطْو الرقص بين جذوع الأشجار النحاسية الشاحبة . وأخيراً دخلت هى أيضاً بمحفتّها المتمايلة بين أشجار الصنوبر .

أخذوا يواصلون السير فى صعود عَبْر الثلوج المتراكمة تحت الأشجار وهم يمرون فى طريقهم بجذوع رائعة أشبه بالأسلحة النحاسية البيضاء الباهتة فى حين أخذ حفيف الراقصين وخطوُهم واهتزازُهم يخترق الغابة والجبل . كانوا يتابعون حوضَ جدولٍ جفَّت مياهه كما فى الصيف وذلك لتجمُّد منابعه . وبدت شجيراتُ الصفصاف البرونزية القاتمة الدكناء وقد تشابكت أغصانُها كالشعر الثائر الأشعث وبدت أشجار الحور الباهتة منعكسة على الثلج كالبدن البارد . ثم ظهرت للعيان صخورٌ ناتئة قاتمة .

وأخيراً أمكنها أن ترى الراقصين وقد توقفوا عن التقدم ـ وأخذت تقترب رويداً رويداً من قرع الطبول وكأنها تدنو من عرينٍ تسكنه حيوانات غامضة . ثم أشرفت من خلال الأشجار على مدرَّجٍ غريب

حيث قام فى مواجهتها جدارٌ هائل من الصخر الأجوف تدلَّى أمامه كالناب عمودٌ ضخم من الجليد يتساقط منه الماء . وكان الجليد ينصبُّ فوق الصخرة من الهاوية فى أعلى ثم يقف مُعلَّقًا فى الهواء متقاطراً من عُليا السماء يكاد يبلغ الأحجار الجوفاء فى أسفل حيث ينبغى أن تترقرق بركة الجدول . ولكنها كانت جافة .

وعلى جانبى البركة الجافة تشكَّلتْ صفوفُ الراقصين واستمر الرقص بلا انقطاع منعكسًا على خلفيَّة من الشجيرات .

ولكنها لم تشعر إلا بتلك القمة الجليدية المقلوبة المدبَّبة التى تعلَّقتْ بشَفا الهاوية المظلمة فى أعلى . ومن خلف ذلك الحبْل الجليدى الضخم رأت أشباحَ الكهنة وهم يتسلقون كالفهود سَفْحَ الصخرة المجوفة إلى حيث الكهف الذى كان أشبه بالحِجاج المظلم وقد حُفِر إلى الداخل على شكل فجوة أو فُوّهة فى وسط الصخرة الشامخة .

ولم تكد تُدرك ما يحدث لها حتى كان حمَلة محفتَّها يترنَّحون بها فى مواطئ الأقدام وهم يتساقون الصخرة . وتوارت هى أيضًا خلف الجليد المعلَّق على ستار لم تنشر بل تدلى كالناب الضخم . وعلى مقربة منها فى أعلى بدت فُوهةُ الكهف الغائر فى جوف الصخر المظلم . راحت ترقبها وهى تمايل صاعدةً إلى أعلى .

وكان الكهنة فى بهاء ريشهم وعباءاتهم المُهدَّبة الحواشى يقفون فى انتظارها على الإفريز وهم يراقبون صعودَها . وانحنى اثنان

منهم ليمُدّا يد المساعدة إلى حامل محفّتها . وأخيراً بلغت فريز الكهف وكان بعيداً خلف عمود الجليد فى أعلى المدرج المجوف الذى اكتنفته الشجيرات فى أسفل حيث أخذ الرجال يرقصون بينما تجمع أهل القرية على بكرة أبيهم فى صمت وسكون .

كانت الشمس تميل إلى الغرب منحدرة فى سماء الأصيل ؛ وكانت تعلم أن ذلك اليوم هو أقصر أيام السنة وآخر أيام حياتها . فأوقفوها فى مواجهة عمود الجليد ذى الألوان المتغيرة الذى كان ينصبُّ أمامها عن بُعد معلقاً فى الهواء على صورة عجيبة .

وأعطيتْ إشارةٌ ما فتوقّفَ الرقصُ فى أسفل وران عندئذ سكونٌ مطبق . ثم ناولوها جُرعةً من المشروب . وقام كاهنان بنزع عباءتها وثوبها فوقفت هناك فى شحوبها الغريب بين عَباءات الكهنة الملونة فيما وراء عمود الجليد حيث أشرفت على جماهير الشعب الأسود بعيداً عن متناول أيديهم . وانطلقت من الحَشْد فى أسفل صرخةٌ همجيّة خافتة . ثم أدارها الكاهن فوقفت موليةً ظهرها للعالم المكشوف وقد استرسل شعرها الأشقر الطويل على مرأى من الناس فى أسفل فصاحوا مرة أخرى .

كانت تواجه الكهفَ الغائرَ إلى الداخل حيث كانت النار تتأجج مهتزة فى أعماقه . وقد خلع أربعةٌ من الكهنة عُباءاتهم وكادوا يحاكونها فى عُرْيها . كانوا رجالاً أشداء فى عُنفوان شبابهم . وقفوا خافضين وجوههم المصبوغة السمراء .

وأقبل الكاهن الشيخ من ناحية النار حاملاً مبخرة . كان عارياً وفى حال من النشوة الهمجية . أخذ يُطلق البخور عل ضحيته مرتّلاً ، اويذَه فى نفس الوقت بصوت أجوف . ومن خلفه جاء كاهنٌ آخر عارٍ من ملابسه وقد أمسك بسكّينين من الصّوان .

وعندما تمّ تبخيرُها أرقدوها على حجرٍ كبيرٍ مستو . وكان الرجال الأربعة الأشدّاء يُمسكون بها من ذراعيها وساقيها وقد مُدتْ إلى الخارج ومن خلفها وقف الشيخ كالهيكل العَظْمى يُغطيه زجاجٌ أسود ممسكاً بسكين ، وقف يراقب الشمس شاخصاً كالمذهول . ومن خلفه وقف كاهنٌ آخر عارٍ ممسكاً بسكين .

كانت تدرك كل مايدور حولها ولكنها لم تختلج إلا قليلاً . استدارت نحو السماء ونظرت إلى الشمس الصفراء وهى تغوص فى الأفق وقد وقف عمود الجليد كالشبح بينها وبين الشمس . ولا حظت أن الأشعة الصفراء كانت تملأ الكهف حتى منتصفه ولكنها لم تبلغ المذبح حيث كانت النار تتأجج عند الطرف القصى من الفجوة المجوّفة على شكل قُمع .

نعم . كانت الأشعة تزحف مستديرةً فى بطء . وكلما زاد احمرارها توغّلتْ داخلَ الكهف حتى إذا ما أوشكتْ الشمس على المغيب اتجهتْ بكامل ضوئها خلال عمود الجليد إلى أعماق الكهف حيث تبلغ أقصاه .

عندئذ أدركت أن ذلك هو ما ينتظره الرجال . حتى أولئك الذين

كانوا يُمسكون بها وهى راقدة قد مالوا بظهورهم والتوتْ رءوسُهم إلى الخلف ليُراقبوا الشمس فى حماس متألّق ورهبة وحنين . وقد تركّزتْ على الشمس عينا الزعيم الشيخ كمرآتين سوداوين وكأنهما لا تُبصِران شيئًا ولكنهما تحويان ردًّا مخيفًا على كوكب الشتاء المحمرّ . وكانت عيونُ الكهنة جميعًا مُسلطةً فى تألّقٍ على الكرة الفلكية الهابطة وسط السكون المتجمّد المُحمَرّ فى أصيل الشتاء .

ولشدّ ما بدا القلق فى عيونهم ، القلقُ الرهيبُ والقسوةُ والوحشية وكانت وحشيتُهم تبغى شيئًا وكانوا فى انتظار تلك اللحظة . وقد تحفّزَتْ وحشيّتُهم للوثوب فى خِضَم النشوة ، نشوة النصر الروحانية . ولكنهم كانوا فى قلق .

أما عينا الشيخ وحده فقد خلتا من القلق . بل كانتا تراقبان الشمس وما وراءها فى سوادهما وتركيزهما وكأنهما مكفوفتان . ولشدّ ما أضفى عليهما تركيزُهما الأسود الخاوى قوةً ، قوةً بعيدةً ولكنها عميقة بعيدةُ الغَوْر تبلغ قَلْبَ الأرض وقَلْبَ الشمس . راح يراقبُ الشمس الحمراء فى سكون مُطبق حتى ترسل شُعاعَها من خلال عمود الجليد . وعندئذ يضرب الشيخ ضربتَه ، ضربتَه القاضية مؤدِّيًا التضحية وهكذا تدين له السيادة والسيطرةُ .

تلك السيادة التى ينبغى أن يفرِضَها الإنسان والتى تنتقل من جنس إلى جنس .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

العذراء والغجرى

فى هذه القصة تتمثل إلى حد بعيد نزعة لورانس إلى نصرة الطبيعة على مجتمع التقاليد الفاسد العفن . ويتمثل انتصار الطبيعة فى انهيار السد المقام على نهر بابل وفيضان المياه وانطلاقها كالسيل الجارف لتكتسح أمامها كل شىء فيتقوض مبنى الأبرشية ، وكان صرحاً للتقاليد ، وتغرق الأم العجوز ، وكانت رمزاً للعناد والأثرة والسيطرة ، ويلتئم شمل العاشقين بطلى القصة : الغجرى الطريد والعذراء إيفيت ابنة القس الصغيرة المدللة بعد أن فرقت بينهما القيود الاجتماعية والفوارق الطبقية . وعلى إثر هذه الكارثة يتطهر قلب العمة « سيسى » من أحقاده ويتفجر ينبوع الحب فى قلب القس . إنها قصة الطبيعة التى ثارت على طغيان الإنسان ونفاقه وأحقاده فحطمت كل شىء لتبلغ غايتها المنشودة .

أما قصة « المرأة التى جمحت » فهى قصة امرأة عصرية استجابت لنداء الطبيعة الغامض فهجرت زوجها ربيب المجتمع الصناعى الرأسمالى وهجرت طفليها مولية وجهها شطر مجتمع الهنود حيث قدموها قرباناً للآلهة بغية استرضائها فتنحاز إليهم وتعيد إلى مجتمعهم الطبيعى الأصيل سابق قوته وسطوته متخلية عن الرجل الأبيض ومجتمعه الصناعى الزائف .

١٥٢١٨

حصريات

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com